تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الخامس عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن



وما أصدَقَ قولَ القائل

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا أَلْهَمْتَ لَنَا
لَكَ ٱلشُّكْرُ يَا مَوْلاَنَا عَلَىٰ مَا أَسْعَفتَ لَنَا

شعر آخر

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ لاَ تَطْلُبْ مُكَاثَرَةً فَٱلْقَصْدُ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْتَ طَالِبُهُ
فَٱلْمَرْءُ يَفْرَحُ بِٱلدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا وَلاَ يُفَكِّرُ مَا كَانَتْ عَوَاقِبُهُ
حَتَّىٰ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ وَفَارَقَهَا تَبَيَّنَ ٱلْغَيْنَ فَٱشْتَدَّتْ مَصَائِبُهُ

ولقَدَ أجَادَ مَنْ قال

لَوْ عِشْتُ عَامِ فِي سَجْدَةٍ لِرَبِّىٰ
شُكْراً لِفَضْلِ يَوْمِ لَمْ أَقْضِ بِٱلتَّمَامِ
وَٱلْعَامُ أَلْفُ شَهْرِ وَٱلشَّهْرُ أَلْفُ يَوْمِ
وَٱلْيَوْمُ أَلْفُ حِينِ وَٱلْحِيْنُ أَلْفُ عَامِ

آخر

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعَاً فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ وَحِرْزٍ وَرِفْعَةٍ فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظةً وشفاء لما في الصدور، وجعَلَه مَنْهلاً عذباً للورود والصدور، أظهره من مقام الجمع والتنزيه والنون، فألزمه حجة لأهل الظواهر والبطون، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد وآله وأصحابه المقتبسين من مكشاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم ممن تخلق بالقرآن في كل زمان، ما تعاقب الملوان وطلع المرزمان.

أما بعد: فلما فرغت من تفسير الجزء الثالث عشر من القرآن.. أخذت في تفسير الجزء الرابع عشر منه بتوفيق الله سبحانه وتعالى وتيسيره. اللهم كما عودتني في الأول خيراً كثيراً، فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، فلك الحمد في الأولى والأخرى على عنايتك الكبرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الحِجر

وهي كلها مكية بإجماع المفسرين، وهي تسع وتسعون آية، وكلماتها: ست مئة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبع مئة وستون حرفاً.

فائدة: أطول كلمة في القرآن: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ لأنها أحد عشر حرفاً، وأما: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ فعشرةٌ. اهـ «روح البيان».

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من السورة من وجوهٍ[1]:

١ ـ أنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها، من وصف الكتاب المبين.

٢ ـ أنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة، وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين، كما كانت السالفة كذلك.

٣ ـ أن في كل منهما وصف السموات والأرض.

٤ ـ أن في كل منهما قصصاً مفصلاً عن إبراهيم عليه السلام.

٥ ـ أن في كل منهما تسلية لرسول الله ﷺ بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم، وكانت العاقبة للمتقين.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما[2] روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الحِجر.. كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمدٍ ﷺ» والله أعلم.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الحجر جملة ما فيها من المنسوخ خمس آيات[3]:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ الآية (٣) نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الآية (٨٥) نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية (٨٨) نسخت بأية السيف.

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

(٣) الناسخ والمنسوخ.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ الآية (٨٩) نسخ معناها أو لفظها بآية السيف.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية (٩٤) نصفها محكم ونصفها منسوخ بآية السيف. انتهى.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أوّل هذه السورة لآخر التي قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[١] في آخر السورة التي قبلها أشياء من أحوال القيامة، من تبديل السموات والأرض، وأحوال الكفار في ذلك اليوم، وأن ما أتى به هو على حسب التبليغ والإنذار.. ابتدأ في هذه السورة بذكر القرآن الذي هو بلاغ للناس، وأحوال الكفرة ووداداتهم لو كانوا مسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه

(١) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] استهزاء الكفار به ﷺ، ونسبته إلى الجنون، واقتراح نزول الملائكة.. سلاّه تعالى بأن من أرسل من قبلك كان ديدن المرسل إليهم مثل ديدن هؤلاء معك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا هدَّد[2] الكافرين وبالغ في ذلك أيما مبالغة.. شرع يذكر بعض مقالاتهم في محمد ﷺ المتضمنة للكفر بما جاء به، ثم يذكر ما هم فيه من جحود وعناد، بلغا مدى تنكر معه المشاهدات، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات، ثم ذكر سبحانه لرسوله ﷺ تسليةً له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعاً، فهذا دأب كل محجوج، فكثيرٌ من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها، فلك أسوة بهم في الصبر على سفاهتهم وجهلهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[3] شديد جحودهم، وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئاً، حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات، ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات.. أعقب هذا ببيان أنهم قد كانوا في غنى عن كل هذا، فإن في السماء وبروجها العالية، وشموسها الساطعة وأقمارها النيِّرة، وسيَّاراتها الدائرة، وثوابتها الباسقة، عبرةً لمن اعتبر، وحجةً لمن ادكر، فهلاَّ نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها، وكيف حدثت بها الفصول والسنون، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة، وأوقات معلومة لا تغيير فيها ولا تبديل، فبأمثال هذا يكون اليقين، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين، ويشتد أزر سيد المرسلين، وهلاَّ رأوا الأرض كيف مدت، وثبتت جبالها، وأنبتت نباتها بمقادير معلومة موزونة في عناصرها وأوراقها وأزهارها وثمارها، وجعل فيها معايش للإنسان والحيوان، أفلا يعتبرون بكل هذا؟ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما بيَّن سبحانه وتعالى فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش في هذه الحياة.. أتبعه هنا بذكر ما هو كالسبب في ذلك، وهو أنه تعالى مالك كل شيء وأن كل شيء سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لا حصر له.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما رواه الترمذي والنسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ، حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيفة الأنصاري عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أأنزلت في سبيل الله؟ قال: لا، ولكنَّها في صفوف الصلاة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓر﴾ تقدم القول في بيان معاني هذه الحروف ومبانيها، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ويا، وينطق بأسمائها ساكنة، فيقال: ﴿ألف لام را﴾، وقيل[2]: اسم للسورة، وعليه الجمهور؛ أي: هذه السورة مسماة بـ ﴿الٓر﴾، ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه السورة العظيمة الشأن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: آيات من الكتاب المنزل عليك، الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق، على ما يدل عليه اللام؛ أي: بعض من جميع المنزل عليك، أو من جميع المنزل إذ

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.

ذاك، أو آيات من اللوح المحفوظ، ﴿وَ﴾ آيات من ﴿قرآن﴾ عظيم الشأن ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: مظهرٍ للحق من الباطل، والرشد من الغيّ، والحلال من الحرام، فهو من أبان المتعدِّي، ويمكن أن يجعل من اللازم؛ أي: الظاهر أمره في الإعجاز، أو الواضحة معانيه للمتدبرين، أو البين للذين أنزل عليهم، لأنه بلغتهم وأساليبهم. وعطف القرآن على الكتاب من عطف إحدى الصفتين على الأخرى؛ لأن المقصود منهما واحد؛ أي: هذه السورة آيات من الكلام الجامع بين صفتي الكتابية والقرآنية، ذكره في «روح البيان». وتنكير القرآن للتفخيم كتعريف الكتاب.

﴿رُّبَمَا﴾ رب ههنا للتكثير، كما في «مغني اللبيب»؛ أي: كثيراً، ﴿يَوَدُّ﴾ ويتمنى في الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقرآن وبكونه من عند الله تعالى ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: كونهم مسلمين في الدنيا، مستسلمين لأحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه.

وإنما دخلت[1] رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي؛ لأن المترقب في أخباره تعالى كالواقع المتحقق، فكأنه قيل: ربما ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين؛ أي: منقادين لحكمه، مذعنين له من جملة أهله، وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة، والمراد: أنه لما انكشف لهم الأمر، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر، وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام، لا دين غيره.. حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي لمجرد التحسر والتندم، ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله تعالى. وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين. وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار. والظاهر: أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت، مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم.

وبالجملة: فهذا إخبار[2] من الله سبحانه عن الكفار بأنهم سيندمون في الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر، ويتمنون أن لو كانوا في الدنيا مسلمين.

وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة.. قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار.. قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾. قال الزجاج: إن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب، ورأى حالاً من أحوال المسلم.. ود أن لو كان مسلماً.

وقصارى ذلك[١]: قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين، حينما يعاينون العذاب وقت الموت والملائكة باسطوا أيدهم، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون، وفي الموقف حينما يرون هول العذاب، وقد انصرف المسلمون إلى الجنة، وسيقوا هم إلى النار، والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها، وبقي الكافرون في جهنم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي[٢]: ﴿رُبَّما﴾ مشددة، وقرأ نافع وعاصم وعبد الوارث: ﴿رُبَما﴾ مخففة، وقرأ طلحة بن مصرف وزيد بن علي: ﴿رُبَتَما﴾ بزيادة تاء، قال الفراء: أسدٌ وتميمٌ يقولون: ﴿رُبَّما﴾ بالتشديد، وأهل الحجاز وكثير من قيس يقولون: ﴿رُبَما﴾ بالتخفيف، وتيم الرباب يقولون: ﴿رَبَما﴾ بفتح الراء، وقيل إنما قرئت بالتخفيف لما فيها من التضعيف، والحروف المضاعفة قد تحذف نحو: (إن) و(لكن) فإنهم قد خففوها، قال الزجاج: يقولون: رُبَّ رجل جاءني، بالتشديد، ورُبَ رجل جاءني بالتخفيف، وإنما زيدت (ما) مع (ربَّ) ليليها الفعل، وقال الأخفش: أدخل (ما) مع (ربَّ) ليتكلم بالفعل بعدها، فرب[٣] للتكثر باعتبار مرات التمني، وللتقليل باعتبار أزمان الإفاقة، فأزمان إفاقتهم قليلة بالنسبة لأزمان الدهشة، وكونها للتقليل أبلغ في التهديد،

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

(٣) المراح.

ومعناه: أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا العمل، فكيف كثيره، وأيضاً أنه يشغلهم العذاب عن تمني ذلك إلا في القليل.

فائدة: وقال عبد الله بن المبارك: ما خرج أحد من الدنيا من مؤمن وكافر إلا على ندامة وملامة لنفسه، فالكافر لما يرى من سوء ما يجازى به، والمؤمن لرؤية تقصيره في القيام بموجب الخدمة وترك الحرمة وشكر النعمة اهـ.

﴿ذَرْهُمْ﴾؛ أي: دع الكفار يا محمد، واتركهم عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصحية، لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك، والآية منسوخة بآية القتال كما في «بحر العلوم». ﴿يَأْكُلُوا﴾ كالأنعام ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم وشهواتها؛ أي: إن تركتهم على حالهم، يأكلوا كما تأكل الأنعام، ويأخذوا حظوظهم من دنياهم. فتلك أخلاقهم، ولا خلاق لهم في الآخرة.

والمراد[1]: دوامهم على ذلك لا إحداثه، فإنهم كانوا كذلك، وهما أمران بتقدير اللام، لدلالة ﴿ذَرْهُمْ﴾ عليه، أو جواب أمر على التجوز؛ لأن الأمر بالترك يتضمن الأمر بهما؛ أي: دعهم وبالغ في تخليتهم وشأنهم، بل مرهم بتعاطي ما يتعاطون. ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾؛ أي: الكفار؛ أي: يشغلهم عن اتباعك أو عن الاستعداد للمعاد، ﴿الْأَمَلُ﴾؛ أي: التوقع لطول الأعمار، وبلوغ الأوطار، واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة والمآل إلا خيراً، وفي: ﴿يلههم﴾ ثلاث قراءات: كسر الهاء والميم، وضمهما، وكسر الهاء وضم الميم، وأما الهاء الأولى فمكسورة لا غير اهـ. شيخنا ذكره في «الجمل». وهذا[2] تهديدٌ لهم؛ أي: دعهم عما أنت بصدده من الأمر والنهي لهم، فهم لا يرعوون أبداً، ولا يخرجون من باطل، ولا يدخلون في حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل، والتمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

والمعنى: أي[1] دعهم أيها الرسول في غفلاتهم، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها، وتلهيهم الآمال عن الآجال، فيقول الرجل منهم: غداً سأنال ثروة عظيمة، وأحظى بما أشتهي، ويعلو ذكري، ويكثر ولدي، وأبني القصور، وأكثر الدور، وأغرس البساتين، وأقهر الأعداء، وأفاخر الأنداد، إلى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأماني والآمال وطلب المحال.

ثم علل الأمر بتركهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم، ووخامة عاقبتهم، وفي هذا وعيد بعد تهديد، وإلزام لهم بالحجة، ومبالغة في الإنذار، وإيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ليس من أخلاق المؤمنين.

والخلاصة[2]: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل، ونحوه من متاع الدنيا، ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، وسوء صنيعهم، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين، وانكشف الأمر، ورأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا، والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر كما مرَّ.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي: عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»، وروي عن الحسن أنه قال: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. وروي عن علي أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق.

قال بعضهم: الأمل[3] إرادة الحياة للوقت للتراخي بالحكم والجزم، أعني: بلا استثناء ولا شرط صلاح، وهو مذموم في الشرع جداً، وغوائله أربع: الكسل في الطاعة وتأخيرها، وتسويف التوبة وتركها، وقسوة القلب بعدم ذكر الموت،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

والحرص على جمع الدنيا والاشتغال بها عن الآخرة.

وبعد أن هدد من كذب الرسول بقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ذكر سر تأخر عذابهم إلى يوم القيامة، وعدم التعجيل به، كما فعل بكثير من الأمم السالفة فقال: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وما أهلكنا قرية من القرى، بنوع من أنواع العذاب، بالخسف بها وبأهلها، كما فعل ببعضها، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم، كما فعل بأخرى ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن؛ أي: لتلك القرية ﴿كِتَابٌ﴾؛ أي: أجل مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ، واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله؛ لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لا ينسى ولا يغفل، حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر.

وخلاصة ذلك[1]: أننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب، فصاروا كأمس الدابر، ولكن لكل أجلٍ كتاب، وشأننا الإمهال لا الإهمال، فـ ﴿كتاب﴾[2]: مبتدأ، خبره الظرف، والجملة حال من قرية، لأنها وإن كانت نكرة قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة، لا سيما بعد تأكده بكلمة ﴿مِنْ﴾.

والمعنى: وما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال إلا حال أن يكون لها كتابٌ؛ أي: أجلٌ مؤقتٌ لهلاكها، قد كتبناه، لا نهلكها قبل بلوغه، معلوم لا نغفل عنه، حتى تمكن مخالفته بالتقدم والتأخر، و﴿الواو﴾ للفرق بين كون هذه الجملة حالاً أو صفةً، لأنها تعينها للحالية، أو صفة للقرية المقدرة، التي هي بدل من المذكورة على المختار، فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة؛ أي: وما أهلكنا قرية من القرى إلا قرية لها كتاب معلوم، وتوسيط الواو حينئذٍ بين الصفة والموصوف - وإن كان القياس عدمها - للإيذان بكمال الالتصاق بينهما، من حيث إن الواو شأنها الجمع والربط.

وبعد أن بين[3] سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

لهلاكهم، بحسب ما هو مكتوب في اللوح.. بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجلٌ، لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه، فقال: ﴿مَّا تَسْبِقُ﴾ ما نافية ﴿مِنْ﴾ زائدة؛ أي: ما تسبق أمة من الأمم الهالكة وغيرهم ﴿أَجَلَهَا﴾ المضروب لها، المكتوب في اللوح المحفوظ؛ أي: لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها المكتوب لها، ﴿وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ﴾؛ أي: وما يتأخرون عنه، فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب، وإنما حذف[1] الجار والمجرور.. لأنه معلوم مما قبله، ولرعاية الفواصل، والإتيان بصيغة الاستفعال، للإشعار بعجزهم عن ذلك، مع طلبهم له، وأما تأنيث ضمير أمة في أجلها وتذكيره في يستأخرون.. فللحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، قال الفراء: إنما قال ﴿أَجَلَهَا﴾ لأن الأمة لفظها مؤنث، وإنما قال: ﴿يَسْتَـْخِرُونَ﴾ إخراجاً له على معنى الرجال. انتهى ذكره في «زاد المسير».

وهذه الجملة[2] مبينة لما قبلها، فكأنه قيل: إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العقلاء، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب، لا يتقدم ولا يتأخر، وفي هذا تنبيه[3] لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك، وزجر لهم بأن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتروا به، فالهلاك مدخر لهم لا يتقدم ولا يتأخر.

ولما فرغ من تهديد الكفار.. شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر، وتماديهم في الغي، مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب، بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: مشركوا مكة وكفار العرب لغاية تماديهم في العتو والغي مخاطبين لرسول الله ﷺ، قال[4] مقاتل: نزلت في عبد الله بن أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة. انتهى. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ والقرآن في زعمه، وعلى وفق ما يدعيه، نادوا به النبي ﷺ على وجه التهكم، ولذا اتهموه بالجنون بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: إنك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها، من كونك رسولاً لله،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون؛ أي: مسلوب العقل، فإنه لا يدَّعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وإنما نسبوه[1] إلى الجنون لأنه ﷺ كان يظهر منه عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي، فظنوا أن ذلك جنون، فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون، وقيل: إن الرجل إذا سمع كلاماً مستغرباً من غيره.. فربما نسبه إلى الجنون، ولما كانوا يستبعدون كونه رسولاً من عند الله، وأتى بهذا القرآن العظيم.. أنكروه، ونسبوه إلى الجنون، وإنما قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ على طريق الاستهزاء، وقيل: معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه واعتقاده، واعتقاد أصحابه وأتباعه، إنك لمجنون في ادعائك الرسالة، وقرأ[2] زيد بن علي: ﴿نَزَل عليه الذكرُ﴾ ماضياً مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأ: ﴿يا أيها الذي أُلقي إليه الذكرُ﴾ وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسيراً؛ لأنها مخالفة لسواد المصحف.

والمعنى: أي وقالوا استهزاء وتهكماً: يا أيها الرجل الذي زعم أنه نزل عليه القرآن إن ما تقوله أملاه عليك الجنون، وليس له معنى معقول، وهو مخالف لآرائنا، بعيد من معتقداتنا، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول، ولا ترضاه الفحول من رجالاتنا الفخام، وعشائرنا العظام.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ ﴿لَّوْ مَا﴾: حرف[3] تحضيض بمعنى هلَّا، مركب من (لو) المفيدة للتمني، ومن (ما) المزيدة، فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلةُ هي عليه.

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك، ويعضدوك على إنذارك، وقيل: المعنى لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك، كما أتت الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواك الرسالة، فإن قدرة الله على ذلك مما لا ريب فيه، وكذا احتياجك إليه في تمشية أمرك؛ أي: إن كان[4] ما تدعيه حقاً وقد أيدك الله، وأرسلك.. فما منعك أن تسأله أن ينزل

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

معك ملائكة من السماء، يشهدون بصدق نبوتك.

وخلاصة ذلك[1]: أنَّ من يخالف آراءنا إما مجنون، وإما له سلطان عظيم من ربه، وحينئذٍ فماذا يمنعه أن يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ إلى نحو ذلك من الآيات، وقد أجاب الله سبحانه وتعالى عن اقتراحهم فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ما[2] ننزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة، وليس في نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم فائدة لكم، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر، لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية، إذ هم من عالم غير عالمكم، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم، لأنهم على صورتكم، فيحصل اللبس، ولا تنتفعون بهم، وإلى هذا أشار في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

والمعنى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لا بما قلتم واقترحتم من إخبارها لكم بصدقه، وقال الزمخشري: ما ننزل الملائكة إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم، ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ، لأنكم حينئذٍ مصدقون عن اضطرار، وقرأ[3] الحرميان: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو وابن عامر: ﴿ما تنزل﴾ مضارع تنزل؛ أي: ما تتنزل ﴿المَلاَئِكَةُ﴾ بالرفع. وقرأ أبو بكر ويحيى بن وثاب: ﴿ما تنزل﴾ بضم التاء وفتح النون والزاي، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي، وحفص وابن مصرف: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الزاي، وقرأ زيد بن علي: ﴿ما نزل﴾ ماضياً مخففاً مبنياً للفاعل ﴿الملائكة﴾ بالرفع.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا﴾؛ أي: إذ نزلت عليهم الملائكة فلم يؤمنوا ﴿مُّنظَرِينَ﴾؛ أي: مؤخرين ساعة؛ أي: ولو نزلنا الملائكة ما أخر عذابهم، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

والمعنى: أي إن[1] في نزول الملائكة ضرراً لهم لا محالة، لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم، إذ قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم، ولم يؤمنوا بها، يكون العذاب في إثرها، فلو أنا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم... لحق عليهم عذاب الاستئصال، ولم ينظروا ساعة من نهار، وقال الشوكاني: في الكلام حذف، والتقدير: ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة، وما كانوا إذاً منظرين، فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة. انتهى.

و﴿إِذًا﴾ حرف جواب[2] وجزاء لشرط مقدر، وهي مركبة من إذ وهو اسم بمعنى الحين، ثم ضم إليه إن فصار: إذ إن، ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها، فمجيء لفظة إنْ.. دليل على إضمار فعل بعدها، والتقدير: وما كانوا إذ إنْ كان ما طلبوه منظرين، والإنظار التأخير.

والمعنى: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا مؤخرين بعد نزولهم طرفة عين، كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، لتعلق العلم والإرادة بازديادهم عذاباً، وبإيمان بعض ذراريهم.

ثم أجاب سبحانه عن قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ورد إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله ﷺ، وسلاَّه على ذلك بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لعظم شأننا، وعلو جنابنا، و(نحن) ليست بفصل، لأنها ليست بين اسمين، ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: نحن[3] نزلنا ذلك الذكر والقرآن الذي أنكروه، وأنكروا نزوله عليك، ونسبوك بسببه إلى الجنون، وعموا منزله، حيث بنوا الفعل للمفعول، إيماء إلى أنه أمر لا مصدر له، وفعل لا فاعل له؛ أي: وليس إنزاله عليك بزعمك، كما اعتقدوا أنه مختلق من عنده. اهـ شيخنا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ في كل وقت وزمان من كل ما لا يليق به، كالطعن فيه، والمجادلة في حقيته، والتكذيب له، والاستهزاء به، والتحريف والتبديل والزيادة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

والنقصان ونحوها، وأما الكتب المتقدمة فلما لم يتول حفظها، واستحفظها الناس، أعني: الربانيين والأحبار.. تطرق إليهم الخلل، وفي هذا وعيد[1] شديد للمكذبين به، المستهزئين برسول الله ﷺ، وقيل: الضمير في: ﴿لَهُۥ﴾ لرسول الله ﷺ، والأول أولى بالمقام.

والمعنى: أي إنما[2] أنتم قوم ضالون مستهزئون بنبينا، وليس استهزاؤكم بضائره، لأنا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه، فقولوا أنتم إنه مجنون، ونحن نقول إنا نحفظ الكتاب الذي أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال، وسيأتي في مستقبل الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه، ويدعون الناس إليه، ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم، تناسب ما تستخرجه العقول من المخترعات، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء، فيستنير بها العارفون ويهتدي بهديها المفكرون، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون.

ثم سلّى رسوله ﷺ عما أصابه من سفه قومه، وادعائهم جنونه، بأن هذا دأب الأمم المكذبة لرسلها من قبل، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك، فاستهزؤوا بهم كما استهزأ قومك بك، فنصرنا رسلنا وكبتنا أعداءهم، وسيكون أمرك وأمرهم كذلك، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا رسلاً كائنة ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد، وحذف المفعول لدلالة الإرسال عليه ﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: في شيع الأمم الأولين؛ أي: الأقدمين، وفرقهم وأحزابهم وطوائفهم، جمع شيعة: وهي الفرقة[3] المتفقة على طريقة ومذهب، سموا بذلك لأن بعضهم يشايع بعضاً ويتابعه، من شايعه إذا تبعه، ومنه الشيعة: وهم الذين شايعوا عليًّا، وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله ﷺ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده، وإضافته إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند الفراء، والأصل: في الشيع الأولين، ومن ثم حذف الموصوف

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

وذكر صفته عند البصريين؛ أي: في شيع الأمم الأولين، ومعنى إرسالهم فيهم: جعل كل منهم رسولاً فيما بين طائفة منهم، ليتابعوه في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين.

والمعنى: نبأنا رجالاً فيهم، وجعلنا رسلاً فيما بينهم. اهـ «بيضاوي».

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾؛ أي: وما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الرسول ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: إلا كانت تلك الشيعة يستهزئون بذلك الرسول الذي أتى إليهم، كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء عليهم السلام، والجملة[1] في محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول في يأتيهم؛ أي: وما يأتيهم رسول من الرسل إلا حالة كونهم مستهزئين به، أو في محل الرفع صفة لرسول، فإن محله الرفع على الفاعلية؛ أي: وما يأتيهم[2] إلا رسول كانوا يستهزئون به، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل.

والمعنى: أي إننا أرسلنا قبلك رسلاً لأمم قد مضت، وما أتى أمةً رسولٌ إلا كذبوه واستهزؤوا، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات مستثقلٌ على النفوس، إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة، وترك عبادة الأوثان الباطلة، وذلك مما يشق على النفوس، إلى أن الرسول قد يكون فقيراً، لا أعوان له ولا أنصار ولا مال ولا جاه، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، إلى أن الله يخذلهم، ويلقي دواعي الكفر في قلوبهم بحسب السنن التي سنها لعباده، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كإدخالنا الاستهزاء في قلوب الأولين ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾؛ أي: نسلك الاستهزاء وندخله ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من مشركي مكة، ومن شايعهم في الاستهزاء والتكذيب، على معنى أنه يخلقه ويزينه في قلوبهم، والسلك إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المخيط؛ أي: الإبرة، حالة كون المجرمين من أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالذكر والقرآن.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والمعنى[1]: أي مثل ذلك المسلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم، وبما جاؤوا به من الكتب، نسلك الاستهزاء في قلوب المجرمين من أهل مكة وغيرهم، حالة كونهم مكذبين بالذكر، غير مؤمنين به، لأنهم كانوا يعتقدون أنه من عند محمد ﷺ لا من عند الله تعالى.

وقال ابن عطية[2]: الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائد على الاستهزاء والشرك ونحوه، وهو قول الحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد، ويكون الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ يعود أيضاً على ذلك الاستهزاء نفسه، وتكون ﴿الباء﴾ سببية؛ أي: لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ في موضع الحال، ويحتمل أن يكون الضمير في: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائداً على الذكر المحفوظ المتقدم الذكر، وهو القرآن؛ أي: نسلكه في قلوب المجرمين مكذباً به مستهزءاً، ويكون الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ عائداً عليه أيضاً، ويحتمل أن يكون الضمير في: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عود الضميرين. انتهى.

والمعنى: أي[3] كذلك نلقيه في قلوب المجرمين مستهزءاً به غير مقبول لديهم، لأنه ليس في نفوسهم استعداد لتلقي الحق، ولا تضيء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية، كما كانت حال الأمم الماضية حين ألقيت عليهم الكتب المنزلة من الملأ الأعلى.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قد مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم، حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء؛ أي: وقد جرت سنة الله في الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم، ويدخل الكفر والاستهزاء في قلوبهم، ثم يهلكهم، وتكون العاقبة للمتقين، والنصر حليف رسله والمؤمنين، فلك أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة، ولست بأوحدي في ذلك.

والخلاصة[4]: هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين، ويستهزىء بك

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

المجرمون، ولا يؤمنون بكتابنا وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين، وننصرك عليهم بعد حين، كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى إصرارهم على الكفر، وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا﴾؛ أي: على هؤلاء المقترحين المعاندين لمحمد ﷺ، الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: باباً من أبوابها المعهودة، ومكناهم من الصعود إليه، أو باباً[1] مّا، لا باباً من أبوابها المعهودة كما قيل، ويسرنا لهم الرقي والصعود إليه ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الباب؛ أي: فصاروا ﴿يَعْرُجُونَ﴾؛ أي: يصعدون في ذلك الباب بآلةٍ أو بغير آلةٍ، حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد، ولا يعاند عند مشاهدتها معاند، وقيل: الضمير في: ﴿فَظَلُّوا۟﴾ للملائكة؛ أي: فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب، والكفار يشاهدونهم، وينظرون صعودهم من ذلك الباب.. ﴿لَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: لقال هؤلاء الكفار المعاندون لمحمد ﷺ، لفرط عنادهم، وزيادة عتوهم وتشكيكهم في الحق: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾؛ أي: سدت من باب الإحساس، أو حبست عن النظر وحيرت، أو غشيت وغطيت، ثم أضربوا عن قولهم ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ حيث قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ، كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة، كما قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، تلخيصه: لو أوتوا بما طلبوا.. لكذبوا، لتماديهم في الجحود والعناد، وتناهيهم في ذلك. كما في «الكواشي».

وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالةٌ على أنهم يبيتون القول بذلك، وأن ما يرونه لا حقيقة له، وإنما هو أمر خيل إليهم بنوع من السحر، قالوا كلمة إنما تفيد الحصر في المذكور آخراً، فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير، فكأنهم قالوا: سكرت أبصارنا لا عقولنا، فنحن وإن تخايلت بأبصارنا هذه الأشياء، لكنا نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه، ثم قالوا: بل نحن، كأنهم أضربوا عن الحصر في الأبصار، وقالوا بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر سحره لنا؛ أي: ولو فتحنا على

---

(١) روح البيان.

هؤلاء المعاندين باباً من السماء فظلوا في ذلك الباب يصعدون، فيرون من فيها من الملائكة، وما فيها من العجائب.. لقالوا ـ لفرط عنادهم وغلوهم في المكابرة ـ: إنما سدت أبصارنا، فما نراه تخيل لا حقيقة له، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات.

وقرأ الأعمش وأبو حيوة[1]: ﴿يَعْرِجُون﴾ بكسر الراء، وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود، وقرأ الحسن ومجاهد وابنُ كثير: ﴿سُكِرَتْ﴾ بتخفيف الكاف مبنياً للمفعول، وقرأ باقي السبعة.. بشدها مبنياً للمفعول، وقرأ الزهري: بفتح السين وكسر الكاف مخففة مبنياً للفاعل، شبهوا رؤية أبصارهم برؤية السكران، لقلة تصوره ما يراه، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿سُحرت أبصارنا﴾، وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسير معنى لا تلاوةً، لمخالفتها لسواد المصحف.

ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم، وعجز أصنامهم.. ذكر قدرته الباهرة، وخلقه البديع، ليستدل بذلك على وحدانيته فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾؛ أي: قصوراً وبيوتاً وطرقاً ومنازل، ينزلها السيارات السبع في السموات السبع، والمراد بها هنا: منازل الشمس والقمر، والنجوم السيارة ومواضع سيرها، وهي البروج الاثنا عشر المشهورة، المختلفة الهيئات والخواص، وأسماؤها: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وقد جمع تلك الأبراج بعضهم في بيتين فقال:

حَمَلَ ٱلثَّوْرُ جَوْزَةَ ٱلسَّرَطَانِ ... وَرَعَىٰ ٱللَّيْثُ سُنْبُلَةَ ٱلْمِيْزَانِ

وَرَمَىٰ عَقْرَبٌ بَقَوْسٍ لِجَدْيٍ ... نَزَحَ ٱلدَّلْوُ بِرْكَةَ ٱلْحِيْتَانِ

والبروج: جمع برج، والمراد بها: منازل وطرق تسير فيها الكواكب السبعة السيارة، وقد جمعها[2] بعضهم في بيت واحد على ترتيب وجودها في السماء، مبتدئاً من السابعة، فقال:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الصاوي.

زُحَلٌ شَرَىٰ مِرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلْأَقْمَارُ

فزحل في السماء السابعة، والمشتري في السادسة، والمريخ في الخامسة، والشمس في الرابعة، والزهرة في الثالثة، وعطارد في الثانية، والقمر في الأولى؛ أي: في سماء الدنيا، والعرب تعدُّ المعرفة بمواقع النجوم في منازلها من أجلِّ العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾؛ أي: وزينا السماء بتلك البروج؛ أي: وجعلنا الكواكب زينة السماء، تظهر للناظرين إليها؛ أي: المتأملين فيها بأبصارهم وبصائرهم، فيستدلون بها على قدرة صانعها ووحدته.

والمعنى: أي وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والكواكب، سياراتٍ كانت أو ثوابت، وسميت[1] السيارة لسرعة حركاتها، وسميت الثابتة الثوابت إما لثبات أوضاعها أبداً، وإما لقلة حركاتها الثابتة وغاية بطئها، فإن السماويات ليست بساكنةٍ، وحركات الثوابت على رأي أكثر المتأخرين درجة واحدة في ست وستين سنة شمسية، وثمان وستين سنة قمرية، فيتم برجاً في ألف سنة، ودورة في أربعة وعشرين ألف سنة، وتسمى الثوابت بالكواكب البيابانية إذ يهتدى بها في الفلاة، وهي البيابانية بالعجميَّة، والكواكب الثابتة بأجمعها على الفلك الثامن، وهو الكرسي، وفوقه الفلك الأطلس؛ أي: فلك الأفلاك وهو العرش، سمي بالأطلس لخلوه عن الكواكب، تشبيهاً له بالثوب الأطلسي الخالي من النقش، ثم حركة الأفلاك بالإرادة، وحركة الكواكب بالعرض، إذ كل منها مركوز في الفلك كالكرة المنغمسة في الماء، والكواكب التي أدركها الحكماء بأرصادهم ألف وتسع وعشرون، فمنها سيارة ومنها ثوابت، والكل مما أدركوا، ومما لم يدركوا زينة السماء، كما أن في الأرض زينة لها. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾؛ أي[2]: لكل من ينظر إليها، فمعنى التزيين ظاهر، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها، وحكمة مدبرها، فتزيينها: ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة، وتخصيصهم لأنهم هم المنتفعون بها، وأما غيرهم فنظرهم كلاَ نظر.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والخلاصة: أي[1] ولقد خلقنا في السماء نجوماً كباراً ثوابت وسيارات، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل، وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة وآياتها الباهرة، التي يحار الفكر في دقائق صنعتها، وقدرة مبدعها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾؛ أي: وحفظنا السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾؛ أي: مرمي بالنجوم، فلا يقدر أن يصعد إليها، ويوسوس في أهلها، ويتصرف في أهلها، ويقف على أحوالها، فيلاحظ في الكلام معنى الإضافة، أي: من دخول كل شيطان، إذ الحفظ لا يكون من ذات الشيطان. وفي كلمة ﴿مِنْ﴾ ههنا دلالة على أن اللام في الشيطان الرجيم في الاستعاذة لاستغراق الجنس. كما في «بحر العلوم».

والمعنى: أي ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ أي: وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب، كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: إلا من اختلس الكلام المسموع بسرعة، وأخذه سراً، ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾؛ أي: تبعه ولحقه ﴿شِهَابٌ﴾؛ أي: لهب محرق، وهي شعلة نار ساطعة ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر أمره للمبصرين، فالاستثناء إما متصل؛ أي: إلا من استرق السمع، ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي: ولكن من استرق السمع... إلخ.

والمعنى[2]: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله، أو تخبله، ومعنى فأتبعه: تبعه ولحقه وأدركه، والشهاب الكوكب، أو النار المشتعلة الساطعة، وسمي الكوكب شهاباً؛ لبريقه شبه النار، والمبين: الظاهر للبمصرين، يرونه لا يلتبس عليهم.

قال القرطبي. واختلف[3] في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس:

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) القرطبي.

الشهاب: يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل، وقال الحسن وطائفةٌ: يقتل، فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان:

أحدهما: أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.

والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استقروه من السمع إلى غيرهم من الجن، قال ذكره الماوردي، ثم قال: والقول الأول أصح، ومما يجب[1] التنبيه له: أن هذا حكاية فعل قبل النبي ﷺ، وأن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال قبل أن يبعثه الله تعالى، فلما بعث رسول الله ﷺ. . كثر الرجم، وزاد زيادة ظاهرة، حتى تنبه لها الإنس والجن، ومنع الاستراق رأساً وبالكلية.

ويعضده ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات كلها، فلما ولد عيسى عليه السلام. . منعوا من ثلاث سموات، ولما ولد محمد ﷺ. . منعوا من السموات كلها بالشهب.

وما يوجد اليوم من أخبار الجن على ألسنة المخلوقين، إنما هو خبر منهم عما يرونه في الأرض، مما لا نراه نحن، كسرقة سارقٍ، أو خبية من مكان خفيّ ونحو ذلك، وإن أخبروا بما سيكون كان كذباً. كما في «أكمام المرجان».

وخلاصة قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾؛ أي: لكن من أراد اختطاف شيء من علم الغيب، مما يتحدث به الملائكة في الملأ الأعلى. . تبعه كوكب مشتعل ناراً ظاهراً للمبصرين فأحرقه، ولم يصل إلى معرفة شيءٍ مما يدبر في ملكوت السموات، وبهذا المعنى قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨﴾.

وبعد فالكتاب الكريم أخبرنا بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً من أخبار الغيب، مما لدى الملائكة الكرام، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة، والنجوم المتقدة، فأحرقتهم، ولا نبحث عن معرفة كنه ذلك ولا نمعن في النظر

---

(١) روح البيان.

لندرك حقيقته، لأنا لم نؤت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة، تجعلنا نؤمن به إيماناً مبنياً على البرهان بوسائله المعروفة، وليس لنا إلا التصديق بما جاء في الكتاب، وأوحي إلى النبي الكريم، والبحث وراء ذلك لا يقفنا على علمٍ صحيحٍ، بل على حدس وتخمين لا حاجة للمسلم به للإطمئنان في دينه، فالأحرى به أن يعرض عنه، لئلا يحيد عن القصد، ويضل عن سواء السبيل.

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته.. أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾؛ أي: ومددنا الأرض وبسطناها على وجه الماء العذب، وجعلناها[1] ممتدة الطول والعرض والعمق، ليمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل، وهذا فيما يظهر في مرأى العين، فلا يدل على نفي الكروية عن الأرض، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي، وفي «الخازن»: وزعم[2] أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء، وبعضها خارج عن الماء، وهو الجزء المعمور منها، واعتذروا عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بأن الكرة إذا كانت عظيمة.. كان كل جزء منها كالسطح العظيم، فثبت بهذا الأمر أن الأرض ممدودة مبسوطة، وأنها كروية، والله أعلم بمراده، وكيف مد الأرض. انتهى.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾؛ أي: خلقنا في الأرض وجعلنا فيها جبالاً ﴿رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: ثوابت لا تتحرك خوف أن تضطرب الأرض بسكانها، كما قال في آيات أخرى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

والمعنى[3]: وجعلنا في الأرض رواسي بقدرتنا الباهرة، وحكمتنا البالغة، وذلك بأن قال لها: كوني فكانت، فأصبحت الأرض، وقد أرسيت بالجبال، بعد أن كانت تمور موراً، فلم يدر أحدٌ مم خلقت.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ وأنشأنا وأوجدنا في الأرض ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أنواع النباتات ﴿مَّوۡزُونٖ﴾؛ أي: مقدر معلوم، فعبر[1] عن ذلك بالوزن، لأنه مقدار تعرف به الأشياء، وقيل: معنى موزون: مقسوم، وقيل: معدود، وقيل: الضمير راجع إلى الجبال؛ أي: وأنبتنا في الجبال؛ أي: وأنبتنا في الجبال من كل شيء موزون، من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك، وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومقدر بقدر الحاجة، وقيل: الموزون المحكوم بحسنه، كما يقال: كلام موزون؛ أي: حسن.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ﴾ أيها العباد ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾؛ أي: أسباباً تعيشون بها، من المطاعم والمشارب والملابس، وغيرها مما يتعلق به البقاء، جمع: معيشةٍ، وقيل: هي الملابس، وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق في مدة الحياة، والقول الأول أظهر؛ أي: إن[2] أنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء، قد سخَّرناها لكم في الأرض، فلا السمك في البحر غذيتموه، ولا الطير في الجو ربيتموه، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه.

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ معطوف[3] على معايش؛ أي: وجعلنا لكم في الأرض معايش، وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين، وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله تعالى، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم، باعتبار استقلاله بالكسب، ولهذا الظن ذكرهم بهذا العنوان؛ لرد حسبانهم أنهم يكفون موؤناتهم، ولتحقيق أن الله تعالى هو الذي يرزقهم وإياكم، أو معطوف على محلِّ ﴿لَكُمۡ﴾ وهو النصب؛ أي: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش، فيكون من عطف الجار والمجرور على الجار والمجرور، ولا يجوز العطف على الضمير المجرور في ﴿لَكُمۡ﴾ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجار؛ أي: وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني وروح البيان.

(٣) المراغي.

والمماليك والخدم والدواب، وفي هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم، لا أنهم يرزقون منهم، وفي ذلك عظيم المنة، وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده.

وخلاصة هذا: أنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب وصنوف المعايش، وسخر لكم الدواب التي تركبونها، والأنعام التي تأكلونها، والعبيد التي تستخدمونها، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم، فلكم منها المنفعة، ورزقها على الله تعالى، وهذا في غاية الامتنان.

وقرأ الجمهور: ﴿مَعَايِشَ﴾ بالياء، وقرأ الأعرج، وخارجة عن نافع: ﴿مَعائش﴾ بالهمز، وهي شاذَّةٌ كما سيأتي في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ إن نافية، وما مزيدة للتأكيد، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة (من)، ومع لفظ (شيء) المتناول لكل الموجودات، الصادق على كل فرد منها، والخزائن: جمع خزانة، وهو المكان الذي يحفظ نفائس الأموال، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره تعالى على كل مقدور؛ أي: وما كل الممكنات ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾؛ أي: إلا هي مقدورةٌ لنا ومملوكة، نخرجها من العدم إلى الوجود، بمقدار معلوم كيف نشاء، أو المراد بالخزائن: مفاتيحها؛ أي: وما شيء من أرزاق العباد إلا عندنا مفاتيحه، نعطيها كيف نشاء من البسط والقبض.

والخلاصة: أي ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده، والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء، فخزائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس، غير محجوبة عن الباحث الساعي إلى كسبها من وجوهها، بحسب السنن التي وضعناها، والنظم التي قدرناها، ولا يمنعها مانع، ولا يستطيع دفعها دافع، فهي تحت قبضة الطالب إذا أحسن المسعى، وأحكم الطلب، كما قال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: وما ننزل ذلك الشيء من السماء إلى الأرض، أو نوجده للعباد ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ أي: إلا بمقدار معلوم وحساب معين، والقدر بمعنى المقدار.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين[1]، حسبما تقتضيه مشيئته، على مقدار حاجة العباد إليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، وقد فسر الإنزال بالإعطاء؛ أي[2]: وما نعطي ذلك الشيء إلا بقسطٍ محدودٍ، نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة، وفيه الرحمة بالعباد، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وقد جرت عادة القرآن بأن يسمي ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالاً، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وجملة قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ معطوفة على مقدر ـ أي: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله، وما ننزله ـ أو في محل النصب على الحال.

وقرأ الأعمش[3]: ﴿وما نرسله﴾ مكان ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾، والإرسال أعم، وهي قراءة تفسير ومعنى، لا أنها لفظ قرآن، لمخالفتها سواد المصحف، وفي «روح البيان»: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: ما نوجد وما نكوّن شيئاً من تلك الأشياء متلبساً بشيء من الأشياء إلا بقدر معلوم؛ أي: إلا متلبساً بمقدار معين، تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المشيئة التابعة لها، وفي «تفسير أبي الليث»: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾؛ أي: مفاتيح رزقه، ويقال: خزائن المطر، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: المطر ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ أي: إلا بكيل ووزن معروف.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ معطوف على ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ وما بينهما اعتراض، والرياح: جمع ريح، وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المرور. اهـ «خطيب»، واللواقح: جمع لاقحة؛ أي: حاملة لأنها تحمل الماء إلى السحاب، فهي ملقحة، يقال: ناقة ملقحة إذا حملت الولد؛ أي: وأرسلنا الرياح وأنشأناها حالة كونها لواقح وحوامل للماء إلى السحاب، فهي حالة مقدرة، وقال

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

ابن مسعود: يرسل الله الريح وينشؤها، فتحمل الماء فتمجه في السحاب، ثم تمر به فتدره كما تدر الملقحة، ثم تمطر، وقال أبو عبيد: يبعث الله الريح المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث المؤلفة، فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض، فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقحه. اهـ «خطيب».

وقرأ حمزة[1]: ﴿الريح﴾ بالإفراد، وقرأ من عداه: ﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمع، وعلى قراءة حمزة تكون اللام في الريح للجنس، وقالوا: الرياح للخير، والريح للشر؛ لقوله ﷺ: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً».

والمعنى: أي إن[2] من فضله سبحانه وتعالى على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح، ويكون ذلك على ضروب:

١ ـ أن يرسلها حاملات للسحاب، فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار، فتغيرها من حال إلى حال، فتعطيها حياة جديدة، إذ تزدهر أزهارها، وتثمر أغصانها، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت، وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة لا حياة فيها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

٢ ـ أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث، لتخرج الثمر والفواكه للناس.

٣ ـ أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار، لينفذ الغذاء إلى مسامها، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع، كرياضة الحيوان.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحاباً ماطراً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من جانب العلو، فإن كل ما علاك فهو سماء، وهو الظاهر هنا، لا الفلك يعني من السحاب ﴿ماء﴾؛ أي: بعض ماء المطر، كما يفيده التنكير، فإنه معلوم عند الناس علماً يقينياً أنه لم ينزل من السماء الماء كله، بل قدر ما يصلون به إلى

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

المنفعة، ويسلمون معه من المضرة ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾؛ أي: جعلنا ذلك المطر سقياً لكم ولدوابكم وأراضيكم، قال أبو علي: يقال: سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي، وأسقيته نهراً؛ أي: جعلته شرباً له، وعلى هذا ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أبلغ من سقيناكموه، لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدًّا لهم، يرتفقون به متى شاؤوا، وهي أطول كلمة في القرآن، وحروفها أحد عشر، وحروف ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ عشرة.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المطر المنزل ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾؛ أي: بقادرين على إيجاده وخزنه في السحاب، وجمعه فيه، وإنزاله، بل نحن القادرون على إيجاده وجمعه في السحاب وإنزاله، وقيل: المعنى: وما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه في الغدران والآبار والعيون، بل نحن نخزن ونجمع في هذه المخازن، ونحفظه فيها، لنجعله لكم سقياً، ويكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور.

والمعنى: أي فأنزلنا من[1] السماء مطراً، فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم، وفي ذلك استقامة أمور معايشكم، وتدبير شؤون حياتكم إلى حين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾؛ أي: ولستم بخازنين الماء الذي أنزلته فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء، لأن ذلك بيدي، وهو خاضع لسلطاني، إن شئت حفظته، وإن شئت غار في باطنها ويتخلل طبقاتها، فلا أبقي منه شيئاً ينفع الناس والحيوان، ويسقي الزرع الذي عليه عماد حياتكم.

والخلاصة[2]: نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب، وإنزاله، وما أنتم على ذلك بقادرين.

وبعد أن ذكر نظم المعيشة في هذه الحياة.. ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة، وتقديم[3] الضمير للحصر، وهو إما تأكيد للأول، أو مبتدأ خبره الفعل، والجملة خبر

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

لـ﴿إِنَّا﴾، ولا يجوز كونه ضمير الفصل، لأنه لا يقع إلا بين الاسمين، ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإعدامها وإزالتها عنها، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنبات، والله تعالى يحيي الأرض بالمطر أيام الربيع، ويميتها أيام الخريف، ويحيي بالإيمان ويميت بالكفر؛ أي: إنا نحن نوجد الحياة في المخلوقات، ونسلبها عنها متى شئنا، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته تعالى، وأنه القادر على البعث والنشور، والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه، وتقضيه مشيئته، ولهذا قال: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: للأرض ومن عليها، لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه، الحي الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع وجوده، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: نحن الباقون بعد فناء الخلق، المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازي.

والمعنى[1]: أي وإنا لنحيي من كان ميتاً إذا أردنا، ونميت من كان حياً إذا شئنا، ونحن نرث الأرض ومن عليها، فنميتهم جميعاً، ولا يبقى حي سوانا، ثم نبعثهم كلهم ليوم السحاب، فيلاقي كل امرىءٍ جزاء ما عمل، إن خيراً وإن شراً.

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك، وأثبت قدرته عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمنا منكم أيها العباد ولادة وموتاً، يعني: الأولين من زمان آدم إلى هذا الوقت[2]، واستقدم بمعنى تقدَّم، كما سيأتي في مبحث التصريف، وكذلك استأخر بمعنى تأخر فيما سيأتي، واللام فيه موطئة للقسم كما فسرنا، وكذا اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ منكم موطئة له؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمنا من تأخر منكم ولادة وموتاً، يعني الآخرين إلى يوم القيامة، وقيل: من تقدم طاعة ومن تأخر فيها، وقيل: من تقدم في صف القتال ومن تأخر، وقيل: المراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء، وقيل: المستقدمون هم الأمم المتقدمون على أمة محمد ﷺ، والمستأخرون: هم أمة محمد ﷺ، وقيل: المستقدمون مَنْ قُتل في الجهاد، والمستأخرون من لم يُقتل.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ولقد علمنا من مضى منكم، وأحصيناهم وما كانوا يعلمون، ومن هو حي، ومن سيأتي بعدكم، فلا تخفى علينا أحوالكم، ولا أعمالكم، فليس بالعسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء، يوم ينفخ في الصور.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى لا غيره ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: يحشر الخلائق في عرصات القيامة، فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة، من أطاعه منهم ومن عصاه، ويجازي كلاً بما عمل، بحسب ما وضع من السنن وقدَّر من ارتباط المسببات بأسبابها، وجعل لكل عمل جزاءً له، فهو المتولي لذلك القادر عليه لا غيره، كما يفيده ضمير الفصل من الحصر، وقرأ[2] الأعمش: ﴿يَحْشِرهم﴾ بكسر الشين. ثم أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي:[3] بالغ الحكمة، متقن في أفعاله، فإنها عبارة عن العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، وهي صفة من صفاته تعالى، لا من صفات المخلوقين.

وما يسميه الفلاسفة الحكمة هي المعقولات، وهي من نتائج العقل، والعقل من صفات المخلوقين، فكما لا يجوز أن يقال لله العاقل، لا يجوز للمخلوق الحكيم، إلا بالمجاز لمن آتاه الحكمة، كما في «التأويلات النجمية». ﴿عَلِيمٌ﴾ واسع العلم، وسع علمه كل شيء، ولعل تقديم صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء،[4] فهو تعالى يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل، وما يؤيده من سعة العلم والفضل.

الإعراب

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ①﴾.

﴿الٓر﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة ﴿الٓر﴾؛ أي: مسماة

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

بهذه اللفظة إن قلنا إنه عَلَمٌ على السورة، وإلا فلا محلَّ لها من الإعراب، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَقُرْءَانٍ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: وسوغ العطف التغاير في اللفظ مع زيادة الصفة، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿قرآن﴾.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿رُّبَمَا﴾: حرف جر وتكثير، ولكن بطل عملها لدخول ﴿ما﴾ الكافة عليها، ولذلك دخلت على الجملة الفعلية ما الكافة؛ لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها، ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وسوغ دخول رب على المضارع مع أنها مختصة بالماضي كونه بمنزلة الماضي في تحقق الوقوع، من حيث إنه من أخبار الله تعالى، وهي صدق لا تتخلف، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿لَوْ﴾ مصدرية، ﴿كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: كثيراً يود الذين كفروا كونهم مسلمين. ويحتمل كون ﴿لَوْ﴾ حرف شرط وامتناع، جوابها محذوف، وكذا مفعول الود محذوف، والتقدير: ربما يود الذين كفروا النجاة لو كانوا مسلمين لسروا بذلك أو تخلصوا مما هم فيه.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذَرْهُمْ﴾ فعل أمر ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿يَأْكُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف النون، وكذا تقول في ﴿يَتَمَتَّعوا﴾، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَأْكُلُوا۟﴾. ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يَأْكُلُوا۟﴾ على كونه مجزوماً بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء، لأنه من ألهى يلهي ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال، ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾: مفعول به، و﴿مِن﴾: زائدة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿وَلَهَا﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال، ﴿لها﴾: خبر مقدم، ﴿كِتَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّعۡلُومٌ﴾: صفة ﴿كِتَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيء الحال منها دخول من الزائدة عليها، والتقدير: وما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال إلا حال كون أجل معلوم لهلاكها، ﴿مَّا﴾: نافية، ﴿تَسۡبِقُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾: فاعل، و﴿مِنۡ﴾ زائدة لتأكيد النفي، ﴿أَجَلَهَا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَسۡبِقُ﴾، ومتعلق ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، تقديره: عنه ولوقوعه فاصلة، وحمل[1] على لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ في قوله: ﴿أَجَلَهَا﴾، فأفرد وأنث، وعلى معناها في قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ فجمع وذكر.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء في محل النصب مقول قال، ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾: نائب فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، والجملة في محل النصب مقول قال، على كونها جواب النداء، ﴿لَّوۡ مَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلَّا، ﴿تَأۡتِينَا﴾: فعل ومفعول، ﴿بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في

---

(١) الفتوحات.

محل النصب مقول قال، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتَ﴾: فعل واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، معلوم مما قبلها تقديره: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأتنا بالملائكة، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول قال.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية ﴿نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿نُنَزِّلُ﴾؛ أي: حالة كوننا ملتبسين بالحق، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء، ولكن لا عمل لها، لعدم دخولها على الفعل، ﴿مُّنظَرِينَ﴾: خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿نُنَزِّلُ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَحْنُ﴾: تأكيدٌ لاسم ﴿إِنَّ﴾ أو مبتدأ، ولا يصح كونه ضمير فصل لعدم وقوعه بين اسمين، ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ أو خبر المبتدأ، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده، ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾ و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: رسلاً، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة للمفعول المحذوف، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية

﴿يَأْتِيهِم﴾: فعل ومفعول، ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ ومن زائدة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ على كونها جواب القسم، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان في محل النصب حال مقدرة من مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ تقديره: وما يأتيهم رسول إلا حالة كونهم مستهزئين به، ويجوز[1] أن تكون صفة لرسول فيكون في محلها وجهان: الجر باعتبار المحل، وإذا كانت حالاً فهي حال مقدرة.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف، ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ فعل ومفعول، ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: نسلك الاستهزاء في قلوب المجرمين سلكاً مثل سلكه في قلوب أولئك الكفرة، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أو جملة مفسرة لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لو﴾: شرطية، ﴿فَتَحْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿بَابًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿بَابًا﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾. ﴿فَظَلُّوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ظلُّوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعدها، وجملة ﴿يَعْرُجُونَ﴾ في محل النصب خبر ظل، وجملة ﴿ظلُّوا﴾ معطوفة على جملة ﴿فَتَحْنَا﴾ على كونها فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾. ﴿لَقَالُوٓا۟﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية،

---

(١) الفتوحات.

﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب لـ ﴿لَوْ﴾، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿نَحْنُ قَوْمٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مَّسْحُورُونَ﴾: صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾ مرفوع بالواو، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ إن كان جعل بمعنى خلق، و﴿بُرُوجًا﴾: مفعول به، ويجوز[1] أن يكون بمعنى صيرنا، فيكون مفعوله الأول ﴿بُرُوجًا﴾، ومفعوله الثاني الجار والمجرور، فيتعلق بمحذوف اهـ «سمين»، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿زينا﴾. ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿حفظنا﴾. ﴿رَّجِيمٍ﴾: صفة لـ ﴿شَيْطَٰنٍ﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾، والجملة صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أتبعه﴾: فعل ومفعول، ﴿شِهَابٌ﴾: فاعل، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ ﴿شِهَابٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة الصلة، والعائد ضمير المفعول في ﴿أتبعه﴾. وفي «أبي السعود» قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾[2]

---

(١) الفتوحات.
(٢) أبو السعود.

محله النصب على الاستثناء المتصل، إن فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الإطلاق، والوقوف على: ما فيها في الجملة، أو المنقطع إن فسر ذلك بالمنع من دخولها، والتصرف فيها.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: منصوب على الاشتغال، بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، وبسطنا الأرض مددناها، بسطنا الأرض: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾ على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب، ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة وبسطنا الأرض، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿ألقينا﴾، ﴿رَوَٰسِىَ﴾ مفعول به لـ﴿أَلْقَيْنا﴾. ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على بسطنا، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَنْبَتْنا﴾ والمفعول محذوف، تقديره: ضروباً، ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة للمفعول المحذوف، ﴿مَّوْزُونٍ﴾ صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل بمعنى وضعنا، معطوف على بسطنا الأرض، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿جعلنا﴾، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال ﴿مَعَٰيِشَ﴾، ﴿مَعَٰيِشَ﴾: مفعول به، ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، ﴿لَّسْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بما بعده، ﴿بِرَٰزِقِينَ﴾: خبر ليس، والباء زائدة.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إنْ﴾ نافية، ﴿مِّن شَىْءٍ﴾: مبتدأ و﴿مِّن﴾ زائدة، وسوَّغ الابتداء بالنكرة وقوعه في سياق النفي، ﴿إِلَّا﴾: أداة اسثناء مفرغ، ﴿عِندَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، خبرٌ مقدم، ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية: ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء

مفرغ، ﴿بِقَدَرٍ﴾: متعلق بـ ﴿نزل﴾، ﴿مَّعْلُومٍ﴾: صفة لـ ﴿قدر﴾، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلْنا﴾. ﴿لَوَٰقِحَ﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنزلنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أرسلنا﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿أنزلنا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به بـ ﴿أنزلنا﴾، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والواو حرف متولد من إشباع حركة الميم، والجملة معطوفة على جملة ﴿أنزلنا﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿مَا﴾: حجازية أو تميمية ﴿أَنتُمْ﴾: اسم ﴿مَا﴾، أو مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده، ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾: خبر ﴿ما﴾، أو خبر المبتدأ، والباء زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير المخاطبين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَنَحْنُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿نحن﴾: مبتدأ، ﴿نُحْيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿وَنُمِيتُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿نُحْيِۦ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، على كونها خبراً لـ ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: فعل ومفعول، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾، أو متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم قبله، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾

مبتدأ، وجملة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ مع خبره في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾ أو صفة لـ ﴿حَكِيمٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ ربما بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها: كلمة[١] تدل على أن ما بعدها قليل الحصول أو كثيره، فإذا قيل: ربما زارنا فلان.. دل على أن حصول الزيارة منه قليل، ولكنها هنا للتكثير كما في «مغني اللبيب»، قال أبو حاتم[٢]: أهل الحجاز يخففونها، ومنه قول الشاعر:

رُبَّمَا ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ صَقِيْلٍ   بَيْنَ بُصْرَىٰ وَطَعْنَةٍ نَجْلاَءِ

وتميمٌ وربيعة يثقلونها، وقد تزاد التاء الفوقية، وأصلها: أن تستعمل في القليل، وقد تستعمل في الكثير، وقد جمع[٣] معناها وشروطها بعضهم في بيتين فقال:

خَلِيْلَيَّ لِلتَّكْثِيْرِ رُبَّ كَثِيْرَةٌ   وَجَاءَتْ لِتَقْلِيْلٍ وَلَكِنَّهُ يَقِلّ
وَتَصْدِيْرُهَا شَرْطٌ وَتَأْخِيْرُ عَامِلٍ   وَتَنْكِيْرُ مَجْرُوْرٍ بِهَا هَكَذَا نُقِلْ

وقيل: هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع، لا في كلها لشغلهم بالعذاب، قيل: و﴿ما﴾ هنا لحقت رب لتهيئها للدخول على الفعل، ﴿يَوَدُّ﴾ مضارع ودد من باب فعل المسكور، يقال وددت لو تفعل كذا ـ بالكسر ودًّا بالضم والفتح ووداداً ووِدادة بالفتح فيهما ـ؛ أي: تمنيت وددت لو أنك تفعل كذا مثله اهـ «مختار».

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الفتوحات القيومية.

﴿ذَرۡهُمۡ﴾: هذا[1] الأمر لا يستعمل له ماض إلا قليلاً استغناء عنه بترك، بل يستعمل منه المضارع نحو: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ ومن مجيء الماضي قوله ﷺ: «ذَرُوا الحبشة ما وذرتكم».

﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ الهاء الأولى من بنية الفعل، والثانية مفعول به، يقال ألهاه كذا إذا شغله، ولهى هو عن الشيء يلهى إذا شغل، ومنه قولهم لهيت عن الشيء ألهى لهياً إذا أعرضت عنه، والأمل التوقع في طول الحياة، وبلوغ الأوطار، واستقامة الأحوال، وفي «المصباح» أملته أملاً ـ من باب طلب ـ ترقبته، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله.

﴿لَّوۡ مَا﴾ مثل هلاَّ، كلمة تفيد الحث والحض على فعل ما يقع بعدها، وفي «السمين» لَوْما حرف تحضيض كهلا وتكون أيضاً حرف امتناع لوجود، وذلك كما أن لولا مترددة بين هذين المعنيين، وقد عرف الفرق بينهما، وهو أن التحضيضية لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً، والامتناعية لا يليها إلا الأسماء لفظاً أو تقديراً عند البصريين، واختلف فيها هل هي بسيطةٌ أم مركبةٌ؟، فقال الزمخشري: لو ركبت تارةً مع لا وتارةً مع ما لمعنيين، وأما هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض، واختلف أيضاً في لوما هل هي أصل بنفسها؟، أو فرع من لولا، وأن الميم مبدلة من اللام؟.

﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ والشيع جمع شيعة، وهي الجماعة المتفقة على مبدأ واحد في الدين والمعتقدات، أو المذاهب والآراء، من شاعه إذا تبعه، وأصله الشياع، وهو الحطب الصغار توقد به الكبار، وفي «المصباح»: الشيعة الاتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة اسماً لجماعةٍ مخصوصة، والجمع شيع مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع.

﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾؛ أي: ندخله، يقال: سلكت الخيط في الإبرة؛ أي: أدخلته فيها، وفي «المختار»: السلك بالكسر الخيط، وبالفتح مصدر سلك في الشيء

---

(١) الفتوحات الإلهية.

فانسلك؛ أي: أدخله فيه فدخل، وبابه نصر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾ وأسلك لغة فيه، ولم يذكر في الأصل سلك الطريق إذا ذهب فيه، وبابه دخل، وأظنه سها عن ذكره، لأنه مما لا يترك قصداً.

﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾؛ أي: يصعدون، يقال: ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار، وهو من أخوات كان الناقصة.

﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾؛ أي: سدت ومنعت من الإبصار بالتخفيف والتشديد سبعيتان كما مر، فعلى التخفيف يقال سكرت النهر سكراً ـ من باب قتل ـ سددته، والسكر بالكسر ما يسدُّ به اهـ «مصباح» وقولنا بالتشديد؛ أي: لأجل التكثير والمبالغة اهـ «زاده».

﴿مَّسۡحُورُونَ﴾. أي: سحرنا محمد ﷺ، بظهور ما أبداه من الآيات.

﴿بُرُوجٗا﴾ البروج واحدها برج، وهي النجوم العظام، ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة في علم الفلك؛ أي: منازل ومحال وطرقاً تسير فيها الكواكب السيارة.

﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾؛ أي: المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها، وحكمة مدبرها، وفي «السمين»: والنظر هنا عينيٌّ، وقيل قلبيٌّ، وحذف متعلقة ليعم.

﴿حفظناها﴾؛ أي: منعناها.

﴿رَّجِيمٍ﴾ والرجيم؛ أي: المرجوم المرمي بالرجام؛ أي: الحجارة، والمراد بالرجيم هنا المرميُّ بالنجوم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ والاستراق: افتعال من السرقة، وهي أخذ الشيء خفية، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، والمسترق المستمع خفية، كما في «القاموس»، والسمع المراد به هنا ما يسمع، واستراق السمع اختلاسه سرًّا.

﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ يقال: تبعت القوم تبعاً وتباعةً ـ بالفتح ـ؛ أي: مشيت خلفهم، أو مروا بك فمضيت معهم، وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم، والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة، ومن السحاب في الجوِّ، واختلف المفسرون في المراد من الشهاب هنا على قولين:

أحدهما: أن الذي ينزل على الشيطان نفس الكوكب فيصيبه، ثم يرجع إلى مكانه.

والقول الثاني: أن الشهاب الذي يصيب الشيطان شعلة نار تنفصل من الكوكب، وتسميتها بالشهاب مجاز لانفصالها منه اهـ من «الخازن». وأما المبين فمعناه البين الواضح الظاهر، ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ومهدناها للسكنى، ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جمع راسية وهي الجبال الثوابت، يقال رسا يرسو رسواً ورسوًّا، إذا ثبت كأرسى.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ بالياء التصريحية، لأنه من العيش فالياء أصلية، فوجب تصريحها، وذلك لأنها في المفرد أصلية، لأن مفرده معيشة من العيش، والمد في المفرد. لا يُقْلب همزاً في الجمع إلا إذا كان زائداً في المفرد، كما قال ابن مالك:

وَٱلْـمَـدُّ زِيْـدَ ثَـالِـثَـاً فِـيْ ٱلْـوَاحِـدِ   هَـمْـزَاً يُـرَىٰ فِـيْ مِـثْـلِ كَـٱلْـقَـلَائِـدِ؟

وهذا في قراءة الجمهور، وقرىء بالهمز على التشبيه بشمائل، وقد ذكر في الأعراف وهي شاذة اهـ «كرخي». ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ الخزائن جمع خزانةٍ، وهي المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال للحفظ، والمراد مفاتيحها، ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جمع ريح، وهو جسم لطيف منتشر في الهواء كما مر في مبحث التفسير، ﴿لَوَٰقِحَ﴾ وفي اللواقح أقوال:

أحدها: أنها جمع ملقح، لأنه من ألقح يلقح فهو ملقح، فجمعه ملاقح، فحذفت الميم تخفيفاً، يقال ألقحت الريح السحاب، كما يقال ألقح الفحل الأنثى، وهذا قول أبي عبيدة.

والثاني: أنها جمع لاقح، يقال: لقحت الريح إذا حملت الماء، وقال الأزهري: حوامل تحمل السحاب، كقولك ألقحت الناقة إذا حملت الجنين في بطنها، فشبهت الريح بها.

والثالث: أنها جمع لاقح على النسب، كلابن وتامر؛ أي: ذات لقاح، قاله الفراء. اهـ «سمين». وفي «المختار»: ألقح الفحل الناقة، والريح السحاب،

ورياح لواقح، ولا تقل ملاقح، وهو من النوادر، وفي «القاموس»: وألقحت الرياح، فهي لواقح وملاقح.

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾؛ أي: جعلناه لكم سقياً لمزارعكم ومواشيكم، تقول العرب إذا سَقَت الرجل ماء أو لبناً.. سقيته، وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته.. قالوا أسقيته، أو أسقيت أرضه أو ماشيته. ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ جمع وارث، وجمعه هنا للتعظيم، لأنه لا تاني له تعالى، والوارث في الأصل من يتخلف الميت في تملك تركته، وهذا المعنى مستحيل في حقه تعالى، لأنه مالك للموجودات بأسرها، أصالة لا خلافة، فوجب جعله مستعاراً لمعنى الباقي بعد فناء خلقه، تشبيها له بوارث الميت في بقائه بعد فنائه اهـ «زاده».

﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ اسم فاعل من استقدم بمعنى تقدم، فالسين زائدة، وكذا ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من استأخر بمعنى تأخر، ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: يجمعهم، من حشر من باب نصر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تعريف الكتاب وتنكير القرآن في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ للدلالة على التفخيم والتعظيم، كما ذكره «البيضاوي».

ومنها: عطف إحدى الصفتين على الأخرى في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ إشعاراً بأنه الكلام الجامع بين الكتابية والقرآنية، كما في «روح البيان».

ومنها: الإتيان بلفظ الغيبة في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ نظراً إلى أنه مخبر عنهم، ولو نظر إلى الحكاية لقيل: لو كنا مسلمين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فالمراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال، فالمجاز حينئذٍ في الظرف، ويصح أن يكون من مجاز الحذف.

ومنها: إيراد الفعل على صيغة جمع المذكر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ﴾ للحمل على معنى أمة مع التغليب، ولرعاية الفواصل، ولذلك حذف الجار والمجرور، وفيه الإتيان بصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك، مع طلبهم له.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ لأن[1] كلمة إنما تفيد الحصر في المذكور آخراً، فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير، فكأنهم قالوا: سكرت أبصارنا لا عقولنا، كما في «الجمل».

ومنها: الدلالة على التكثير والمبالغة في: ﴿سُكِّرَتْ﴾ على قراءة التشديد، وهي قراءة الجمهور.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ شبه اختطافهم الكلام المسموع بسرعة بأخذ المال خفية، فاستعار له الاستراق بمعنى الاختطاف، فاشتق منه استرق بمعنى اختطف، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ لأن الشهاب حقيقة في شعلة نار ساطعة، فاستعاره للكوكب.

ومنها: المجاز في قوله ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ لأنه بمعنى معلوم المقدار، فيكون[2] إطلاق الوزن عليه مجازاً؛ لأن الناس لا يعرفون مقادير الأشياء إلا بالوزن كما في «الخازن».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[3] شبَّه الجبال الرواسي ـ استحقاراً لها، واستقلالاً لعددها، وإن كانت خلقاً عظيماً ـ بحصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن، وما هو إلا تصوير لعظمته، وتمثيل لقدرته، وأن كل فعل عظيم يتحير فيه الأذهان، فهو هين عليه.

ومنها: الاستعارة التخييلية في قوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ﴾[4] شبهت

---

(1) الفتوحات.
(2) الفتوحات.
(3) روح البيان.
(4) روح البيان.

مقدوراته تعالى في كونها مستورة عن علوم العالمين، ومصونة من وصول أيديهم، مع كمال افتقارهم إليها، وكونها مهيأة متأتية لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلقت الإرادة بوجودها.. وجدت بلا تأخير، بنفائس الأموال المخزونة السلطانية، فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حيث شبهت الريح التي تجيء بالخير ـ من إنشاء سحاب ماطرٍ ـ بالحامل، كما شبه بالعقيم ما ليس كذلك.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأن السماء حقيقة في الفلك، فاستعارها للسحاب بجامع العلو في كل.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَآءً﴾ إشعار بأن النازل بعض الماء لا كله، بل قدر ما يصلون به إلى المنفعة، ويسلمون معه من المضرة.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ أكد بالجملة الاسمية، وبإن، وبالضمير.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿نحن الوارثون﴾ حيث استعار الوارث الباقي بعد فناء الميت، للباقي بعد فناء الخلق كلهم، بجامع حصول البقاء في كلٍّ، بعد فناء غيره.

ومنها: الطباق بين: ﴿نُحْيِۦ﴾ ﴿وَنُمِيتُ﴾، وبين: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ و﴿خازنين﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نبه[1] على منتهى الخلق، وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرون فيه.. نبههم على مبدأ أصلهم آدم، وما جرى

(١) البحر المحيط.

لعدوه إبليس من المحاورة مع الله تعالى، وتقدم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة، عقب ذكر الأمانة والإحياء، والرجوع إليه تعالى، وفي الأعراف بعد ذكر يوم القيامة وذكر الموازين فيه، ويأتي ذكرها في الكهف بعد ذكر الحشر، وكذا في سورة صٓ بعد ذكر ما أعد من الجنة والنار لخلقه، فحيث ذكر منتهى هذا الخلق.. ذكر مبدأهم، وقصته مع عدوه إبليس، ليحذرهم من كيده، ولينظروا ما جرى له معه، حتى أخرجه من الجنة مقر السعادة والراحة، إلى الأرض مقر التكليف، فيتحرزوا من كيده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما أعد لأهل النار.. ذكر ما أعد لأهل الجنة، ليظهر تباين ما بين الفريقين، ولما كان حال المؤمنين معتنىً به.. أخبر أنهم في جنات وعيون، وجعل ما يستقرن فيه في الآخرة كأنهم مستقرون فيه في الدنيا، ولذلك جاء: ﴿أدخلوها﴾ على قراءة الأمر؛ لأن من استقر في الشيء.. لا يقال له أدخل فيه، وجاء حال الغاوين موعوداً به في قوله: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لأنهم لم يدخلوها.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[2] لما ذكر حال أهل الغواية، وبين أنهم في نار جهنم، يخلدون فيها أبداً، وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض، بمقدار ما اجترحوا من السيئات، واقترفوا من المعاصي.. أردفه بذكر حال أهل الجنة، وما يتمتعون به من نعيم مقيم، ووفاق بعضهم مع بعض، لا ضغن بينهم ولا حقد، وهم يتحدثون على سرر متقابلين، ولا يجدون مس التعب والنصب، ولا يخرجون منها أبداً.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا[1] ذكر ما أوعد به أهل الغواية في يوم القيامة من دخول جهنم، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين، بحسب اختلاف أحوالهم، بمقدار ما دنسوا به أنفسهم، من اتخاذ الأنداد والشركاء، وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين، من الجنات والعيون، والنعيم المقيم، والراحة التي لا نصب بعدها ولا تعب، وجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون، ويتجاذبون أطراف الأحاديث، وهم في سرور وحبور على سرر متقابلين.. أردف ذلك فذلكة وخلاصة لما سبق، فأمر نبيه ﷺ أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي، ولم يتوبوا منها، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] الثعلبي عن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ، فسأله، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فوالذي بعثك بالحق قطعت قلبي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ...﴾ الآية، سب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عليٍّ بن الحسين: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر يعني قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قيل: وأي غل؟ قال: غلُّ الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل عليٌّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ...﴾ الآيتان، سبب

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

نزولهما: ما أخرجه[1] الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مر رسول الله ﷺ بنفرٍ من أصحابه يضحكون، فقال: «أتضحكون والنار بين أيديكم؟» فنزلت هذه الآية ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر، ثم رجع القهقرى، فقال: «إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر.. جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله تعالى يقول لك لم تقنط عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾».

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا وأوجدنا ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: آدم سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي اهـ «خازن» أو[2] خلقنا هذا النوع الإنساني بأن خلقنا أصله وأول فردٍ من أفراده خلقاً بديعاً منطوياً على خلق سائر أفراده إنطواءً إجماليًّا. ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: من طين يابس غير مطبوخ، يصلصل؛ أي: يصوت عند نقره، وإذا طبخ؛ أي: مسته النار.. فهو فخار؛ أي: خلقنا آدم من صلصال كائن ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾؛ أي: من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء ﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفة حمأ؛ أي: منتنٍ، أو مصور بصورة آدمي، من سنة الوجه، وهي صورته، أو مصبوب من سنَّ الماء إذا صبه؛ أي: مفرغ على هيئة الإنسان، كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، كالرصاص والنحاس ونحوهما، كأنه سبحانه أفرغ الحمأ، فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف فيبس، إذا نقر صوَّت، ثم غيره إلى جوهر آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قال المفسرون[3]: خلق الله آدم عليه السلام من طين، فصوره وتركه في

---

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف، ولا يدري أحد ما يراد به، ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه، إلى أن نفخ فيه الروح.

والمعنى[1]: وعزتي وجلالي لقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس، يصلصل ويصوت إذا نقر، أسود متغير مفرغ في قالب ليجف، وييبس كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة، وكان أوّلاً تراباً، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ثم كان طيناً كما قال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ثم كان صلصالاً من حمأ مسنون، كما جاء في هذه الآية، وإنما خلقه على ذلك ليكون خلقه أعجب وأتم في الدلالة على القدرة.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ منصوب على الإشتغال ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل خلق آدم عليه السلام، قال ابن عباس[2]: الجان أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، وقال قتادة: هو إبليس، وقيل: الجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين، وفي الجن مسلمون وكافرون، يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم، وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون، ولا يموتون إلا إذا مات إبليس، وقال وهب: إن من الجن من يولد له، ويأكلون ويشربون، وهم بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح، لا يتوالدون ولا يشربون ولا يأكلون، وهم الشياطين، والأصح[3] أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار، سموا جنًّا لتواريهم واستتارهم عن الأعين، من قولهم: جن الليل إذا ستر، والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾؛ أي: من نار هي السموم، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع؛ أي: النار السموم، كما ذكره في «البحر»؛ أي: «من» نار هي الريح الحارة، النافذة في مسام الإنسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله،

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن.

والمسام ثقب الشعر في البدن، وتعمُّ جميع ثقبه كالفم والمنخر والأذن، فإن السموم في اللغة الريح الحارة، والريح الحارة فيها نار، والفرق بين السموم والحرور: أن السموم الريح الحارة التي تكون في النهار، والحرور الريح الحارة التي تكون بالليل، وقد تكون بالنهار، وقال أبو صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نار بين السماء والحجاب، فإذا حدث أمر.. خرقت الحجاب، فهوت إلى ما أمرت به، فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب، وقيل: من نار السموم؛ أي: من نار جهنم، وقال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجانُّ، وتلا هذه الآية، وقال ابن عباس: كان إبليس من حيٍّ من الملائكة يسمون الجا، خلقوا من نار السموم، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وخلقت الملائكة من النور، وذكر[1] خلق الإنسان والجان في هذا الموضع للدلالة على القدرة الإلهية، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى.

وقدم[2] خلق الإنسان على الجان، مع أنه خلق قبله تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله، وكان بين خلق آدم والجن ستون ألف سنة، واتفق أهل العلم من أهل التحقيق على أن عالم الملك مقدم خلقه على عالم الجان، وعالم الجان مقدم على عالم الإنسان، وانتقل ملك الدنيا إلى آدم، ليحصل له الاعتبار بالسابقين، ويظهر له الفضل على الكل بتأخيره عن جميع المخلوقات، لأنه كالخاتم على الباب، وهو خاتم المخلوقات، ونتيجة الكائنات، ونسخة الكليات من المحسوسات والمعقولات، وبه تم كمال الوجود، لتحققه بوصفي الجمال والجلال، واللطف والقهر، بخلاف الملك فإنه مخلوقٌ على جناح واحد هو اللطف، ولم يكن قبل آدم خلق من التراب، فخلق آدم منه ليكون عبداً خضوعاً وضوعاً ذلولاً مائلاً إلى السجود، لأنه مقام العبودية الكاملة، فكل جنس يميل إلى جنسه، ولهذا تواضع آدم ﷺ، واستكبر إبليس عن التواضع، فأبى وعلا وتكبر،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

فمال إلى جنسه، لأنه خلق من نار.

والمعنى[1]: أي وخلقنا هذا الجنس من نار الريح الحارة، التي لها لفح وتقتل من أصابته، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولكنا لا نعرف كُنْهَ ذلك ولا حقيقته، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: ﴿والجَأْن﴾ بالهمز، ذكره في «البحر».

وبعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان الأول في معرض الاستدال على قدرته.. ذكر ما قاله للملائكة في شأنه فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين كانوا[2] في الأرض، وهم كانوا عشرة آلاف، كذا قالوا، والظاهر العموم وعدم التخصيص، لأنه تخصيص بلا مختص ولا نص ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾؛ أي: إنِّي أخلق آدمياً ظاهر البشرة غير مستورها بالشعر، لأنه جسم كثيف ظاهر الجلد، والبشر مأخوذ من البشرة، وهي ظاهر الجلد، وعبر باسم الفاعل الدال على التحقيق إشعاراً بتحققه ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي من طينٍ يابسٍ مصوت عند نقره، متعلق بـ﴿خالقٌ﴾، أو صفة لـ﴿بشراً﴾؛ أي: بشراً كائناً من صلصال كائن ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ أي: من طين أسود منتن.

شاورهم الله سبحانه وتعالى بصورة الامتحان، ليميز الطيب؛ أي: الملك من الخبيث؛ أي: إبليس، فسلم الملك وهلك إبليس، ولذلك قيل: عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، وقيل: أخبرهم سبحانه بتكوين آدم قبل أن يخلقه، ليوطنوا أنفسهم على فناء الدنيا، وزوال ملكوتها، كما قال تعالى لآدم ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ والسكنى لا تكون إلا على وجه العارية، ليوطن نفسه على الخروج من الجنة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: سويت خلقه، وعدلت صورته الإنسانية، وكملت أجزاءه. ﴿وَنَفَخْتُ﴾؛ أي: وأجريت وأدخلت ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الإنسان المسوى ﴿مِن رُّوحِي﴾ ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي: نفخت فيه روحي، أو

---

(١) المراغي.

(٢) تنوير المقباس.

تبعيضية أي: نفخت فيه روحاً هي بعض الأرواح التي خلقتها؛ أي: أدخلتها وأجريتها فيه، والإضافة في روحي للتشريف، كبيت الله، وناقة الله، كما سيأتي في مبحث البلاغة إن شاء الله تعالى، قال القرطبي: والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، انتهى. والنفخ[1] إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها، فإذا كملت استعداده، وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التي من أمري.. ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: فاسقطوا وخروا، حالة كونكم ساجدين تجاه ذلك الإنسان سجود تحية وإكرام، لا سجود عبادة وتعظيم، بأن تسجدوا لله متوجهين لآدم، كالقبلة تشريفاً له، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته بما يشاء وكيف يشاء، وفي قوله: ﴿فَقَعُوا﴾[2] دليل على أنه ليس المأمور به مجرد الإنحناء كما قيل؛ أي: اسقطوا له ساجدين، امتثالاً لأمر الله تعالى، وتحية لآدم وتكريماً له، واسجدوا لله على أنه عليه السلام بمنزلة القبلة، حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته وحكمته ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح، وجعل فيه الحياة، فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد أرضياً كان أو سماوياً ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن السجود، بل سجدوا مجتمعين دفعة واحدة، ولا ريب في أن السجود معاً أكمل أصناف السجود فيحمل عليه، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كان[3] بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلا هذا، وجملة قوله ﴿أَبَىٰٓ﴾ إبليس وامتنع ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: أن يكون مع الملائكة الذين أمروا بالسجود، ﴿فسجدوا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه؛ أي: عدم سجوده لم يكن من تردده، بل من إبائه واستكباره، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، فيتصل به ما بعده؛ أي: لكن إبليس أبى أن يكون معهم في السجود لآدم استكباراً واستعظاماً لنفسه، وحسداً لآدم

---

(١) أبو السعود.
(٢) روح البيان.
(٣) الكشاف.

فحقت عليه كلمة الله تعالى.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿يَٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾؛ أي: أيُّ عذر لك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾؛ أي: في أن لا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم، مستأنفة أيضاً، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه وتعالى لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا[1] الخطاب له ليس للتشريف والتكريم، بل للتقريع والتوبيخ.

والمعنى: أيُّ غرض لك في الامتناع من السجود، وأيُّ سبب حملك على أن لا تكون مع الساجدين لآدم من الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها.

فإن قلت: كيف[2] يعقل هذا الخطاب، مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب، وأشرف المراتب، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة؟

قلتُ: إن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصباً عالياً إذا كانت على سبيل الإكرام والإعظام، فأما إذا كانت على سبيل الإهانة والإذلال فلا اهـ. «كرخي».

﴿قَالَ﴾ إبليس، وهو استئناف بياني أيضاً ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ واللام لتأكيد النفي؛ أي: ينافي حالي، ولا يستقيم مني، ولا يليق بي وأنا جوهر روحاني أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾؛ أي: لجسم كثيف ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: من طين يابس كائن ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ أي: من طين أسود منتن، جعل[3] العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون، زعماً منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه، وقد صرح بذلك في موضع آخر فقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ فأجاب الله سبحانه عليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس اللعين: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، أو من زمرة

---

(١) الشوكاني.
(٢) الفتوحات.
(٣) الشوكاني.

الملائكة، أمر إهانة وإبعاد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾، وخروجه[1] من الجنة لا ينافي دخولها بطريق الوسوسة، وكذا يستلزم خروجه من السموات أيضاً ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مطرود من رحمة الله، ومن كل خير وكرامة، من الرجم بالحجارة، لأن من يطرد يرجم بالحجارة، أو من الرجم بالشهب، وهو كناية عن كونه شيطاناً؛ أي: من الشياطين الذين يرجمون بالشهب، والفاء في قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ واقعة في[2] جواب شرط مقدر؛ أي: فحيث عصيت وتكبرت فاخرج منها، وفي قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تعليلة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾؛ أي: الطرد والإبعاد عن الرحمة، أو إن عليك لعنتي كما في سورة ص، فأل عوض عن المضاف إليه، فاختلاف العبارة للتفنن فلا اعتراض.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي يوم الجزاء؛ أي: إنك مدعو عليه باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الحساب، من غير أن يعذب، فإذا جاء ذلك اليوم.. عذب عذاباً ينسى اللعن معه، فيصير اللعن حينئذٍ كالزائل، بسبب أن شدة العذاب تذهل، أو المعنى: عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمرًّا عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم القيامة غاية للعنةٍ لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت، لأن المراد دوامها من غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في التأبيد، ويؤيده وقوع اللعن في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو لعن مقارن بالعذاب الأليم، نسأل الله الفوز والسلامة.

فإن قلت[3]: إن حرف إلى لانتهاء الغاية، فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين، الذي هو يوم القيامة؟

قلتُ: لا بل يزداد عذاباً إلى اللعنة التي عليه، كأنه قال تعالى: وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين، ثم تزداد بعد ذلك عذاباً دائماً مستمراً لا انقطاع له.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

وحاصل معنى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ الآيات؛ أي[1]: واذكر أيها الرسول لقومك، حين نوه ربكم بذكر أبيكم آدم في ملائكته قبل خلقه، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وتخلف إبليس عن السجود له، من بين سائر الملائكة حسداً وعناداً واستكباراً بالباطل، فقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ إلخ. وحكي عنه في آية أخرى أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وتقدم هذا القصص في سورة الأعراف، وقلنا هناك: إن الأمر بالسجود أمرٌ تكليفي، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان، إذ جعل الملائكة ـ وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم ـ مسخرين لآدم وذريته، وجعل هذا النوع الإنساني مستعداً للانتفاع بالأرض كلها، لعلمه بسنن الله فيها، وعمله بهذا السنن، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها، وبذا أظهر حكمة الله في خلقها، واصطفى بعض أفراده بوحيه ورسالته، وجعلهم مبشرين ومنذرين، وجعل الشيطان عاصياً متمرداً على الإنسان وعدوا له، وجعل النفوس البشرية وسطاً بين النفوس الملكية، المفطورة على طاعة الله، وإقامة سننه في صلاح الخلق، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم الشياطين التمرد والعصيان.

وقد ذكر سبحانه حجاج إبليس، وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه، فإنه خلق من النار، وآدم من الطين، والنار خير من الطين، وأشرف منه، والشريف لا يعظم من دونه، ولو أمره ربه بذلك.

وفي هذا ضروب من الجهالة[2]، وأنواع من الفسق والعصيان، فإنه:

١ ـ اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه.

٢ ـ احتج عليه بما يؤيد اعتراضه.

٣ ـ جعل امتثال الأمر موقوفاً على استحسانه وموافقته لهواه، وهذا رفض لطاعة الخالق، وترفع عن مرتبة العبودية.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

٤ ـ استدل على خيريته بالمادة التي منها التكوين، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتباريٌّ، تختلف فيه الآراء، كما أن الملائكة خلقوا من النور، وهو قد خلق من النار، والنور خير من النار، وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

٥ ـ قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمي والعملي أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة لربهم.

﴿قَالَ﴾ إبليس ـ عليه لعنة الله ـ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾؛ أي: أخرني، وأمهلني، ولا تمتني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: آدم وذريته، للجزاء بعد فنائهم، والبعث إحياء الميت، كالنشر، والفاء[1] واقعة في شرط مقدر دل عليه قوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي إذا جعلتني رجيماً.. فأمهلني، وأخرني إلى يوم يبعثون، وهو يوم القيامة، أراد الملعون بذلك السؤال أن لا يذوق الموت لاستحالته بعد يوم البعث، وأن يجد فسحة لإغوائهم؛ ويأخذ منهم ثأره، فأجابه إلى الثاني دون الأول كما قال تعالى: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا لعين ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من المؤجلين الذين أخرت آجالهم أزلاً، ودل على أن ثمة منظرين غير إبليس، وهم الملائكة، فإنهم ليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يموتون إلى آخر الزمان، وأما الشياطين فذكور وإناث يتوالدون، ولا يموتون بل ينظرون كما أنظر إبليس، وأما الجن فيتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون.

ثم بين سبحانه الغاية التي أمهله إليها فقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: المعين عند الله تعالى، لا يتقدم ولا يتأخر، وهو وقت موت الخلق عند النفخة الأولى، ثم لا يبقى بعد ذلك حي إلا الله تعالى أربعين سنة، إلى النفخة الثانية، وأراد اللعين بهذا السؤال أنه لا يموت أبداً، لأنه إذا أمهل إلى يوم البعث الذي هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك؛ لانقطاع الموت حين النفخة الأولى، فعلم أنه إذا أمهل إلى يوم البعث.. أمهل إلى الأبد، فأجابه الله تعالى

---

(١) روح البيان.

بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، فتموت فيها، ثم تبعث مع الناس، فمدة موته أربعون سنة، وهي ما بين النفختين، ولم تكن إجابة الله له في الإمهال إكراماً له، بل زيادة في شقاوته وعذابه اهـ «خازن».

﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ ﴿الباء﴾ للقسم و﴿ما﴾ مصدرية، وجواب القسم قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ أي: أقسم بإغوائك إياي لأزينن ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لذرية آدم، المعاصي والشهوات واللذات، فالمفعول محذوف ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في الدنيا التي هي دار الغرور، كما في قوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن الأرض محل متاعها ودارها، وفي «التِبْيان»: أُزين لهم المقام في الأرض، كي يطمئنوا إليها، وإقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه كما في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لا ينافي إقسامه بهذا الإغواء، فإنه فرع من فروعها، وأثر من آثارها، فلعله أقسم بهما جميعاً، فحكى تارة قسمه بصفة فعله وهو الإغواء، وأخرى بصفة ذاته وهي العزة، والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به، فلا يلتفتون إلى غيرها ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ولأحملنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ على الغواية والضلالة ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾؛ أي: من ذرية آدم؛ أي: إلا عبادك ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ منهم، الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من شوائب الشرك الجلي والخفي، فلا يعمل فيهم كيدي، فإنهم أهل التوحيد الحقيقي، على بصيرة من أمرهم ويقظة، وكفاك في شرف الصدق أن اللعين ما رضي لنفسه الكذب حتى استثنى المخلصين.

والمعنى[1]: أي قال إبليس: رب بسبب إغوائك إياي وإضلالي لأزينن لذرية آدم، وأحببن إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، ولأغوينهم كما أغويتني وقدرت علي ذلك، إلا من أخلص منهم لطاعتك، ووفقته لهدايتك، فإن ذلك مما لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به.

وقرأ الكوفيون ونافع والحسن والأعرج[2]: ﴿المخلَصين﴾ بفتح اللام، ومعناه: أي اللذين أخلصهم الله تعالى للطاعة، بالتوفيق والعصمة، وعصمهم من

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

كيد إبليس، فلا يؤثر فيه تزييني، وقرأ باقي السبعة والجمهور بكسرها، في كل القرآن؛ أي: إلا من أخلص العمل لله، ولم يشرك فيه غيره ولا رأى به؛ أي: الذين أخلصوا دينهم عن كل شائب يناقض التوحيد، قال أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ: أعداؤك أربعة:

١ ـ الدنيا، وسلاحها لقاء الخلق وسجنها العزلة.

٢ ـ والشيطان، وسلاحه الشبع وسجنه الجوع.

٣ ـ والنفس، وسلاحها النوم وسجنها السهر.

٤ ـ والهوى، وسلاحه الكلام وسجنه الصمت.

قال الله تعالى لإبليس: ﴿هَٰذَا﴾ الإخلاص الذي يكون في عبادي ﴿صِرَٰطٌ﴾؛ أي: طريق ﴿عَلَيَّ﴾ مراعاته وحفظه، لا سبيل لك عليه، وقيل: علي بمعنى إلى؛ أي: هذا الإخلاص طريق إليَّ؛ أي: يؤدي إلى كرامتي وثوابي ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا عوج فيه. ولا انحراف، وقرأ الضحاك[1]، وإبراهيم، وابن سيرين، وأبو رجاء، ومجاهد، وقتادة، وقيس بن عباد، وحميد وعمرو بن ميمون، وعمارة ابن أبي حفصة، وأبو شرف مولى كندة، ويعقوب: ﴿عَلِيٌّ﴾ بكسر السلام وبالرفع والتنوين على أنه صفة لـ ﴿صراطٌ﴾؛ أي: هذا الإخلاص طريق رفيع عالٍ، لارتفاع شأنه، مستقيم لا عوج فيه، وهذه القراءة على أن الإشارة إلى الإخلاص، فإيثار[2] حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء لتأكيد الاستقامة، والشهادة باستعلاء من ثبت عليه، فهو أدل على التمكين من الوصول، وهو تمثيل؛ إذ لا استعلاء لشيء على الله تعالى، والإضافة في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ إضافة تشريف؛ أي: إن عبادي المخلصين الذين ذكرتهم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على إغوائهم ﴿سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: قدرة أصلاً؛ أي: لا تسلط لك عليهم، بإيقاعهم في ذنب يهلكون به، ولا يتوبون منه، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما، فإنه ذنب مغفور، لوقوع التوبة عنه، وقيل المراد بعبادي

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

العموم، ليصح الاستثناء منه في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾؛ أي: إن عبادي سواء كانوا مخلصين، أو لم يكونوا مخلصين ليس لك عليهم تسلط، وتصرف بالإغواء، إلا من اتبعك باختيارهم من الغاوين؛ أي: الضالين، فإن له عليهم سلطاناً، بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به، وفيه إشارة إلى أن إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان، بمعنى القهر والجبر، بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم، فيسلط عليهم بالوسوسة والتزيين.

والمعنى: إن عبادي لا سلطان لك على أحد منهم، سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين، لكن من اتبعك باختياره.. صار من أتباعك، وقال سفيان بن عيينة: ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي.

والخلاصة[1]: أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطاناً، بقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأكذبه الله بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ إلخ.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ سجن الله في الآخرة، ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾؛ أي: لمكان وعد المتبعين الغاوين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير، والعامل[2] الإضافة يعني الاختصاص، لا اسم مكان فإنه لا يعمل، أو حال منه؛ أي: وإنَّ جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، وهي مقرهم وبئس المهاد، جزاء ما اجترحوا من السيئات، وكفاء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي.

و﴿جَهَنَّمَ﴾: معرب، فارسي الأصل، وفي «تفسير الفاتحة» للفناري: سميت جهنم لبعد قعرها، يقال: بئر جهنام؛ أي: بعيدة القعر، وقعرها خمس وسبعون مئة من السنين، وهي أعظم المخلوقات، سجن الله في الآخرة، ﴿لَهَا﴾؛ أي: لجهنم ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾؛ أي: سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والضلالة، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بأنها جهنم، والسعير، ولظى، والحطمة، وسقر، والجحيم، والهاوية، وهي أسفلها، وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها؛ أي: لها سبعة أبواب، كل باب فوق باب، على قدر

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الطبقات، لكل طبقة باب.

﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ من تلك الأبواب المنفتح على طبقة من الطبقات. وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الأتباع الغواة حالٌ من قوله: ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: قدر معلوم وضرب معين مفرز من غيره، حسبما يقتضيه استعداده، قال ابن جريج: النار سبع دركات، وهي جهنم ثم لظى ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية، فأعلاها للعصاة الموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، فجهنم أعلى الطبقات، ثم ما بعدها تحتها وهكذا، ولا ريب أن من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فإنه لا يبقى مخلداً في جهنم، فتبقى جهنم خالية، وأما الطبقات السافلة فأهلها خالدون، واختلفت الروايات في ترتيب طبقات النار، وفي الأكثر جهنم أوَّلها، وفيما بعدها اختلاف أيضاً، وليس في هذا كله أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه، وقيل: خلق[1] الله تعالى للنار سبعة أبواب، دركات بعضها تحت بعض، وللجنة ثمانية أبواب، درجات بعضها فوق بعض، لأن الجنة فضل، والزيادة في الفضل والثواب كرم، وفي العذاب جور، وقيل: الأذان سبع كلمات، والإقامة ثمان، فمن أذن وأقام.. غلقت عنه أبواب النيران، وفتحت له أبواب الجنة الثمانية.

وفي «الخطيب»: تنبيه: تخصيص[2] هذا العدد، لأن أهلها سبع فرق، وقيل جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة، من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، لأنها مصادر السيئات، فكانت مواردها الأبواب السبعة، ولما كانت هي بعينيها مصادر الحسنات بشرط النية، والنية من أعمال القلب.. زادت الأعضاء واحداً، فجعلت أبواب الجنة ثمانية.

والمعنى: أن الله تعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار، والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة، فلذلك اختلفت

---

(١) روح البيان. (٢) الخطيب.

مراتبهم في النار.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه، فأطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه يمتعون ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين، تجري من تحتها الأنهار ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: وأنهار من ماء غير أسنٍ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه أي: مستقرون فيها، لكل واحد منهم جنة وعين، على ما تقضِ قاعدة مقابلة الجمع بالجمع، ويقال لهم عند وصولهم إلى الباب: ادخلوها بسلام آمنين، والقائل هو الله تعالى، أو بعض ملائكته؛ أي: ادخلوا الجنة، حالة كونكم متلبسين بسلام من الآفات والمنغصات، آمنين من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم، وأكرمكم بها، لا تخافون إخراجاً ولا فناءً ولا زوالاً، أو مسلِّمين بعضكم على بعض، أو مسَلَّمَا عليكم من الملائكة، أو من الله عز وجل.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام[1]: ﴿وعيون﴾ بضم العين، وباقي السبعة بكسرها، وقرأ الحسن ﴿أَدْخِلُوها﴾ ماضياً مبنياً للمفعول من الإدخال، وقرأ يعقوب في رواية رويسٍ كذلك، وبضم التنوين، وعنه فتحه، وما بعده أمر على تقدير: أدخلوها إياهم، من الإدخال، أمر الملائكة بإدخال المتقين الجنة، وتسقط الهمزة في القراءتين، وقرأ الجمهور: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أمرٌ من الدخول، فعلى قراءتي الأمر ثَم محذوف؛ أي: يقال لهم، أو يقال للملائكة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم﴾؛ أي: أخرجنا ما في قلوبهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾؛ أي: من حقد وحسد وبغض وعداوة كامنة، كانت بينهم في الدنيا، وصفيناهم منها، وقوله: ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال[2] من الضمير في ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: إن المتقين مستقرون في جنات وعيون، حالة كونهم إخوة في المحبة والمودة والتعاطف، وزاد في هذه السورة ﴿إِخْوَٰنًا﴾ لأنها نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ، وما سواها عام في المؤمنين، وحالة كونهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ مكللة بالجواهر، جمع سرير، وقيل هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور، وحالة كونهم ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: يقابل بعضهم

---

(١) البحر المحيط.　(٢) روح البيان.

بعضاً، وينظر بعضهم وجه بعض، لدوران الأسرة بهم؛ أي إنهم[١] إذا اجتمعوا وتلاقوا، ثم أرادوا الانصراف.. يدور سرير كل واحد منهم بحيث يسير راكبه مقابلا بوجهه لمن كان عنده، وقفاه إلى الجهة التي يسير لها السرير، وهذا أبلغ في الأنس والإكرام. اهـ شيخنا.

والمعنى: وأخرجنا[٢] ما في صدور هؤلاء المتقين ـ الذين ذكرت صفتهم ـ من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض، روى القاسم عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من غلٍّ، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

والخلاصة: أن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غلٍّ، وألقي فيها التواد والتحاب والتصافي، حالة كونهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾؛ أي: لا يمس المتقين ولا يصبهم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب[٣] وإعياء، لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة، لأنها نعيم خالص، ولذة محضة، تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفواً وعفواً، روى الشيخان أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: عن الجنات والعيون ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ أبد الآباد، لأن تمام النعمة بالخلود؛ أي: وهم خالدون فيها أبداً لا يبرحونها، يشعرون بلذة النعيم ودوامه، فهم في خلود بلا زوال، وكمال بلا نقصان، وفوز بلا حرمان.

والخلاصة[٤]: أن المسرة بالنعيم لا تتم إلا إذا توافرت فيه أمور:

١ ـ أن يكون مقروناً بالتعظيم، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

٢ ـ أن يكون خالصاً من شوائب الضرر، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾، أو جسمانية كالإعياء والتعب، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

٣ ـ أن يكون دائماً غير قابل للزوال، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ وفي هذا[١] الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم، فإن علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعمته، وتكدر لذته.

ثم قال سبحانه وتعالى بعد أن قص علينا ما عنده للمتقين من الجزاء العظيم والأجر الجزيل ﴿نَبِّئْ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِي﴾؛ أي: أعلمهم وأخبرهم بـ ﴿أَنِّي أَنَا﴾ وحدي، فهو لقصر المسند على المسند إليه ﴿الْغَفُورُ﴾؛ أي: الكثير المغفرة لذنوبهم ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ أي: الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي، إن رحمتي سبقت غضبي، اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة، وانغمسوا في بحار الرضا والمحبة.

ثم إنه لما أمر رسول الله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة.. أمر بأن يذكر لهم شيئاً مما يضمن التخويف والتحذير، حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير، ليكونوا راجين خائفين فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: الكثير الإيلام.

والمعنى[٢]: أخبر أيها الرسول عبادي أنني أنا الذي أستر ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها، وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم، بأن لا أعذبهم بعد توبتهم منها، وفي قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ إيماء إلى أنه ينبىء كل من كان معترفاً بعبوديته، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والعاصي، ولا يخفى ما في ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة، وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن أصر على المعاصي، وأقام عليها، ولم يتب منها،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

هو العذاب المؤلم الموجع، الذي لا يشبهه عذاب آخر، وفي هذا تهديد شديد وتحذيرٌ لخلقه أن يقدموا على معاصيه.

وفي هذه الآية لطائف[1]:

منها: أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ وهذا تشريف وتعظيم لهم، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة الإسراء.. لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا التشريف العظيم.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى لمَّا ذكر الرحمة والمغفرة.. بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة، أولها: قوله: ﴿أَنِّيٓ﴾ وثانيها: ﴿أَنَا﴾، وثالثها: إدخال الألف واللام في: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة، ولما ذكر العذاب.. لم يقل: إني أنا المعذب، وما وصف نفسه بذلك، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ على سبيل الإخبار.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ بأن يبلغ عباده هذا المعنى، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة لعباده، ثم ذكر سبحانه قصصاً تقدم مثله بأسلوب آخر في سورة هود.

وبدأ قصص إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ الخليل عليه السلام، وهذا معطوف على ما قبله؛ أي: وأخبر يا محمد عبادي عن قصة ضيف إبراهيم، وقرأ أبو حيوة: ﴿ونبِّيْهم﴾ بإبدال الهمزة ياء، وأصل الضيف الميل، يقال: ضفت إلى كذا ملت إليه، والضيف من مال إليك نزولاً بك، وصارت صفة الضيافة متعارفة في القرى، وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يجمع فيقال: أضياف وضيوف وضيفان، وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا إبراهيم بالولد، ويهلكوا قوم لوط، وفيهم جبريل وميكائيل عليهما السلام،

---

(١) الخازن.

وانتصاب ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بفعل مضمر معطوف على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾؛ أي: واذكر لهم دخولهم عليه، ﴿فَقَالُوا﴾ عند دخولهم عليه: ﴿سَلَامًا﴾؛ أي: نسلم عليك سلاماً، ﴿قَالَ﴾ سلام عليكم، فما لبثت أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه.. نكرهم، وأوجس منهم خيفة، وقال إبراهيم للضيف ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: إنا خائفون منكم، لأنهم[1] دخلوا عليه بلا إذن، وفي وقت لا يجيء في مثله طارق، أو لأنه حين قرب إليهم العجل الحنيذ لم يأكلوا منه، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام.. يظن أنه لم يأت لخير، ويؤيد هذا قوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، والوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الضيوف الملائكة لإبراهيم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾؛ أي: لا تخف يا إبراهيم منَّا، وقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف[2] في معنى التعليل، للنهي عن الوجل، فإن المبشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن، كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً، والبشارة هي الإخبار بما يظهر سرور المخبر به؛ أي: لا تخف يا إبراهيم منا لأنا جئناك بالبشرى ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: بولد هو إسحاق، ذو علم وفطنة وفهم لدين الله، وسيكون له شأن، لأنه سيصير نبياً، ونحو الآية قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ وقيل: معناه عليم في صغره، حليم في كبره.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ مبيناً للفاعل، وقرأ الحسن بضم التاء مبنياً للمفعول من الإيجال، وقرىء ﴿لا تَاجَلْ﴾ بإبدال الواو ألفاً، كما قالوا تابة في توبة، وقرىء ﴿لا تواجل﴾ من واجله بمعنى أوجله، ثم قال إبراهيم متعجباً من مجيء ولد من شيخ وعجوز: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وأثر فيَّ. والاستفهام[4] فيه للتعجب والاستبعاد عادة، و﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى مع؛ أي: مع مس الكبر وإصابته إياي؛ أي: إن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر، وأمر عجيب من بين الهرمين، وهو حال؛ أي: أبشرتموني حالة كوني كبير السن، أو بمعنى بعد؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

أي: بعد ما أصابني الكبر والهرم، وقرأ الأعرج: ﴿بشرتموني﴾ بغير همزة الاستفهام، وقرأ ابن محيصن ﴿الكُبْر﴾ بضم الكاف وسكون الباء؛ أي: بشرتموني بذلك مع مس الكبر وتأثيره فيَّ، وتلك حال تنافي هذه البشرى، وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجيب واستبعاد مؤكد للأول، وكأنه لم يعلم أنهم ملائكة رسل الله إليه، فلذلك استفهم، واستنكر أن يولد له، ولو علم أنهم رسل الله... ما تعجب ولا استنكر، ولا سيما قد رأى من آيات الله عياناً كيف أحييٰ الموتىٰ؛ أي فبأي[1] أعجوبة تبشرون إذ لا سبيل في العادة إلى مثل ذلك، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف أيعطى هذا الولد مع بقائه على حاله من الشيخوخة التامة، أو يرجع شاباً ثم يعطي الولد، لما جرت به العادة من أن الولد لا يكون إلا حين الشباب، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿فَبِمَ﴾ هي ما الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، حذفت ألفها في حالة الجر فرقاً بينها وبين ما الموصولة؛ وقرأ[2] الحسن: ﴿تُبشِّرُونِّي﴾ بنون مشددة وياء المتكلم، أدغم نون الرفع في نون الوقاية، وابن كثير بشدها مكسورة دون ياء، ونافع بكسرها مخففة، وغلطه أبو حاتم، وقال: هذا يكون في الشعر اضطراراً، وخرجت على أنه حذف نون الوقاية، وكسر نون الرفع للياء، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها، وقرأ باقي السبعة بفتح النون، وهي علامة الرفع، قال الحسن: فبم تبشرون على وجه الاحتقار وعدم المبالاة بالمبشرات، لمضي العمر واستيلاء الكبر، وقال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأته، فأجابوه مؤكدين ما بشروه به، تحقيقاً لما قالوا، وليكون بشارة بعد بشارة بما بينه سبحانه.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال ضيف إبراهيم له ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بشرناك بما يكون حقاً لا محالة فيه، وإنَّا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاماً، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾؛ أي: فلا تكن يا إبراهيم من الآيسين، الذين يقنطون وييئسون من فضل الله ورحمته، فييأسوا من خرق العادة، بل أبشر بما بشرناك به، واقبل البشرى.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

والخلاصة[1]: أنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه، فاستفهم هذا الاستفهام التعجبي المبني على السنن التي أجراها الله بين عباده، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله، فهو أجل من ذلك قدراً، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً بغير أبوين، فكيف من شيخ عجوز فانٍ وعجوز عاقر، وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ بإثبات الألف، وقرأ يحيى بن وثاب وطلحة والأعمش ورويت عن أبي عمرو: ﴿من القانطين﴾ من قنط يقنط من باب فرح، والاستفهام في قوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ إنكاري؛ أي: قال إبراهيم للضيف لا يقنط ولا ييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ أي: إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب، فلا يعرفون سعة رحمته، وكمال علمه وقدرته، وغفل عن رجاء الله الذي لا يخيب من رجاه فضلٌ بذلك عن الرأي القيم، وهذا كقول يعقوب: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وخلاصة مقاله[3]: أنه نفىٰ القنوط من نفسه على أتم وجه، فكأنه قال: ليس بي قنوط من رحمته تعالى، لكن حالي تنافي فيض تلك النعم الجليلة التي غمرني بها، وتوالي المكرمات التي شملت آل هذا البيت، وقرأ النحويان[4] أبو عمرو والكسائي والأعمش: ﴿ومن يَقْنِط﴾ هنا وفي الروم والزمر بكسر النون من باب ضرب، وباقي السبعة بفتحها من باب فرح، وقرأ زيد بن علي والأشهب: بضمها من باب نصر.

وبعد أن تحقَّق عليه السلام مصداق هذه البشرى، ورأى أنهم أتوا مختفين على غير ما عهد عليه ملك الوحي، سألهم عن أمرهم، ليزول عنه الوجل، كما بينه الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ﴾ إبراهيم للضيف ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: فما أمركم وشأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به، والاستفهام استخبار، والخطب الأمر الخطير، والشأن العظيم؛ أي: قال[5] لهم: ما الأمر العظيم الذي جئتم لأجله سوى البشرى، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.
(٥) المراغي.

حديثهم في أثناء الحوار أن ليست هذه البشرى هي المقصودة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا، لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى مثل هذا العدد، ومن ثم اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم ـ عليهما السلام ـ، وأيضا لو كانت البشارة هي المقصودة لابتدؤوا بها، فأجابوه بما بينه سبحانه وتعالى ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الملائكة لإبراهيم ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ متناهين، وهم قوم لوط، واكتفوا بهذا القدر من الجواب، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم، ومما يرشد إلى هذا الفهم قولهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾؛ أي: إلا أتباع لوط في الدين ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فلن نهلكهم، بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نُعَذِّبَ به قوم لوط، وهو قلب مدائنهم، فالاستثناء[1] متصل من الضمير في ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾؛ أي: أرسلنا إلى قوم أجرموا جميعاً إلا آل لوط، يريد أهله المؤمنين، فالقوم والإرسال شاملان للمجرمين وغيرهم.

والمعنى: إنَّا أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط، لنهلك الأولين وننجي الآخرين، واكتفى بنجاة[2] الآل لأنهم إذا نجوا وهم تابعون فالمتبوع وهو لوط أولى بذلك. لوط: هو ابن هاران بن تارخ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، كان قد آمن به، وهاجر معه إلى الشام، بعد نجاته من النار، واختتن لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين، وإبراهيم ابن ثمانين أو مئة وعشرين سنة، فنزل إبراهيم فلسطين، وهي البلاد التي بين الشام ومصر، منها الرملة وغزة وعسقلان وغيرها، ونزل لوط الأردن، وهي كورة بالشام، فأرسل الله لوطاً إلى أهل سدوم بالدال، وكانت تعمل الخبائث، فأرسل الله إليهم ملائكة للإهلاك، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي ﴿لَمُنْجُوهم﴾ بالتخفيف من أنجا، وقرأ الباقون بالشديد من نجى، واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم، والتنجية والإنجاء التخلص مما وقع فيه غيرهم، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من الضمير في ﴿منجوهم﴾، وليس استثناء من استثناء، كما في «البحر» واسمها واهلة، ﴿قَدَّرۡنَآ﴾؛ أي: قضينا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وحكمنا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: الباقين مع الكفرة في العذاب، لتهلك معهم، وأسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، وهو قول الله تعالى، لما لهم من القرب والاختصاص، كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا، والآمر هو الملك، وقرأ أبو بكر والمفضَّل: ﴿قَدَرْنا﴾ بالتخفيف ههنا، وفي النمل، وباقي السبعة بالتشديد، وقال الهروي: هما بمعنى، وكُسِرَتْ ﴿إِنَّهَا﴾ إجراء لفعل التقدير مجرى العلم، إما لكونه بمعناه، وإما لترتبه عليه، والغابرين جمع غابر، والغابر الباقي والأغبار بقايا اللبن.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾: جار ومجرور، صفة لـ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾، ﴿مَّسْنُونٍ﴾: صفة ﴿حَمَإٍ﴾. ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾: منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وأنشأنا الجان خلقناه، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿مِن قَبْلُ﴾: حال من ضمير ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾، والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع، وصلاة الوسطى.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه

لـ﴿إذ﴾ ﴿إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَـرًا﴾ إلى ﴿سَـٰجِدِينَ﴾: مقول محكيٌّ، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي خَـٰلِقٌۢ﴾: ناصب واسمه وخبره ﴿بَشَـرًا﴾: مفعول ﴿خَـٰلِقٌۢ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مِّن صَلْصَـٰلٍ﴾: جار مجرور، متعلق بـ ﴿خَـٰلِقٌۢ﴾ ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿وَنَفَخْتُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿نفخت﴾، ﴿مِن رُّوحِى﴾: مفعول ﴿نفخت﴾، و﴿مِن﴾ زائدة، ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطيّة، ﴿قَعُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿سَـٰجِدِينَ﴾ ﴿سَـٰجِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿قعوا﴾، وجملة ﴿قَعُوا﴾ جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَسَجَدَ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع، ﴿سجد ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل، ﴿كُلُّهُمْ﴾: توكيد أول، ﴿أَجْمَعُونَ﴾: توكيد ثان، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿إِبْلِيسَ﴾: منصوب على الاستثناء، متصل أو منقطع على الخلاف فيه، ﴿أَبَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية عدم السجود، ﴿أَن يَكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾ ﴿مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر ﴿يَكُونَ﴾ وجملة ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿أَبَىٰٓ﴾ تقديره: أبى كونه مع الساجدين.

﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مَا﴾: اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿أَلا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لا﴾ نافية، ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ ﴿أنْ﴾ واسمها ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: مالك في عدم كونك مع الساجدين، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾. والجملة مستأنفة ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَمۡ أَكُن﴾: جازم ومجزوم، وهي من الأفعال الناقصة، واسمها ضمير يعود على ﴿إبليس﴾ ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿أسجد﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، ﴿لِبَشَرٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: لم أكن لسجودي لبشر، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿أَكُن﴾ تقديره: لم أكن مريداً لسجودي لبشرٍ، هذا على مذهب البصريين، كما مر مراراً، وجملة ﴿أَكُن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ﴿لِبَشَرٍ﴾ ﴿مِّنۡ حَمَإٖ﴾: صفة لـ ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾، ﴿مَّسۡنُونٖ﴾: صفة لـ ﴿حَمَإٖ﴾.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٣٥)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلدِّينِ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: فحيث عصيت وتكبرت فاخرج، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿اخرج﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾ ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ ﴿اخرج﴾، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾: ناصب واسمه

وخبره، و﴿الفاء﴾: تعليليّة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل نصب مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَإِنَّ﴾ حرف نصب ﴿عَلَيْكَ﴾ خبر ﴿إن﴾ مقدم، ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ التي قبلها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿إِنَّ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ إلى آخر الآية مقول ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر دل عليه قوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، تقديره: إذا جعلتني رجيماً فأنظرني، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أنظرني﴾ فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يُبْعَثُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلة مستأنفة، ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿الفاء﴾: تعليلية لجملة محذوفة معلومة من السياق، تقديرها لا تطمع إنظارك إلى يوم يبعثون، لأنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إنك﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾: جار ومجرور، خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للجملة المحذوفة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾، ﴿ٱلْمَعْلُومِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْوَقْتِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ إلى ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَآ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جرٍّ

وقسم ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول، ونون وقاية، الجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بباء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسمت بإغوائك إياي، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿أزينن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول على كونها جواب القسم، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لأغوينهم﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أغوينهم﴾: فعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ على كونها جواب القسم، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المفعول، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿عِبَادَكَ﴾: منصوب على الاستثناء، ﴿مِنْهُمُ﴾: متعلق بما بعده، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: صفة لـ﴿عِبَادَكَ﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إلى قوله: ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿عَلَيَّ﴾: جار ومجرور، صفة أولى لـ ﴿صِرَٰطٌ﴾ وعليَّ بمعنى إلى، والتقدير: هذا صراط موصل إليَّ، ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: صفة ثانية له. ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لَكَ﴾: خبره مقدم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بما بعده، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن جهنم لموعدهم﴾: ناصب واسمه وخبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير الغائبين، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو في محل الرفع خبر ثان خبر لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف خبر مقدم ﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿جُزْءٌ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً مقدماً أعني قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ ﴿جُزْءٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّقْسُومٌ﴾: صفة ﴿جُزْءٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾، والتقدير: سبعة أبواب كائنة هي لها حالة كون كل باب منها له جزء مقسوم منهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: خبره، ﴿وَعُيُونٍ﴾: معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿ادْخُلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم ادخلوها، ﴿بِسَلَامٍ﴾: جار ومجرور حال أول من فاعل ﴿ادْخُلُوهَا﴾، تقديره: حالة كونكم ملتبسين بسلام، ﴿آمِنِينَ﴾: حال ثانية، ﴿وَنَزَعْنَا مَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿فِي صُدُورِهِم﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله، ﴿إِخْوَانًا﴾: حال من ضمير الغائبين، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، فيجوز مجيء الحال من المضاف إليه، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾: حال من الضمير في ﴿إِخْوَانًا﴾ ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾:

فعل ومفعول، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، أو حال من ضمير المفعول، ﴿نَصَبٌ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، أو اسم ﴿ما﴾ ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بما بعده، ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿ما﴾، والباء زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿أَنِّيٓ﴾: ناصب واسمه ﴿أَنَا﴾: تأكيد لضمير النصب، أو ضميره فصل، أو مبتدأ، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر أول لـ﴿أن﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسدَّ مفعولي ﴿نَبَّأَ﴾ الثاني والثالث، لأنه يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، والتقدير: نبيء عبادي كوني الغفور الرحيم، أو مجرورة بحرف جر محذوف؛ أي: بأني أنا الغفور. ﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أن عذابي﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ خبر ﴿أن﴾ ﴿ٱلْأَلِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أنَّ﴾ الأولى. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿نبأ﴾ الأولى.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ دخلوا، ﴿دَخَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر

مضاف إليه، لـ ﴿إِذْ﴾، ﴿فَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَخَلُوا۟﴾ ﴿سَلَٰمًا﴾: مفعول ﴿قالوا﴾ لأنه بمعنى ذكروا، أو منصوب بفعل مضارع مقدر؛ أي: نسلم عليك سلاماً، أو ماضي؛ أي: سلمنا عليك سلاماً، والجملة المحذوفة في محل النصب مفعول ﴿قالوا﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بما بعده، ﴿وَجِلُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الملائكة، ﴿بِغُلَٰمٍ﴾: متعلق بـ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾، ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿غلام﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة، ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾: إلى قوله ﴿قَالُوا۟﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التعجبي ﴿بشرتموني﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية، والواو حرف زائد من إشباع حركة الميم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر بمعنى مع، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية، في محل النصب مبنيٌّ على الفتح، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿على﴾، تقديره: على مس الكبر إياي؛ أي: مع مس الكبر إياي، الجار والمجرور حال من ياء ﴿بشرتموني﴾؛ أي: أبشرتموني حالة كوني كبير السن، ﴿فَبِمَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلق بما بعده، ﴿تُبَشِّرُونَ﴾: فعل وفاعل، مرفوع وعلامة

رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، على قراءة كسر النون، والنون المذكورة نون الوقاية، حذفت ياء المتكلم اجتزاءً عنها بكسر النون، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة الاستفهام الأول، على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ مقولٌ محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت ﴿بَشَّرْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، واسمها ضمير يعود على إبراهيم، ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿بَشَّرْنَٰكَ﴾، على كونها مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَقْنَطُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَقْنَطُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: فاعل ﴿يَقْنَطُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، وعلى هذا الوجه فلا ضمير في ﴿يَقْنَطُ﴾ والرابط للخبر بالمبتدأ ﴿الهاء﴾ من ﴿رَبِّهِۦٓ﴾، وهذا الإعراب على ما قاله: ابن عنقاء، كما ذكره صاحب «الكواكب الدرية»، وأما على مذهب الجمهور ففي ﴿يَقْنَطُ﴾ ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: بدل من فاعل ﴿يَقْنَطُ﴾ المستتر فيه بدل كل من كل، ولم يؤت معه بضمير؛ لأن قوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه تغني عن الضمير، كما قاله الفاكهي، وابن عنقاء، والعصاميُّ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم زيادة محاورتي لكم.. فأقول لكم ﴿ما خطبكم﴾، ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام الإستخباري في محل الرفع مبتدأ، ﴿خَطْبُكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدر، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَيُّهَا﴾ منادي نكرة مقصودة، ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: صفة لـ ﴿أيُّ﴾ تابع للفظه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿أُرْسِلْنَآ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق به، ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: صفة ﴿قَوْمٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾: منصوب على الاستثناء، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، و﴿الهاء﴾ مضاف إليه، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير ﴿منجوهم﴾، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: استثناء من ضمير ﴿منجوهم﴾ منصوب، ﴿قَدَّرْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مفعول ﴿قَدَّرْنَآ﴾، ولكنها معلقة عنها باللام، وجملة ﴿قَدَّرْنَآ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الاستثناء قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: طين يابس، يصلصل ويصوت إذا

نقر، أي: صدم وضرب بجسم آخر، وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار، وقال أبو عبيدة[١]: الصلصال الطين إذا خلط بالرمل وجف، وقال أبو الهيثم: الصلصال صوت اللجام وما أشبهه، وهو مثل القعقعة في الثوب، وقيل: التراب المدقق، وصلصل الرمل إذا صوت، وصلصال بمعنى مصلصل، كالقضقاض، أي: المقضقض وهو فيه كثير، ويكون هذا النوع من المضعف مصدراً، فتقول: زلزل زلزالاً بالفتح وزلزالاً، ووزنه عند البصريين: فعلان، وهكذا جميع المضاعف حروفه كلها أصول، لا فعفع خلافاً للفراء، وكثير من النحويين، ولا فعفل خلافاً لبعض البصريين وبعض الكوفيين، ولا أن أصله فعّل بتشديد العين، أبدل من الثاني حرف من جنس الحرف الأول، خلافاً لبعض الكوفيين، وينبني على هذه الأقوال وزن صلصال.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾؛ أي: من طين تغير واسود من مجاورة الماء له، واحدته حمأة، وقال الليث[٢]: الحمأ طين أسود منتن واحدته حمأة بتحريك الميم، ووهم في ذلك، وقالوا: لا نعرف في كلام العرب الحمأة إلا ساكنة الميم، قاله أبو عبيدة والأكثر، قال أبو الأسود:

يَجِيءُ بِمِلْئِهَا طَوْرَاً وَطَوْرَاً ... يَجِيءُ بِحَمْأَةٍ وَقَلِيلِ مَاءِ

وعلى هذا لا يكون حمأ بينه وبين مفرده ثاء التأنيث لاختلاف الوزن، قال ابن[٣] السكيت: تقول منه حمأت البئر حمأ بالتسكين.. إذا نزعت حمأتها، وحمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها، وأحميتها إحماء ألقيت فيها الحمأة، قال أبو عبيدة: الحمأ بسكون الميم مثل الحمأة، يعني بالتحريك، والجمع حمءٌ، مثل تمرةٍ وتمرٍ، والحمأ المصدر، مثل الهلع والجزع، ثم سُمِّي به.

﴿مَّسْنُونٍ﴾ والمسنون قال الفراء هو المتغير، وأصله من سننتُ الحجر على

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

الحجر إذا حككته، وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ويكون منتناً، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثُـمَّ خَـاصَـرْتُـهَـا إِلَـىٰ ٱلْـقُـبَّـةِ ٱلْـخَـمْـ ـرَاءِ تَـمْـشِـيْ فِـيْ مَـرْمَـرٍ مَـسْـنُـوْنِ

أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير ومنه قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وقوله: ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، وكلا الاشتقاقين يدل على التغير، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتناً، وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه إذا صببته، والسن الصب، وقال سيبويه: المسنون المصور، مأخوذ من سنة الوجه وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تُـرِيْـكَ سُـنَّـةَ وَجْـهٍ غَـيْـرَ مُـقْـرِفَـةٍ مَـلْـسَـاءَ لَـيْـسَ بِـهَـا خَـالٌ ولا نَـدَبُ

وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم وجه مسنون إذا كان فيه طولٌ، والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل صار طيناً، فلما أنتن.. صار حمأ مسنوناً، فلما يبس.. صار صلصالاً، فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون، ولهذا وصف بهما.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾؛ أي: هذا[1] الجنس، كما أن الإنسان يراد به ذلك، فإذا أريد بالإنسان آدم.. أريد بالجان أبو الجن، وإبليس أبو الشيطان، وهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا، وسمي جانًّا لتواريه عن الأعين، يقال جن الشيء إذا ستره، فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ السموم الحرُّ المفرط[2] من نار أو شمس أو ريح، يدخل في المسام فيقتل، والمسام هي ثقب البدن، جمع سمٍّ بكسر السين على غير قياس، كمحاسن جمع حسنٍ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: من نار ذات سموم؛ أي: صاحبة حرارة شديدة قاتلة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

﴿بَشَرًا﴾؛ أي: إنساناً، وسمي بذلك لظهور بشرته؛ أي: ظاهر جلده.

﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: أتممت خلقه، وهيأته لنفخ الروح فيه.

﴿وَنَفَخْتُ﴾ والنفخ إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة إلى المادة القابلة لها.

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع من باب وضع إذا سقط وخر، وحذفت الواو من الأمر على حد قول ابن مالك:

فأمر أو مضارع من كوعد احذف... إلخ.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ من أبلس[1] إذا يئس وتحير، ومنه إبليس أو هو أعجمي.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مرجوم مطرود من كل خير وكرامة، وفي «المصباح»: الرجم بفتحتين الحجارة، والرجم القبر، سمي بذلك لما يجتمع عليه من الأحجار، ورجمته رجماً من باب قتل ضربته بالرجم اهـ. وفي «القاموس»: الرجم اللعن والشتم والطرد والهجران اهـ.

﴿اللَّعْنَةَ﴾ الإبعاد على سبيل السخط ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وهو يوم النفخة الثانية، ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾؛ أي: أمهلني وأخرني ولا تمتني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾. هو يوم النفخة الأولى حين يموت الخلائق، ﴿والإغواء﴾ الإضلال يقال غوى غواية إذا ضل في نفسه، وأغوى إذا أضل غيره؛ أي: دعاه إلى غواية. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ﴾؛ أي: هذا صراط حق لا بد أن أراعيه وأحفظه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: لا انحراف فيه، فلا يعدل عنه إلى غيره، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ والسلطان التسلط والتصرف بالإغواء، ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾؛ أي: سبع طبقات، ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: فريق معين مفروز من غيره.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها. ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين، ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: أنهار جارية ﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: بسلامة من الآفات، وأمن من المخافات، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ الغل الحقد

---

(١) روح البيان.

الكامن في القلب، يطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد، فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل، لأنها كامنة في القلب.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ السرر جمع سرير، وهو مجلس عال رفيع موطأ للسرور، وهو مأخوذ منه، لأنه مجلس سرور، قال ابن عباس؛ أي: على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية اهـ «خازن».

﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾؛ أي: لا يصيبهم، ﴿نَصَبٌ﴾: والنصب الإعياء والتعب، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ تقول أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة إذا أخبرتهم، ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ والأفصح في كلمة الضيف أن لا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث، بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك.

﴿لَا تَوْجَلْ﴾ والوجل اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها.
﴿عَلِيمٍ﴾؛ أي: ذي علم كثير.

﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمر المحقق الذي لا شك في وقوعه، ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ يقال قنط من كذا إذا يئس من حصوله، وفي «المختار»: القنوط اليأس، وبابه جلس ودخل وطرب وسلم، فهو قانط وقنوط.

﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم، ﴿قَدَّرْنَا﴾؛ أي: قضينا وكتبنا، يقال قضى الله عليه كذا، وقدره عليه أي: جعله على مقدار الكفاية في الخير والشر، وقدر الله الأقوات جعلها على مقدار الحاجة.

﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم، وأصله من الغبرة، وهي بقية اللبن في الضرع، وفي «المختار»: غبر الشيء بقي وغبر أيضاً مضى، وهو من الأضداد وبابه دخل.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وقوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾.

ومنها: جمع تأكيدين في قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ للمبالغة وزيادة تقرير الشيء في الذهن، وشدة الاعتناء به.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ومنها: التعبير[1] بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه واستمراره.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ لأنه إما[2] كناية عن الطرد والإبعاد؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة على أثره، أو كناية عن كونه شيطاناً من الشياطين الذين يرجمون بالشهب.

منها: جناس الاشتقاق بين: ﴿أنظرني﴾ و﴿المنظرين﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أغويتني﴾ و﴿أغوينهم﴾.

منها: إيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ لتأكيد الاستقامة، والشهادة باستعلاء من ثبت عليه، فهو أدل على التمكين من الوصول وهو تمثيل، إذ لا استعلاء لشيء على الله تعالى،

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ للتشريف ولتفخيم شأنهم

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: يقال لهم ادخلوها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾؛ أي: في قلوبهم

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال، لأن الصدور محل القلوب.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿نَصَبٌ﴾ للتقليل لا غير؛ أي: أيُّ شيء منه.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ مع قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ فقد قابل بين العذاب والمغفرة، وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو[1] من قصر المسند على المسند إليه.

ومنها: الاستفهام التعجبيُّ في قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ و﴿يَقْنَطُ﴾ وبين ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فأسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً، وهو فعل الله تعالى لما لهم من القرب والاختصاص؛ لأنهم رسل الله، أرسلوا بأمره تعالى، كما يقول خاصة الملك: أمرنا بكذا، والآمر هو الملك.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) روح البيان.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر نبيه ﷺ أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي، ثم فصل ذلك

الوعد والوعيد، فذكر بشارة إبراهيم عليه السلام بغلام عليم. . ذكر هنا[1] إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات وفظيع الجنايات، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، حتى صاروا كالأمس الدابر، وأصبحوا أثراً بعد عين، وذكر إهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله، ونقصهم للمكاييل والموازين، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحاً، وكانوا ذوي حول وطول، وغنى ومال وقوة وبطش، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدي رسوله، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح، ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئاً حين جاء أمره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها، وعذابها بشيء من أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم، من فظائع الشرك وأنواع المعاصي، التي تقوض دعائم الإخلاص لبارىء النسم، وتهد أركان نظم المجتمع بعبادة الأصنام والأوثان وتطفيف الكيل والميزان، وإتيان الفاحشة التي تشمئز منها النفوس، وتنفر منها الأذواق السليمة. . أرشد[2] هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قد قضت به الحكمة الإلهية في خلق السموات والأرض، من عبادة خالقهما وطاعته، واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان، فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعاً لشرورهم، وإصلاحاً لمن يأتي بعدهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يصبر على أذى قومه، وأن يصفح عنهم الصفح الجميل. . أردف ذلك بذكر ماأولاه من النعم، وما أغدق عليه من الإحسان، ليسهل عليه الصفح، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى، فذكر أنه آتاه السبع المثاني ـ الفاتحة ـ والقرآن العظيم الجامع لما فيه

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

هدى البشر، وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم، وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه.. نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها، يتمنى ما فيها من متاع، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن، وبما جاء به، وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين بإنذاره قومه المشركين، بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه، بالبيان الكافي والإعذار الشافي، وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين ـ اليهود والنصارى ـ الذين جعلوا القرآن أقساماً، فآمنوا بما وافق التوراة، وكفروا بما عدا ذلك، ويبين لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم.

ثم أمره[1] أن يعلن ما أمر به من الشرائع، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتتريبهم له، ولا يبالي بما سيكون منهم، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به، وأزال كيدهم، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر.. فليسبح ربه وليحمده، وليكثر الطاعة، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه، وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به، فأهلكهم الله سبحانه وتعالى، وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن يغوث، والحرث بن قيس، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان سبب هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: أن سبع قوافل أقبلت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال تعالى: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خيرٌ لكم من هذه القوافل السبع، ويدل على

(١) النسفي.

صحة هذا قوله تعالى بعدها: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ كما في «أسباب النزول» للإمام الواحديّ، ذكره ابن الجوزي، ولكن هذا القول ضعيف لأن السورة مكية.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ جملة مستأنفة[1] لبيان إهلاك من يستحق الهلاك، وتنجية من يستحق النجاة، فلفظة آل زائدة بدليل قوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ﴿قَالَ﴾ لوط مخاطباً لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: لا أعرفكم بل أنكركم، وإنما[2] قال لوط هذه المقالة لأنهم دخلوا عليه وهم في زيٍّ شبان مردان حسان الوجوه، فخاف أن يهجم عليهم قومه، فلهذا السبب قال هذه المقالة، وقيل إن النكرة ضد المعرفة، فقوله إنكم منكرون يعني لا أعرفكم، ولا أعرف من أي الأقوام أنتم، ولأي غرض دخلتم عليَّ؛ أي: فلما خرج الملائكة المرسلون من عند إبراهيم، وسافروا من قريته إلى قرية لوط، وكان بينهما أربعة فراسخ، ودخلوا عليه.. أنكرهم لوط ولم يعرفهم، وقال لهم من أيِّ الأقوام أنتم، ولأي غرض جئتم، وإني أخاف أن تمسوني بسوء، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، وعبارة البيضاوي: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ تنكركم نفسي، وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني بشرٍ اهـ.

قيل: وإنما قال لهم هذه[3] المقالة لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون إعانة ولا مساعدة فيما يأتي ويذر، حين تجشم الأهوال في تخليصهم، فأنكر خذلانهم له، وتركهم نصره حين المضايقة، التي حلت به بسببهم، حتى اضطر إلى أن يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كما جاء في سورة هود، لأن القصة سيقت هنا مختصرةً، وذكرت هناك مبسوطة ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالت الرسل في

---

(١) الشوكاني.
(٢) النسفي.
(٣) المراغي.

جواب لوط: ما جئناك بما تنكرنا لأجله ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك، ويشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي توعدتهم به، فيشكون فيه قبل مجيئه؛ أي: بل جئناك بالعذاب الذي يشكُّون فيه.

والمعنى: قالت الرسل مخاطبين لوطاً: ما جئناك يا لوط بما خطر ببالك من المكروه، بل جئناك بما فيه سرورك، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه، وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه، فأنى لك بعد هذا أن تعتريك مساءة وضيق ذرعٍ.

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا[1]: ما خذلناك وما خلينا بينك وبينهم، بل جئناك بما يدمرهم ويهلكهم من العذاب الذي كنت تتوعدهم به، وهم يكذبونك، واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا: جئناك بعذابهم، لإفادة ذلك شيئين: تحقق عذابهم، وتحقق صدقه عليه السلام، بعد أن كابد منهم كثيراً من الإنكار والتكذيب.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد، وهو العذاب النازل بهم لا محالة، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك من إهلاكهم؛ أي: وجئناك بالأمر المحقق المتقن، الذي لا مجال فيه للامتراء والشك، وهو العذاب الذي كتب وقدر لقوم لوط، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به.

ثم شرعوا يرتبون له مبادىء النجاة قبل حلول العذاب بقومه، فقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ أي: فاذهب بهم، من السرى وهو السير في الليل ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: في طائفة من الليل؛ أي: في بعض منه والمراد بأهله ابنتاه، فلم يخرج من قريته إلا هو وابنتاه، قيل: ومعهم امرأته الصالحة، وفي «القرطبي» في سورة هود: فخرج لوط وطوى الله الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم؛ أي: فسر[2] ببنتيك وامرأتك الصالحة في جزء من الليل عند السحر، ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾؛ أي: امش خلفهم، لأجل أن تطمئن عليهم، وتعرف أنهم: ناجون، جمع دبر وهو من كل شيء عقبه ومؤخّره؛ أي: وكن على إثرهم لتسوقهم وتسرع

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

بهم، وتطلع على أحولهم، فلا تفرط منهم التفاتة استحياء منك، ولا غيرها من الهفوات، قال في «برهان القرآن»: لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم.. علم نجاتهم، ولا يخفى عليه حالهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾؛ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ إلى ورائه إذا سمع الصيحة لئلا تراعوا من عظيم ما نزل بهم من البلاء، أو جعل[1] الالتفات كناية عن مواصلة السير، وترك التواني والتوقف، لأن من يلتفت لا بد له من أدنى وقفة ولم يقل هنا ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، كما في سورة هود اكتفاءً بما قبله، وهو قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾.

﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: سيروا إلى المكان الذي أمركم بالذهاب إليه، وهو الشام أو مصر، أو زعر وهي قرية بالشام، وقيل الأردن، وقيل إلى حيث يأمركم جبريل، وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة، ما عمل أهلها عمل قوم لوط اهـ «خازن».

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾؛ أي: وأوحينا[2] إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه، وفرغنا منه، ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: أن آخر هؤلاء المجرمين ﴿مَقْطُوعٌ﴾؛ أي: مهلك حالة كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلين في الصباح؛ أي: إن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح؛ أي: يتم استئصالهم حال ظهور الصبح، حتى لا يبقى منهم أحد، وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولاً وفسره ثانياً تفخيماً له، وتعظيماً لشأنه، وقرأ الأعمش[3] وزيد بن علي: ﴿إنَّ دابر﴾ بكسر الهمزة، لمَّا ضمن ﴿قضينا﴾ بمعنى أوحينا، فكان المعنى أعلمنا، علق الفعل فكسر إن، أو لما كان القضاء بمعنى الإيحاء فمعناه القول، كسر إن يؤيِّده قراءة عبد الله: ﴿وقلنا إن دابر﴾ وهي قراءة تفسير لا قرآنٍ، لمخالفتها سواد المصحف، والمعنى:

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن. (٣) البحر المحيط.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: فسر بأهلك، ابنتيك، أو هما وامرأتك الصالحة، على الخلاف فيه في بقيةٍ من الليل، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: وكن وراء أهلك الذين تسري بهم وعلى أثرهم لتذود عنهم، وتسرع بهم، وتراقب أحوالهم، حتى لا يتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه عذاب.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ فيرى ما ينزل بقومه فيرق قلبه لهم، وليوطن نفسه على الهجرة، ويطيب نفساً بالانتقال إلى المسكن الجديد، ثم أكدوا هذا النهي بقولهم: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: واذهبوا حيث يأمركم ربكم، غير ملتفتين إلى ما ورائكم، كالذي يتحسر على مفارقة وطنه، فلا يزال يلوي له أخاديده.

والخلاصة: أنهم أمروا بمواصلة السير، ونهوا عن التواني والتوقف، ليكون ذلك أقطع للعوائق وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقيّ، وهو بلاد الشام.

ثم بين العلة في الأمر بالإسراع السريع فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضي مبتوت فيه، ثم فصل ذلك فقال: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾؛ أي: إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم، ولا يبقى منهم أحدٌ، ونحو الآية: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ثم شرع يذكر ما صدر من القوم حين علموا بقدوم الأضياف، وما ترتب عليه مما أشير إليه أولاً على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي؛ أهل مدينة لوط المسماة بسذوم - بسين مهملة فذال معجمة، وأخطأ[1] من قال بمهملة - وهي التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، ومدائن قوم لوط كانت أربعاً، وقيل سبعاً، وأعظمها سذوم، وفي «درياق الذنوب» لابن الجوزي: كانت خمسين قرية؛ أي: جاء أهل مدينة سذوم إلى منزل لوط حالة كونهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يبشِّر[2] بعضهم بعضاً بأضياف لوط، والاستبشار إظهار الفرح والسرور؛ أي: يظهرون الفرح والسرور بأضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم، وقالوا: نزل بلوط

(١) الفتوحات.

(٢) الخازن.

ثلاثة أضياف من المُرد ما رأينا قط أصبح وجهاً ولا أحسن شكلاً منهم، فذهبوا إلى دار لوط طلباً منه لأولئك المرد، فقال لهم لوط ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ﴾ المرد ﴿ضَيْفِى﴾؛ أي: أضيافي، وحق على الرجل إكرام ضيفه، وأفرد الضيف لأنه مصدر كما مر، والمراد أضيافي، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الأضياف، وقومه رأوهم مرد حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾؛ أي: فلا تظهروا عاري عندهم، فإن الضيف يجب إكرامه، فإذا قصدتموهم بالسوء.. كان ذلك إهانة فيَّ.

والمعنى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي[1]: وجاء أهل مدينة سذوم حين سمعوا أن ضيفاً قد ضافوا لوطاً، حالة كونهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعاً في ركوب الفاحشة منهم، وفي هذا إيماء إلى فظاعة فعلهم، إذ هم خالفوا ما جرى به العرف وركب في الأذواق السليمة، من إكرام الغريب وحسن معاملته، وقصدوا بهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، وقد تقدم في سورة هود أن هذا المجيء قبل قول الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فما في سورة هود على الترتيب الواقعي، وما هنا على خلافه، إلا أن يقال إن الواو لا تقتضي ترتيباً اهـ شيخنا. وفي «الكرخي»: وذكر القصة في هود بترتيب الوقوع، وهنا أخر ذكر مجيئهم عن قول الرسل: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ مع تقدمه، ليستقل الأول ببيان كيفية نصرة الصابرين والثاني بتساوي الأمم، ذكره في «الفتوحات»: روي أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح منهم وجهاً ولا أحسن شكلاً، فذهبوا إلى دار لوط طلباً لهم، مظهرين اغتباطاً وسروراً بهم، ثم أخبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون به السوء. ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين جئتموهم، تريدون منهم الفاحشة ﴿ضَيْفِى﴾؛ أي: أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم وأكرموني بترك التعرض لهم بمكروه، ثم زاد النهي توكيداً بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وخافوا الله فيَّ وفي أنفسكم، أن يحل بكم عقابه في مباشرتكم لما يسوءني، أو في ركوب الفاحشة، واحفظوا ما أمركم به ونهاكم

---

(١) المراغي.

عنه، ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي: ولا تذلوني ولا تهينوني بالتعرض لمن أجرتهم، بمثل تلك الفعلة القبيحة من الخزي وهو الهوان، وهذه الجملة آكد في الغرض من سابقتها، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار، ومن ثم عبر عن لجاجهم، ومجاهرتهم بمخالفته بالخزي، وأمرهم بتقوى الله تعالى في ذلك، وقد أثبت[1] يعقوب ياء تفضحوني ولا تخزوني في الوصل والوقف، ثم أبانوا له أنه السبب في الفضيحة وفي هذا الخزي، كما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال قوم لوط الذين جاؤوا إليه ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ يا لوط ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عن أن تضيف أحداً من العالمين، أو تؤويه في قريتنا، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته، ويحول بينهم وبين من يتعرضون له، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم في مثل ذلك، وخلاصة مقالهم: أن ما ذكرت من الخزي والفضيحة أنت مصدره، والجالب له، فلولا تعرضك لنا.. ما أصابك ما أصابك.

قال في «الإرشاد»: قوله: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ الهمزة[2] فيه للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نقدم إليك وألم ننهك عن التعرض لهم بمنعهم عنا، وكانوا يتعرضون لكل واحد من الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام يمنعهم عن ذلك بقدر وسعه، وهم ينهونه عن أن يجير أحداً، أو يوعدونه بقولهم: لئن لم تنته يا لوط.. لتكونن من المخرجين، وفي «الشوكاني» وغيره: إن الاستفهام للإنكار، وليس بصواب، لعدم صدق ضابط الإنكاري عليه، بل التقريري يصدق عليه لأنه حمل المخاطب على الإقرار بما بعد حرف النفي، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ ولما رآهم[3] لوط متمادين في غيِّهم، لا يرعوون عن غوايتهم، ولا يقلعون عما هم عليه.. ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ النساء الموجودات بيننا ﴿بَنَاتِىٓ﴾؛ أي: بنات قومي فأزوجهن إياكم، أو تزوجوهن؛ أي: قال لوط لقومه تزوجوا النساء، ولا تفعلوا ما قد

---

(١) زاد المسير.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

حرم الله عليكم من إتيان الرجال، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أمركم به، منتهين إلى أمري، وقد سمى نساء قومه بناته، لأن رسول الأمة كالأب من حيث الشفقة والتربية، رجالهم بنوه، ونسائهم بناته، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم، وما أظنكم تفعلون، ذكره في «البحر». أو[1] أراد بناته الصلبية؛ أي: فتزوجوهن ولا تتعرضوا للأضياف، وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم، لخبثهم وعدم كفاءتهم لهن، لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار، فإن نكاح المؤمنات من الكفار كان جائزاً، فأراد أن يقي أضيافه ببناته كرماً وحميةً؛ أي: فتزوجوا بناتي، وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه إيثا وزعورا، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم، فإن الله تعالى خلق النساء للرجال، لا الرجال للرجال.

وفي الآيات فوائد:

الأولى: أن إكرام الضيف ورعاية الغرباء من أخلاق الأنبياء، وهو من أسباب الذكر الجميل، وفي الحديث: «من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وقرى الضيف.. دخل الجنة» كما في «الترغيب».

والثانية: أنه لا بد لكل مؤمن متق أن يسد باب الشر بكل ما أمكن له من الوجوه، ألا ترى أن لوطاً عليه السلام لما لم يجد مجالاً لدفع الخبيثين.. عرض عليهم بناته بطريق النكاح، وإن كانوا غير أكفاء دفعاً للفساد.

والثالثة: أن محل التمتع هي النساء لا الرجال، كما قالوا: ضرر النظر في الأمرد أشد، لامتناع الوصول إليه في الشرع، لأنه لا يحل الاستمتاع بالأمرد أبداً.

﴿لَعَمْرُكَ﴾؛ أي: لحياتك يا محمد قسمي؛ أي: أقسمت لك بحياتك ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن قوم لوط ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾؛ أي: لدائمون في سكرتهم وغوايتهم،

---

(١) روح البيان.

أو شدة غلمتهم، التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، والصواب الذي يشار به إليهم، من ترك البنين إلى البنات، حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتحيرون في غوايتهم ويتمارون، فكيف يسمعون النصح.

وقرأ الأشهب[١]: ﴿سُكرتهم﴾ بضم السين، وابن أبي عبلة: ﴿سَكَراتِهم﴾ بالجمع، والأعمش: ﴿سَكْرِهم﴾ بغير تاء، وأبو عمرو في راوية الجهضمي: ﴿أنَّهم﴾ بفتح همزة ﴿أنَّهم﴾، والعمر[٢] والعُمْر بالفتح والضم واحد، وهو البقاء، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف، لأن الحلف كثير الدوران على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر تقديره: لعمرك قسمي، كما حذفوا الفعل في قولهم: تالله.

وقال القاضي عياض: اتفق[٣] أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جلَّ جلاله، بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه وتعالى بحياةِ أحدٍ غير محمد ﷺ، لأنه أكرم البرية عنده تعالى، قال ابن العربي: ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط؟ قال القرطبي: ما قاله حسن، وذكر صاحب «الكشاف» وأتباعه: أن هذا القسم هو من الملائكة على تقدير القول والمعنى عليه؛ أي: قالت الملائكة للوط وحياتك أيها الرسول إن قومك لفي ضلالتهم التي جعلتهم حيارى، لا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر، لما أصابهم من عمى البصيرة، فهم لا يميزون الخطأ من الصواب، ولا الحسن من القبيح.

ثم ذكر سبحانه عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾؛ أي: فأخذت قوم لوط وأهلكتهم ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ العظيمة، أو صيحة جبريل عليه السلام، حال كونهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ أي: داخلين وقت شروق الشمس وطلوعها، وكان ابتداء[1] العذاب حين أصبحوا كما قال: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ وتمامه حين أشرقوا، لأن جبريل قلع الأرضين بهم، ورفعها إلى السماء ثم هوى بها نحو الأرض، ثم صاح بهم صيحة عظيمة، فالجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء فمقطوع على حقيقته، فإن دلالة اسمي الفاعل والمفعول على الحال، وحال القطع هو حال المباشرة لا حال انقضائه، لأنه مجاز حينئذٍ، وذلك بأن تقول مقطوع بمعنى يقطع عن قريب، وقيل[2]: أراد شروق الفجر، وقيل: كان أول العذاب عند شروق الفجر، وامتد إلى طلوع الشمس، والمعنى؛ أي: فنزل بهم العذاب المنتظر، وأخذتهم الصاعقة وقت الشروق، وكان ابتداؤها من الصبح، وانتهاؤها حين الشروق، ومن ثم قال أولاً ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقال هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم، ومن ثم يقال للأسد أخيذ.

ثم بين سبحانه كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾؛ أي: عالي المدينة وأعلاها وظاهرها أولا أو عالي قرى قوم لوط ﴿سَافِلَهَا﴾؛ أي: أسفلها وباطنها وتحتها مقلوبة، وذلك بأن رفعناها إلى قريب من السماء على جناح جبريل، ثم قلبناها عليهم، فصارت منقلبة بهم، وكانت قراهم[3] أربعة، فيها أربع مئة ألف مقاتل، وقوله: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعول أول لجعلنا، لأنه بمعنى صيرنا، و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعول ثان له، وهو أدخل في الهول والفظاعة من العكس.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أهل المدينة؛ أي: وأنزلنا عليهم في تضاعيف ذلك قبل تمام الإنقلاب، أو على من كان منهم خارجا عن المدينة، بأن كان غائباً في سفر أو غيره ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طين مطبوخ بالنار متحجر مكتوب عليه اسم من يرمى به، فهلكوا بالخسف والحجارة، وفي «الكواش»: وأمطرنا على شذاذهم؛ أي: على من غاب عن تلك البلاد، والمعنى[4]: أي: فجعلنا عالي المدينة ـ وهو ما على وجه الأرض ـ سافلها، فانقلبت عليهم،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من طين متحجر، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة هود.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة أنوع من العذاب:

١ ـ الصيحة المنكرة الهائلة والصوت المفزع المخيف.

٢ ـ أنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها.

٣ ـ أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل.

ثم ذكر أن في هذا القصص عبرة لمن اعتبر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من القصة من تعرض قوم لوط لضيف لوط طمعاً فيهم، وقلب المدينة على من فيها، وإمطار الحجارة عليها وعلى من غاب منهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ أي: لعلامات يستدل بها على حقية الحق، وعبرات يعتبر بها، ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: للمتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته.

أي: إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب لدلالات للمفكرين، الذين يعتبرون بما يحدث في الكون من عظات وعبر، ويستدلون بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصي من عقاب بئيس بما كانوا يكسبون.

أخرج البخاري في «التاريخ»، والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن مردويه: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ والفراسة[1] ما يوقعه الله في قلوب الصلحاء، فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن[2] ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق، وقد صنف الناس في القديم والحديث كتباً في ذلك، وبعض العلماء يجعلها دليلاً يحكم به، كما فعل إياس بن معاوية: كان قاضياً ذكياً في عهد التابعين، ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا، فقال: ﴿وَإِنَّهَا﴾، أي: قرى قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾؛

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أي[1]: لطريق ثابت يسلكه الناس، ويرون آثار تلك البلاد بين مكة والشام تندرس بعد، فاتعظوا بآثارهم يا قريش إذا ذهبتم إلى الشام، لأنها في طريقكم، والمعنى؛ أي: وإن هذه المدينة مدينة سدوم، التي أصابها ما أصابها من العذاب لطريق واضحة لا تخفى على السالكين، فآثارها باقية إلى اليوم، لم تندثر ولم تخف، فالذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ ثم أيأسَ من اعتبارهم بها، إذ هي لا يعتبر بها إلا المؤمنون، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي[2]: إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لدلالة جلية واضحة، وعبرة عظيمة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله ورسله، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاماً من الله لأنبيائه من أولئك الجهال، الذين عصوا أمر ربهم، وكفروا برسله، ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم، بعد إنذارهم ونصحهم.

أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية، لأسباب فلكية وشؤون أرضيةٍ، جَعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ في بعض أجزائها، كما يشاهد اليوم في البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد في باطن الأرض، وابتلاع الأرض لها، كما حدث في مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩، وظهور جزائر في وسط المحيطات لم تكن من قبل.

وإفراد[3] الآية هنا بعد جمعها فيما سبق، لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة، كما فيما سلف، وقال في «برهان القرآن»: ما جاء في القرآن من الآيات فلجمع الدلائل، وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه، فلما ذكر عقيبه المؤمنين، وهم مقرون بوحدانية الله تعالى.. وحد الآية. انتهى.

وفي الآيات فائدتان:

الأولى: مدح الفراسة، وهي الإصابة في النظر.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

والثانية: أن في إهلاك الأمم الماضية وإنجاء المؤمنين منهم إيقاظاً وانتباهاً ووعداً ووعيداً وتأديباً لهذه الأمة المعتبرين، فاعتبروا بأحوالهم، واجتنبوا عن أفعالهم، وابكوا فهذه ديار الظالمين ومصارعهم، وفقنا الله وإياكم للهدى وعصمنا من أسباب الجهل والردى، وسلمنا من شرور النفوس، فإنها شر العدى، وجعلنا من المنتفعين بوعظ القرآن، والمعتبرين بآيات الفرقان، ما دام الروح في البدن وقام في المقام والوطن.

وبعد أن ذكر قصص قوم لوط.. أتبعه بقصص قوم شعيب ـ عليهما السلام ـ فقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ إن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، والأيكة الغيضة، وهي جماع الشجر، أي: وإنه كان أصحاب بقعة الأشجار المجتمعة، وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ وكانوا يسكنونها، وكان عامة أشجارهم الدوم، وقيل الأيكة اسم القرية التي كانوا فيها، وقال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم وغيرهم بتكذيبهم رسل الله تعالى؛ أي: إن أصحاب الأيكة كانوا بجبلتهم ظالمين كفاراً، ليس لديهم استعدادٌ للإيمان بالله ورسله، أرسل الله تعالى إليهم وإلى أهل مدين شعيباً فكذبوه، وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام». ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصي؛ أي: فأهلكناهم وعاقبناهم لما كذبوا شعيباً، روي أن[1] الله سبحانه وتعالى سلَّط عليهم الحر سبعة أيام، حتى أخذ بأنفاسهم، وقربوا من الهلاك، فبعث الله لهم سحابة كالظلة، فالتجأوا إليها واجتمعوا تحتها، للتظلل بها، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم جميعاً، فهو عذاب يوم الظلة، ونعم ما قيل، والشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؛ أي: وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح يأتمون به في سفرهم، ويهتدون به في مسيرهم؛ أي: يمر أهل مكة عليهما في سفرهم إلى الشام للتجارة، وقال الفراء والزجاج: سمي الطريق

---

(١) المراح.

إماماً لأنه يؤتم ويتبع، وقال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده، وقيل الضمير للأيكة ومدين؛ لأن شعيباً كان ينسب إليهما.

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾ والحجر[1] بكسر الحاء وسكون الجيم اسم لأرض ثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ بين المدينة والشام، عند وادي القرى التي كانوا يسكنونها، وكانوا عرباً، وكان صالح ـ عليه السلام ـ من أفضلهم نسباً، فبعثه الله إليهم رسولاً ـ وهو شاب ـ فدعاهم حتى شمط، ولم يتبعه إلا قليل مستضعفون، وقال[2]: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يرسل إليهم إلا صالح لأن من كذب واحداً من الرسل. . فقد كذب الباقين، لكونهم متفقين في الدعوة إلى الله، وقيل: كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء، وقيل: كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين.

أي: وعزتي وجلالي لقد كذب ثمود نبيهم صالحاً ـ عليه السلام ـ ومن كذب رسولاً من رسل الله. . فكأنما كذب الجميع، لاتفاق كلمتهم على التوحيد، والأصول العامة التي لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وآتينا ثمود وأريناهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: حججنا الدالة على نبوة صالح ـ عليه السلام ـ الناقة وغيرها، وقيل الآية: الناقة فقط، وإنما جمعها لأن فيها آيات جمة، كخروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظمها وكثرة لبنها، وإنما[3] أضاف الآية إليهم وإن كانت لصالح، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات ﴿فَكَانُواْ عَنْهَا﴾؛ أي: عن تلك الآيات ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: تاركين لها، غير ملتفتين إليها، ولا معتبرين بها، ولهذا عقروا الناقة، وخالفوا ما أمرهم به نبيهم ﴿وَكَانُواْ﴾؛ أي: وكان قوم صالح ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾؛ أي: ينجرون وينقرون ﴿بُيُوتًا﴾ ومساكن من الجبال بالمعاويل ويثقبونها فيها حالة كونهم ﴿ءَامِنِينَ﴾ فيها من الانهدام، ونقب اللصوص وتخريب الأعداء، لوثاقتها، ومن الموت لاغترارهم بطول الأعمار، فهي حال مقدرة، أو من العذاب والحوادث لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أن

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

الجبال تحميهم منه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَنْحِتُون﴾ بكسر الحاء وقرأ الحسن وأبو حيوة بفتحها، وقرىء: ﴿بيوتاً﴾ بضم الباء وكسرها سبعيتان.

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: أهلكتهم صيحة من السماء فيها صوت صاعقةٍ، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم حالة كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلين في وقت الصبح؛ أي: فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا في صحوة اليوم الرابع من اليوم الذي أوعدوا فيه بالعذاب، كما جاء في قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ وفي[2] سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة، ولعلها من لوازم الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجاً شديداً، يفضي إليها، فهي مجاز عنها، وقوله ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من الضمير المنصوب؛ أي: داخلين في وقت الصبح في اليوم الرابع، وهو يوم الأحد، والصبح يطلق على زمان ممتد إلى الضحوة، وأول يوم من الثلاثة اصفرت وجوه القوم، وفي الثاني احمرت، وفي الثالث اسودت، فلما كملت الثلاثة.. صح استعدادهم للفساد والهلاك، فكان اصفرار وجوه الأشقياء في موازنة إسفار وجوه العداء.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾؛ أي: فما دفع عنهم ما نزل بهم من عذاب الله ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من نحت البيوت وجمع الأموال، وكثرة العدد وجمع العدد، بل خروا جاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله تعالى، روي[3] أن صالحاً ـ عليه السلام ـ انتقل بعد هلاك قومه إلى الشام بمن أسلم معه، فنزلوا رملة فلسطين، ثم انتقل إلى مكة فتوفي بها، وهو ابن ثمان وخمسين سنةً، وكان أقام في قومه عشرين سنة، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين» ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى جاوز الوادي، متفق عليه.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

وأخرج[1] ابن مردويه عن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، وعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم بإهراق القدور، وعلف العجين للإبل، ثم ارتحل عن البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذي أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: وما بين جنس السموات والأرضين، ولو أراد بين أجزاء المذكور.. لقال بينهن، وفيه إشارة إلى أن أصل السموات واحدة عند بعضهم، ثم قسمت كذا في «الكواشي». ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: إلا[2] خلقاً متلبساً بالحق والحكمة لا باطلاً وعبثاً، أو للحق والحكمة، والباء توضع موضع اللام، يعني لينظر عبادي إليهما فيعتبروا، والمراد بالحق ما فيهما من الفوائد والمصالح، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ وقيل المراد بالحق الزوال، لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائلٌ، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي[3]: القيامة لتوقعها كل ساعة كما في «المدارك» وقال ابن مالك: هي اسم لوقت تقوم فيه القيامة، سمي بها لأنها ساعة خفية يحدث فيها أمرٌ عظيم، وقال ابن الشيخ سميت الساعة ساعةً لسعيها إلى جانب الوقوع، ومسافتها الأنفاس.

﴿لَءَاتِيَةٌ﴾؛ أي: لكائنة لا محالة، فينتقم الله سبحانه لك يا محمد فيها من أعدائك، وهم المكذبون، ويجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا ليجازي كل محسن بإحسانه، وكل مسيء بإساءته، وفيه وعيد للعصاة وتهديد لهم.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يصفح عن قومه فقال: ﴿فَٱصۡفَحِ﴾ يا محمد واعف وأعرض عن المكذبين من قومك، وتجاوز عن إساءتهم ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾؛ أي: الإعراض الجميل، والعفو الحسن، وتحمل أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وهذا منسوخ بآية السيف.

وخلاصة ذلك[1]: خالقهم بخلق حسن، وتأن عليهم واحلم وأنذرهم، وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يبلغك يا محمد إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها، فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تَكِل جميع الأمور إليه، ليحكم بينك وبينهم، وقد علم أن الصفح الجميل أولى بهم، إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم، وفي الآية[2] أمر بالمخالقة بالخلق الحسن، وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وأرجح الناس حلماً، وأعظم الناس عفواً، وأسخى الناس كفًّا.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطيناك يا محمد سبع آيات تسمى بالمثاني، وهي الفاتحة، سميت بذلك لأنها تثنى وتكرر في كل ركعة من الصلاة، وهذا قول عمر وعليّ وابن مسعود وأبي هريرة، والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة، لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «أم القرآن السبع المثاني التي أعطيتها»، أو لأنها قسمت قسمين: ثناء ودعاء، وقد روي أن النبي ﷺ قال يقول الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»، وأعطيناك أيضاً ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾: وأكرمناك به، فهو معطوف على سبعاً من المثاني، ويكون من عطف العام على الخاص، لأن الفاتحة بعض من القرآن، وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها، على نحو ما جاء في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، وقيل[3]: السبع المثاني هي السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

والمائدة والأنعام والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنهما كسورة واحدة، إذ ليس بينهما تسيمة، روي هذا القول عن ابن عباس، وقيل: المراد بالسبع المثاني السبعة الأحزاب، فإنها سبع صحائف، وعلى القول الأول وجه تسمية الفاتحة مثاني، لأنها تثنى؛ أي: تكرر في كل صلاة كما مرَّ، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية: أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاووس وأبو مالك وهو راوية عن ابن عباس، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته، ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال مدنية، وظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ أنه قد تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية.

ثم لما بين الله سبحانه لرسوله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدِّينية.. نفره عن اللذات العاجلة الزائلة فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: نظر عينيك، ولا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾؛ أي: إلى ما أعطينا به ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: رجالاً ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي الكفرة من متاع الدنيا وزخارفها، فإن ما في الدنيا بالنسبة إلى ما أعطيت مستحقر؛ أي[1]: لا تتمنين أيها الرسول ما جعلنا من زينة الدنيا متاعاً للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين، فإن من وراء ذلك عقاباً غليظاً، والخطاب وإن كان موجَّهاً إلى النبي ﷺ، فهو تعليم لأمته كما تقدم مثله، يؤيد هذا ما سبق في أسباب نزول الآية، وإن كان ضعيفاً، من أنه أتت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير إلخ، وخلاصة ذلك لقد أوتيت النعمة العظمى، التي إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرةً، فقد أوتيت سبع آيات هي خير من السبع القوافل، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفرة؛ أي: لا تحزن ولا تتأسف لأجل عدم إيمانهم حيث[2] لم يؤمنوا، ولم ينتظموا في سلك أتباعك، ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين، لأن تَقْدِيري عليهم الكُفْرُ، وقد كان ﷺ يود أن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يؤمن به كل من بعث إليه، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم، وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾؛ أي: ألن جانبك وحالك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمن معك من المؤمنين وارفق بهم، ولا تجف بهم، ولا تغلظ عليهم[1]، مستعار من خفض الطائر جناحه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقوله في صفة أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

ثم بين وظيفة الرسول ﷺ فقال: ﴿وَقُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: المنذر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله، إن لم يؤمنوا؛ أي[2]: أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم في غيهم، كما حل بمن تقدم من الأمم المكذبة لرسلها، فانتقم الله منهم بإنزال العذاب بهم.

وفي «الصحيحين»: عن أبي موسى الأشعري إن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»، وقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ هو[3] من قول الله تعالى، لا من قول الرسول ﷺ، متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ لأنه بمعنى أنزلنا؛ أي: أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، إنزالاً مماثلاً لإنزال الكتابين التوراة والإنجيل، على اليهود والنصارى المقتسمين؛ أي: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ المنزل عليك يا محمد ﴿عِضِينَ﴾؛ أي: أجزاء؛ أي: الذين اقتسموا القرآن وجزؤوه وجعلوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه الذي وافق كتابيهما، وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما، أخرج هذا المعنى البخاري وسعيد بن منصور

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من عدة طرق، والموصول[1] مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم؛ أي: قسموا القرآن إلى حق وباطل، حيث قالوا عناداً وعدواناً: بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما، والغرض بيان المماثلة بين الإتيانين لا بين متعلقيهما، كما في الصلاة الإبراهيمية، فإن التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله الفائضة على إبراهيم وآله أتم وأكمل مما فاض على محمد ﷺ، وإنما ذلك للتقدم في الوجود، فليس في التشبيه إشعارٌ بأفضلية المشبه به من المشبه، فضلاً عن إيهام أفضلية ما تعلق به الأول مما تعلق به الثاني، فإنه ﷺ أوتي ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله.

وفي «القرطبي»: واختلف في المقتسمين على أقوال سبعة[2]:

الأول: قال مقاتل والفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها، يقولون لمن سلكها لا تغتر بهذا الخارج فينا يدعي النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا ساحرٌ، وربما قالوا شاعرٌ، وربما قالوا كاهنٌ، وسموا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق، فأماتهم شرميتةٍ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكماً على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبي ﷺ.. قال صدق أولئك.

الثاني: قال قتادة: هم قوم كفار من قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين.

الثالث: قال ابن عباس: هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

الرابع: قال عكرمة: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم هذه السورة لي وهذه لك.

الخامس: قال قتادة: اقتسموا كتابهم ففرقوه وبدّدوه.

السادس: قال زيد بن أسلم: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله، فسموا مقتسمين، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) القرطبي.

السابع: قال الأخفش: هم قوم أقسموا أيماناً تحالفوا عليها، وقيل إنهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وشيبة بن الحجاج، ذكره الماوردي بحروفه.

وبعد أن بين وظيفة الرسول، ذكر أن الحساب على الأعمال موكولٌ إلى الله سبحانه، لا إليه فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾؛ أي؛ فأقسمت لك يا محمد بربك الذي ربَّاك بالوحي ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾؛ أي[1]: لنسألن أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم، سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استعلام، بأن يقال لم فعلتم كذا وكذا، فلا يعارض قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: لا يسألون أي شيء فعلتم ليعلم ذلك من جهتهم، لأن المنفي في هذه الآية سؤال استعلام، لأن سؤال الاستعلام محال على الملك العلام، ويجوز أن يكون السؤال مجازاً من المجازاة، لأنه سببها؛ أي: فوربك لنسألن الكفرة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا من قول وفعل وتركٍ، والمعنى[2]؛ أي: فلنسألن الكفار جميعاً يوم القيامة، سؤال تأنيبٍ وتوبيخٍ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم، وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بي وبتوحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان.

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ، شدد عليه في الجهر به جهد المستطاع فقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: فاجهر بإبلاغ ما أمرت بتبليغه من الشرائع وأظهره، وافرق بين الحق والباطل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وأعرض عن الاهتمام باستهزائهم، ولا تبال بهم، ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة وتبليغ الرسالة، ولا تخفهم، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم، وهذا ليس بمنسوخ، لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم، ولمَّا[3] كان هذا الصدع شديداً عليه، لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين. ذكر أنه حارسه وكالئه منهم، فلا يخشى بأسهم فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾؛ أي: إنا كفيناك يا محمد شر المستهزئين وضررهم، الذين يسخرون منك ومن القرآن، وهم طائفة من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

المشركين لهم قوةٌ وشوكةٌ، كانوا كثيري السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ، حين يرونه أو يمر بهم، أفناهم الله تعالى، وأبادهم وأزال كيدهم، وقد اختلف في عدتهم، فقوم يقولون: هم خمسة الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعديُّ بن قيس، والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب، وقد ماتوا جميعاً بأهون الأسباب، فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده، فأصاب عرقاً في عقبه فمات، ومات العاص بشوكةٍ في أخمص قدمه، وأصاب عديَّ بن قيس مرضٌ في أنفه فمات، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداءٍ وهو قاعدٌ في أصل شجرةٍ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وعمي الأسود بن عبد المطلب. وقوم يقولون: هم سبعةٌ من أشراف قريش ومشركيها.

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾؛ أي: هم الذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر، يعبدونه من دون الله تعالى، وفي وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله ﷺ، وتهوينٌ للخطب عليه، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة، بل تعدوا إلى الإشراك بربهم المدبر لأمورهم، والمحسن إليهم، ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم، يوم تجزى كل نفس بما عملت، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

وبعد أن سلاّه بكفاية شرهم ودفع مكرهم، ذكر تسلية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ يا محمد ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: بما يقول المشركون من الأقوال الكفرية الاستهزائية، المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكذب، وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلية البشرية، والمزاج الإنساني، ثم أمره[1] سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ يا محمد ونزه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به حالة كونك متلبساً ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: متلبساً

---

(١) الشوكاني.

بحمده وثنائه ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: المصلين، فإنك إذا فعلت ذلك.. كشف الله همك، وأذهب غمك، وشرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه؛ أي: بالدوام عليها بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾؛ أي: الموت المتيقن، قال الزجاج: المعنى[1] اعبد ربك أبداً، لأنه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت.. لجاز إذا عبد الإنسان مرةً أن يكون مطيعاً، فإذا قال حتى يأتيك اليقين فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حيًّا، والمعنى[2]؛ أي: إذا نزل بك الضيق ووجهت نفسك فافزع إلى ربك، ونزهه عما يقولون، حامداً له على توفيقك للحق، وهدايتك إلى سبيل الرشاد، وصلِّ آناء الليل وأطراف النهار، فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس، ويسمو نفسك إلى الملأ الأعلى كما ورد في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، ودم على ما أنت عليه، طالباً المزيد من فضله، حتى يأتيك الموت، فهناك الجزاء بلا عملٍ، وهنا العمل ولا جزاء، وقصارى ذلك: أنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده في نفسه من الغم بفعل الطاعات، والإكثار من العبادات، وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر واشتدَّ عليه خطب.. فزع إلى الصلاة، روى أحمد عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» وفي هذه[3] دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء ما دام ثابت العقل، روى البخاري عن ابن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع.. فقاعداً، فإن لم تستطع.. فعلى جنب»، اللهم وفقنا لطاعتك، واهدنا لعبادتك، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

الإعراب

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فخرجوا من عند إبراهيم، وسافروا من قريته إلى قرية لوط، فلما دخلوا قريته، وجاءوا إليه.. قال لوط، ﴿لمَّا﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿لُوطٍ﴾، والجملة جواب ﴿لمَّا﴾، وجملة ﴿لمَّا﴾ معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿مُّنكَرُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ إلى قوله: ﴿وقضَيْنا﴾ مقولٌ محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب عن محذوف، إضراباً إبطالياً تقديره: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، ﴿جِئْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَمْتَرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿فِيهِ﴾.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿أتيناك﴾، تقديره: حالة كوننا متلبسين بالحق، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿أتيناك﴾. ﴿فَأَسْرِ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أسر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة في محل النصب معطوفة على قوله ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾. ﴿بِأَهْلِكَ﴾: جار ومجرور، حال

من فاعل ﴿أسر﴾؛ أي: فأسر حالة كونك متلبساً بأهلك، ﴿بِقِطْعٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أسر﴾ و﴿الباء﴾ بمعنى في؛ أي: في قطعٍ، ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿قطع﴾، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسْرِ﴾، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿أَحَدٌ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسْرِ﴾، ﴿وَٱمْضُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَأَسْرِ﴾. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿امضوا﴾ ﴿تُؤْمَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿قَضَيْنا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول، ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان منه، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: اسمها ومضاف إليه، ﴿مَقْطُوعٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿مَقْطُوعٌ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على البدلية من اسم الإشارة، أو من الأمر، تقديره: وقضينا إليه ذلك الأمر قطع دابر هؤلاء مصبحين، أو مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وقضينا إليه ذلك الأمر بقطع دابر هؤلاء ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في محل النصب حال من ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾.

﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ناصب واسمه، ﴿ضَيْفِى﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَفْضَحُونِ﴾: فعل مضارع

مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل و﴿النون﴾: نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة على قراءة الجمهور اجتزاءً عنها بكسرة النون مبني على السكون، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾: جازم وفعل وفاعل، ونون وقاية ومفعول محذوف على قراءة الجمهور، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نقدم لك ولم ننهك، ﴿لَمْ نَنْهَكَ﴾: جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على قوم لوط ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه وخبره، والجملة فعل شرط لـ ﴿إن﴾، والجواب محذوف تقديره: إن كنتم فاعلين قضاء الشهوة فيما أحل الله.. فتزوجوا بناتي، والجملة الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَعَمْرُكَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿عمرك﴾: مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف وجوبا لسد جواب القسم مسده والتقدير: لعمرك قسمي، وجملة القسم مستأنفة، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَفِي﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿فِي سَكْرَتِهِمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت استمرارهم في غوايتهم، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول: أخذتهم الصيحة ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، ﴿مُشْرِقِينَ﴾: حال من ضمير المفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿فَجَعَلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَٰلِيَهَا﴾: مفعول أول، ﴿سَافِلَهَا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به ﴿حِجَارَةً﴾: مفعول به، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: صفة لـ ﴿حِجَارَةً﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: صفة لآيات، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَإِنَّهَا﴾: ناصب واسمه ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء؛ ﴿بسبيل﴾: جار ومجرور خبره، ﴿مُّقِيمٍ﴾: صفة ﴿سبيل﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأَيَةً﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة ﴿لَأَيَةً﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئافية، ﴿إِنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن ﴿كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾: خبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت كونهم ظالمين، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك انتقمنا، ﴿انتقمنا﴾ فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾: ناصب واسمه ﴿لَبِإِمَامٍ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿بإمام﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿إمام﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿انْتَقَمنا﴾ على كونهم مقولاً لجواب إذا المقدرة، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، لأن آتى بمعنى أعطى، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿فَكَانُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿كانوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُعْرِضِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿آتيناهم﴾.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَنْحِتُونَ﴾ خبره، ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾: حال مقدرة من ﴿بُيُوتًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول، ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَنْحِتُونَ﴾ وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم وظلمهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: حال من ضمير المفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة، ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض، ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: اسم موصول، أو موصوفة في محل الرفع فاعل،

والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يكسبونه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية، ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦)﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، والجملة مستأنفة، ﴿فَٱصْفَحِ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الساعة آتية، وأن الله ينتقم من أعدائك.. فأقول لك اصفح، ﴿اصفح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿ٱلصَّفْحَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿ٱلْجَمِيلَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلصَّفْحَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾. خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ صفة له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب للقسم

المحذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة، ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾: صفة لـ﴿سَبْعًا﴾، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ﴾: معطوف على ﴿سَبْعًا﴾، ﴿ٱلْعَظِيمَ﴾: صفة ﴿القرآن﴾، ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمُدَّنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ ﴿لَا﴾ مبني على الفتح، والنون نون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿عَيْنَيْكَ﴾: مفعول به، ﴿إِلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تمدن﴾، ﴿مَتَّعْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، وجملة ﴿مَتَّعْنَا﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: جازم وفعل مجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿وَٱخْفِضْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على محمد، ﴿جَنَاحَكَ﴾: مفعول به، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ ﴿اخْفِضْ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة النهي.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿اخْفض﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾: مقولٌ محكيٌّ، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنَا﴾: ضمير فصل، أو تأكيد لياء المتكلم، ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفةٌ له، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قل﴾ ﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف معمول لآتيناك سبعاً من المثاني، لأنه بمعنى أنزلنا، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صفةٌ لمصدر محذوف، تقديره: ولقد أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم إنزالاً مثل إنزالنا على المقتسمين، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾. ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنائية، ﴿وربك﴾ جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بربك يا محمد، وجملة القسم مستأنفة، ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نسألنهم﴾: فعل ومفعول أول، ونون

توكيد، وفاعله ضمير يعود على الربِّ، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المفعول، والجملة الفعلية جواب القسم. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نَسْأَلَنَّ﴾ وهو في محل المفعول الثاني، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفةٌ لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عمّا كانوا يعملونه.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿فَاصْدَعْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك. اصدع بما تؤمر، ﴿اصدع﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿تُؤْمَرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما تؤمر به، ﴿وَأَعْرِضْ﴾: فعل أمر معطوف على اصدع، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: متعلق به، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: صفة للمستهزئين، ﴿يَجْعَلُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿مَعَ اللَّهِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لجعل، ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول أول، ﴿آخَرَ﴾: صفة له، والجملة صلة الموصول، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿سوف﴾: حرف استقبال وتنفيس، ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف، تقديره: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، والجملة مستأنفة، ويحتمل كون ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والفاء رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من

معنى الشرط، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب القسم المحذوف، ﴿أَنَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَضِيقُ﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما يقولونه.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿فَسَبِّحْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك... فأقول لك سبح بحمد ربك، ﴿سبح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿سبح﴾ تقديره: حالة كونك متلبساً بحمد ربك، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، ﴿وَكُن﴾ فعل أمر ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على محمد، ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾: خبر ﴿كُنْ﴾، وجملة ﴿كُنْ﴾ في محل النصب معطوف على ﴿سبح﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿سبح﴾، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، والتقدير: واعبد ربك إلى إتيان اليقين، الجار والمجرور معلق بـ ﴿اعْبُدْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: اذهب بهم ليلاً، والقطع من الليل الطائفة منه، كما قال:

افْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُوْمِ   كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيْمِ

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾؛ أي: كن على أثرهم لتسرع بهم، وتطلع على أحوالهم،

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أوحينا ﴿دَابِرَ﴾ آخر ﴿مَقْطُوعٌ﴾؛ أي: مهلك مستأصل، ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ والمدينة هي سذوم على وزن فعول ـ بالذال المعجمة ـ مدينة قوم لوط، والاستبشار إظهار السرور، والفضيحة إظهار ما يوجب العار، يقال: فضحه كمنعه يمنعه فضيحة وفضحاً إذا كشف مساويه، وأظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه، وفي «المختار»: فضحه فافضتح كشف مساويه، وبابه قطع، والاسم الفضيحة والفضوح أيضاً بضمتين اهـ. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي: لا تذلون، من الخزي وهو الهوان، أو ولا تخجلون فيهم، من الخزاية وهي الحياء اهـ «بيضاوي».

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ والعمر والعمر بالفتح والضم الحياة، وإذا أريد به القسم تفتح عينه، وقيل والعمر بالفتح لغة في العمر بضمتين، فهما بمعنى واحد، وهو مدة عيش الإنسان؛ أي: مدة حياته في الدنيا، لكن لم يرد القسم في كلام العرب إلا بالضبط الأول؛ أي: فتح اللام وفتح العين المهملة اهـ شيخنا، وفي «السمين»: لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوباً، و﴿إِنَّهُمْ﴾ وما في حيزه جواب القسم، تقديره: لعمرك قسمي أو يميني إنهم... إلخ، والعمر بالفتح والضم هو البقاء، إلا إنهم التزموا الفتح في القسم، قال الزجاج: لأنه أخف عليهم، وهم يكثرون القسم بعمرك، وفي «الدر المنثور» وعمرك بفتح العين وسكون الميم لغة في العمر بضمهما، وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح.

﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: في غوايتهم وضلالهم يتحيرون، ويقال عمه يعمه من باب تعب، إذا تحير، كما في «المختار».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ والصيحة الصاعقة، وكل شيء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة، أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير، ﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ أي: داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس وطلوعه، و﴿السجيل﴾ الطين المتحجر، وهو معرب لا عربيٌّ في المشهور، وفي «القاموس»: السجيل كسكيت حجارة كالمدر معرب. سَنْكِ وكل اهـ. ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: للمتفكرين، يقال توسمت في فلان كذا؛ أي:

عرفت وسمه فيه؛ أي: أثره وعلامته، وتوسم الشيء تحيره وتفرسه، وفي «السَّمين» قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ من التوسم تفعل من الوسم، والوسم أصله التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البقر أو غيره، وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، وفيه معنى التثبت، وقيل: أصله استقصار التعرف، تقول توسمت؛ أي: تعرفت مستقصياً وجوه التعرف، وقيل هو تفعل من الوسم وهو العلامة، ويقال توسمت في فلان خيرا إذا ظهرت لي منه علاماته، قال عبد الله بن رواحة يمدح النبي ﷺ:

إِنِّيْ تَوَسَّمْتُ فِيْكَ ٱلْخَيْرَ أَعْرِفُهُ   وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّيْ ثَابِتُ ٱلْبَصَرِ

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح معلم ليس بخفيّ ولا زائل الآثار، يسلكه الناس ويرون آثار القرى فيه «بيضاوي»، ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ والأيكة الغيضة، وهي الشجر الملتف بعضه على بعض، وقد كانت في مكان كثير الأشجار كثير الغبار، وكان عامة شجرهم المقل؛ أي: الدوم، وفي «المختار»: الأيك الشجر الكثير الملتف، الواحدة أيكة مثل تمر وتمرة، فمن قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة، ومن قرأ: ﴿أصحاب لَيْكَة﴾ فهي اسم القرية، وقيل هما مثل مكة وبكّة، ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح، وأصل الإمام ما يؤتم سمي به الطريق لأنه يؤتم ويتبع؛ أي: لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده اهـ «خازن»، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ هم ثمود، والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه، وآثاره باقية يمر عليها ركب الشام في ذهابه إلى الحجاز، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً، ومنه حجر الكعبة المشرفة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ هي الناقة، وفيها آيات كثيرة: كعظم خلقها، وكثرة لبنها، وكثرة شربها كما مر، ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾؛ أي: يخرقون فيها بيوتاً بالمعاويل، حتى تصير مساكن من غير بنيان يسكنونها زمن الشتاء، والنحت في كلام العرب البري والنجر، يقال نحته ينحته بالكسر نحتاً ـ من باب ضرب ـ إذا براه ونقبه، والجبال جمع جبل، قال في «القاموس»: الجبل محركة كل وتد للأرض عظم وطال، فإن انفرد فأكمة، أو قنة ﴿بُيُوتًا﴾ جمع بيت، وهو اسم مبنى

مسقف، مدخله من جانب واحد، بني للبيتوتة، سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثةً، والدار تطلق على العرصة المجردة، بلا ملاحظة البناء معها ذكره في «روح البيان».

و﴿ٱلصَّفْحَ﴾ ترك التثريب واللوم، والصفح الجميل ما خلا من العتب ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ جمع مثنى من التثنة، وهو التكرير والإعادة، ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ يقال مد عينيه إلى مال فلان: اشتهاه وتمناه، ﴿أَزْوَٰجًا﴾ جمع زوج، وهو الصنف، وخفض الجناح يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه.. بسط جناحه، والجناحان من الإنسان جانباه، و﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ المخوف بعذاب الله من لا يؤمن به.

﴿عِضِينَ﴾؛ أي: أجزاء، واحدها عضةٌ من عضيت الشاة، جعلتها أعضاء وأقساماً، وفي «البيضاوي» عضين جمع عضة، وأصلها عضوة فعلة، من عضى الشاة إذا جعلها أعضاءً وأجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعرٌ وبعضه سحرٌ وبعضه كهانةٌ ونحو ذلك، وقيل هو مأخوذ من عضته إذا بهته، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، وفي «المختار»: قال الكسائيُّ: العضة الكذب والبهتان، وجمعها عضون، مثل عزة وعزون، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ قيل ونقصان الواو، وهو من عضوته؛ أي: فرقته، لأن المشركين فرقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً، وقيل نقصانه الهاء، وأصله عضهةٌ، لأن العضة والعضين في لغة قريش السحر، يقولون للساحر عاضه، ومنه قول الشاعر:

أَعُوْذُ بِرَبِّيْ مِنَ ٱلنَّافِثَاتِ فِيْ عُقَدِ ٱلْعَاضِهِ ٱلْعَضِهِ

وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء، لما لحقها من الحذف، فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحذف، ومما يؤيد أن معنى عضين التفريق قول رؤبة:

وَلَيْسَ دِينُ ٱللَّهِ بِٱلْعِضِيْنِ

أي: بالمفرق، ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾؛ أي: اجهر به، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ﴿يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ أن ينقبض من الحسرة والحزن، ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المصلين، ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ الموت، وسمي به لأنه أمر متيقن لا شك فيه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ لأنه كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأن من يلتفت لا بد له من أدنى وقفةٍ.

ومنها: ترك الاستثناء هنا، حيث لم يقل: ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، اكتفاءً بما قبله وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ كنى به عن عذاب الاستئصال.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾، وجناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ لأن الجائي بعضهم لا كلهم.

ومنها: إطلاق الضيف على الملائكة بحسب اعتقاده ـ عليه السلام ـ لكونهم في زيِّ الضيف في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ حيث استعار السكرة التي هي زوال العقل من الشراب لغوايتهم وضلالتهم، بجامع عدم التمييز بين الصواب والخطأ في كل منهما.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ حيث استعار الإمام بمعنى

المقتدى به للطريق الواضح، بجامع الاهتداء في كل منهما.

ومنها: إطلاق الجمع على المفرد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا﴾؛ لأن المراد بها الناقة، تنزيلاً لها منزلة الجمع، لأن فيها آيات كثيرة وخوارق عديدة، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿ءَايَاتِنَا﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث شبه إلانة الجانب بخفض الجناح، بجامع العطف والرقة في كلٍ، واستعير اسم المشبه به للمشبه، وهذا من أبلغ الاستعارات، لأن الطائر إذ كف عن الطيران بجناحيه.. خفض جناحيه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: من المصلين لما فيه من إطلاق البعض وإرادة الكل.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾؛ لأن العبادة عامة شاملة للتسبيح والسجود وغيرهما.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بمعاني كتابه وأسرار تنزيله

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الحكم والأحكام

١ ـ وصف القرآن الكريم.

٢ ـ الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون.

٣ ـ استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، وتكذيبهم لما يرونه من الآيات.

٤ ـ إقامة الأدلة على وجود الله بما يرونه من الآيات في خلق السموات والأرض وفي الإنسان.

٥ ـ عصيان إبليس أمر ربه في السجود لآدم، وذكر الحوار بينه وبين ربه، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين.

٦ ـ بيان حال أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة.

٧ ـ قصص بعض الأنبياء، وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسلها.

٨ ـ بيان أن الحكمة في خلق السموات والأرض هي عبادة الله تعالى وحده، وإقامة العدل والنظام في المجتمع.

٩ ـ ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثاني والقرآن العظيم.

١٠ ـ نهي نبيه والمؤمنين عن تمني زخرف الدنيا وزينتها.

١١ ـ أمره ﷺ بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين.

١٢ ـ التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين.

١٣ ـ الأمر بالدعوة للدين جهراً والصدع بها، وعدم المبالاة بالمشركين.

١٤ ـ أمره ﷺ بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفي كتابه الكريم[١].

---

(١) فرغنا من تفسير هذه السورة بعون الله وتوفيقه في ليلة الثلاثاء، أوائلها الليلة الثانية عشرة من شهر شعبان المعظم، من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة من الهجرة النبوية.

سورة النحل

سورة النحل مكية[1] إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة، فإنها نزلت بالمدينة في قتل حمزة - رضي الله عنه - قاله ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه أنها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة، زاد مقاتل قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِۦ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية، وقيل: كان يقول لسورة النحل سورة النِّعم، لكثرة تعداد النعم فيها، وهي مئة وثمان وعشرون آية، وألفان وثمان مئة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبع مئة وسبعة أحرف.

والمقصود من هذه السورة[2]: الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزه عن شوائب النقص، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحلة لما ذكر من شأنها في دقة الفهم، من ترتيب بيوتها ورحبها وسائر أمرها، من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها، وجعله شفاءً، مع أكلها من الثمار النافعة والضارة، وغير ذلك من الأمور، ورسمها بالنعم واضح اهـ «خطيب».

المناسبة: ووجه المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها[3]: أنه لما قال في السورة السالفة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ كان ذلك تنبيهاً إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، فقيل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وأيضاً فإن قوله في آخرها: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ شدد الالتئام بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال الإمام أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: وجملة المنسوخ في هذه السورة خمس آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية (٦٧)، نسخت بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ الآية (٣٣) من سورة الأعراف، يعني الخمر، وقيل بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الآية (٩١) أي: انتهوا.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ الآية (٨٢)، نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية (١٠٦)، نسخت بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية (١٠٦) من سورة النحل، وقيل بآية السيف.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ الآية (١٢٥).

والخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ (١٢٨) نسخت كلتاهما بآية السيف، مع الاختلاف فيهما.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

وقد سبق لك بيان مناسبة أول هذه السورة لآخر السورة السالفة فراجعه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾...﴾

الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] أنه منزه عن الشريك والولد، وأنه لا إله إلا هو، وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له.. ذكر هنا أدلة التوحيد، واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع، جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم، ونبّه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف في صرف المشركين عمّا هم عليه من الشرك.

وكلما بصَّرهم طائفة مما يرون ويشاهدون.. بكتهم على ما يقولون ويفعلون، وبيَّن لهم كفرانهم نعمتي الرعاية والهداية، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية، ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان، ثم ربع بذكر أحوال النبات، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنه تعالى لما امتن بإيجادهم بعد العدم وإيجاد ما ينتفعون به من الأنعام وغيرها من الركوب. ذكر ما امتن به عليهم من إنزال الماء الذي هو قوام حياتهم وحياة الحيوان، وما يتولد عنه من أقواتهم وأقواتها من الزرع، وما عطف عليه فذكر منها الأغلب، ثم عمم بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثم أتبع ذلك بخلق الليل الذي هوسكن لهم، والنهار الذي هو معاشٌ، ثم بالنيرين الذين جعلهما الله تعالى مؤثرين بإرادته في إصلاح ما يحتاجون إليه، ثم بما ذرأ في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر الاستدلال بما ذرأ في الأرض.. ذكر ما امتن به من تسخير البحر، ومعنى تسخيره كونه يتمكن الناس من الانتفاع به، للركوب في المصالح، وللغوص في استخراج ما فيه، وللاصطياد لما فيه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الدلائل[3] على

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وكان في ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم، ووجوه الإحسان، وأردف ذلك بتبكيت الكفار، وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان، لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينها، ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده، وأنهم مهما بالغوا في الشكر واجتهدوا في العبادة.. فلسيوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه، ولكنه يستر عليهم مافرط من كفرانها، ويرحمهم بفيض النعم عليهم، مع عدم استحقاقهم لها، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية، وهي علم السر والنجوى والخلق، وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهي مخلوقة لا خالقة، ولا شعور لها بحشر ولا نشر، ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراك، وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد، فهي لا ترغب في الثواب ولا ترهب العقاب، وتستكبر عن عبادة الواحد الديان، لا جرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾.. قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعلمون حتى ننظر، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء.. قالوا ما نرى شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ فأشفقوا، وارتقبوا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام.. قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، ونزل: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فاطمأنوا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج[٢] ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. ذعر

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) لباب النقول.

أصحاب رسول الله ﷺ، حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكتوا، وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بكر ابن أبي حفص قال: لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.. قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي[1]: دنا واقترب ما وعدتم به أيها الكفرة؛ أي: أتى العذاب الموعود لكم أيها الكفرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أي: أمر الله ووقوعه، إذ لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء، لكنه حمل على الحقيقة، ونهوا عنه بضرب من التهكم.

الاستعجال طلب الشيء قبل حينه، وقيل أمر الله يوم القيامة، وعبَّر بالماضي عن المضارع لقرب وقوعه وتحققه، والحاصل[2] أن النبي ﷺ لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولم يروا شيئاً.. نسبوه إلى الكذب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قد حصل حكم الله بنزول العذاب من الأزل إلى الأبد، وإنما لم يحصل المحكوم به؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي: فلا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت، ولما قالت الكفرة: إنا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله، من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا، إما في الدنيا، وإما في الآخرة إلا أنَّا نعبد هذه الأصنام، فإنها شفعاؤنا عند الله، فهي تشفع لنا عنده، فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به، بسبب شفاعة هذه الأصنام، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له وتقديساً عن الصاحبة والولد ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: تبرأ وترفع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن إشراكهم به غيره، أو عما يشركون به تعالى من الأصنام والأوثان، فنزه الله تعالى نفسه عن شركة الشركاء، وأن يكون لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿أتى﴾ بالإمالة ذكره في «زاد المسير».

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

وقرأ الجمهور: ﴿تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: بالتاء على الخطاب، وهو خطاب للمؤمنين، أو خطاب للكفار على معنى قل لهم: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، وقر ابن جبير: بالياء نهياً للكفار، والظاهر عود الضمير في: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ على الأمر، لأنه هو المحدث عنه، وقيل يعود على الله؛ أي: فلا تستعجلوا الله بالعذاب، أو بإتيان يوم القيامة، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تُشْرِكون﴾ بتاء الخطاب، وباقي السبعة والأعرج وأبو جعفر وابن وضاح وأبو رجاء والحسن: بالياء على الغيبة، وقرأ عيسى الأولى بالتاء من فوق، والثانية بالياء من تحت، وبالتاء من فوق معاً الأعمش وأبو العالية وطلحة وأبو عبد الرحمن وابن وثاب والجحدري.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي: قرب عذاب المشركين وهلاكهم، أما إتيانه بالفعل وتحققه فمنوط بحكم الله النافذ، وقضائه الغالب على كل شيء، فهو يأتي في الحين الذي قدره وقضاه، ونظم سبحانه المتوقع في صورة المحقق، إيذاناً بأنه واجب الوقوع، والشيء إذا كان بهذه المثابة يسوغ في عرف التخاطب أن يعد واقعاً، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر في علمه تعالى.

وفي هذا[1]: تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله، وإعلامٌ منه لهم بقرب عذابهم وهلاكهم الذي لا بد منه، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذي يدفع الضر عنكم، وفي هذا رد لمقالهم حين قالوا: لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب في الدنيا أو في الآخرة.. لتشفعن لنا هذه الأصنام التي نعبدها من دونه.

وخلاصة هذا: أن تلك الجمادات الخسيسة التي جعلتموها شركاء لله وعبدتموها هي أحقر الموجودات، وأضعف المخلوقات، فكيف تجعلونها شريكةً لله في التدبير والشفاعة في الأرض والسموات.

---

(١) المراغي.

ولمَّا[1] أخبرهم ـ أعني الكفار ـ رسول الله ﷺ عن أمر الله تعالى أنه قد قرب، ونهاهم عن الاستعجال.. ترددوا في الطريق التي علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم به بالوحي على ألسن رسل الله تعالى من ملائكته، فقال: ﴿يُنَزِّلُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي[2]: جبريل لأن الواحد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيساً تعظيماً لشأنه ورفعاً لقدره، أو هو ومن معه من حفظة الوحي، لأنه قد ينزل بالوحي مع غيره حالة كونهم متلبسين ﴿بِٱلرُّوحِ﴾؛ أي: بالوحي الذي من جملته القرآن، على طريق الاستعارة، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وقال بعضهم الباء بمعنى مع؛ أي: ينزل الملائكة مع جبريل، وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان للروح الذي أريد به الوحي؛ أي: حالة كون الروح والوحي من أمره وحكمه وشرعه، أو هو متعلق بينزل، و﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء السببية؛ أي: بسبب أمره، وأجل إرادته؛ أي: ينزل الملائكة بالوحي من أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ أي: على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي إلى الخلق، وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدل من الروح؛ أي: ينزل الله سبحانه وتعالى ملائكته بالوحي من أمره على من يريد من عباده المصطفين الأخيار حالة كونهم متلبسين بأنهم أنذروا؛ أي: بأن قولوا يا ملائكتي للأنبياء: أعلموا الناس أيها الأنبياء ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الواحد القهار الملك الجبار ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: فخافوا أيها الناس عقابي بالإتيان بعبادتي، والمخاطبون بالإنذار الأنبياء الذين نزلت عليهم الملائكة، والآمر هو الله تعالى، والملائكة نقلة للأمر، والإنذار التخويف من المحذور.

وتقدير هذا الكلام:[3] أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده، ويأمر الله ذلك العبد الذي نزلت عليه الملائكة بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد، كلفهم بمعرفة التوحيد وبالعبادة له، وبين أنهم إن فعلوا.. فازوا بخيري الدنيا والآخرة، وإن تمردوا.. وقعوا في شر الدنيا والآخرة، فبهذا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

الطريق صار ذلك العبد مخصوصاً بهذه المعارف من دون سائر الخلق، فقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ إشارة إلى الأحكام الأصولية، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ إشارة إلى الأحكام الفرعية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[1]: ﴿يُنْزِل﴾ بإسكان النون وتخفيف الزاي، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرأ زيد بن علي والأعمش وأبو بكر: ﴿تُنَزَّلُ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول ﴿المَلائِكَةُ﴾، وقرأ الجحدري كذلك إلا أنه خفَّف، وقرأ الحسن وأبو العالية والأعرج والمفضَّل عن عاصم ويعقوب: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بفتح التاء مشدداً مبنياً للفاعل، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿نُنزِّلُ﴾ بنون العظمة والتشديد، وقتادة بالنون والتخفيف، قال ابن عطية: وفيهما شذوذ كثير. انتهى.

وشذوذهما أن ما قبله وبما بعده ضمير غيبة، ووجه بأنه التفات. وقرىء ﴿لِيُنْذِرُوا أنَّه﴾ وقرأ يعقوب ﴿فاتَّقُوني﴾ بالياء، ذكره «النسفيُّ»، وفي الآية إيماء[2] إلى أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بواسطة الملائكة، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ فقد بدأ بذكر الملائكة؛ لأنهم الذين يتلقون الوحي من الله بلا وساطة، وذلك الوحي هو الكتب، وهم يوصلون هذا الوحي إلى الأنبياء، لا جرم جاء الترتيب على هذا الوضع.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: خلق سبحانه وتعالى وأنشأ وأوجد العالم العلوي، وهو السموات، والعالم السفلي، وهو الأرض بما حوت على غير مثال سابق؛ أي: خلق الأجرام العلوية والآثار السفلية خلقاً متلبّساً ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة على نهج تقتضيه الحكمة، ولم يخلقهما عبثاً منفرداً بخلقهما لم يشركه في إنشائهما وإحداثهما شريك، ولم يعنه على ذلك معين ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ الله سبحانه عن ذلك، إذ ليس في قدرة أحد سواه أن ينشىء السموات والأرض، فلا تليق العبادة إلا له، تقدس سبحانه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن إشراكهم أو عن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

شركه الذي يجعلونه شريكاً له من الباطل الذي لا يبدىء ولا يعيد، فينبغي للسالك أن يوحد الله تعالى ذاتاً وصفةً وفعلاً، وقرأ الأعمش: ﴿فتعالى﴾ بزيادة فاء، ولما احتج[1] سبحانه بخلق السموات والأرض على حدوثهما.. قال بعده: ﴿تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فالقائلون بقدم السموات والأرض، كأنهم أثبتوا لله شريكاً في القدم، فنزَّه تعالى نفسه عن ذلك، وبين أنه لا قديم إلا هو، فالمقصود من قوله أوّلاً ﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ إبطال قول من يقول إن الأصنام تشفع للكفار في دفع عقاب الله عنهم، والمقصود ههنا إبطال قول من يقول: أجسام السموات والأرض قديمة، فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن أن يشاركه غيره في القدم، ويقال: قبل أن يخلق الأرض كان موضع الأرض كله ماء، فاجتمع الزبد في موضع الكعبة، فصارت ربوة حمراء كهيئة التل، وكان ذلك يوم الأحد، ثم ارتفع بخار الماء كهيئة الدخان حتى انتهى إلى موضع السماء، وما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة عام، كما بين المشرق والمغرب، فجعل الله درّةً خضراء فخلق منها السماء، فلما كان يوم الاثنين.. خلق الشمس والقمر والنجوم، ثم بسط الأرض من تحت الربوة ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة، لا بالباطل والعبث، ونعم ما قيل:

إِنَّمَا ٱلْكَوْنُ خَيَالٌ   وَهْوَ حَقٌّ فِيْ ٱلْحَقِيْقَهْ

ثم لما كان النوع الإنساني أشرف أنواع المخلوقات السفلية.. قدمه وخصه بالذكر، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: بني آدم لا غير؛ لأن أبويهم لم يخلقا من النطفة، بل خلق آدم من التراب، وحواء من الضلع الأيسر منه، ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾؛ أي: من جماد يخرج من حيوان، وهو المني، فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح، وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار، فعاش فيها ﴿فَإِذَا هُوَ﴾؛ أي: الإنسان بعد خلقه على هذه الصفة، وأتى بالفاء إشارة إلى سرعة نسيانهم ابتداء خلقهم ﴿خَصِيمٌ﴾؛ أي: بليغ الخصومة شديد الجدل، والمعنى: أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر الخصومة واضحها،

---

(١) المراح.

وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به عن الباطل، الآية تدل:[1] على وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، قالوا: خلق الله تعالى جوهر الإنسان من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً، وهم ما ازدادوا إلا تكبراً، وما لهم والكبر بعد أن خلقوا من نطفة قذرة؟!

والمعنى: أي[2] خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من نطفة؛ أي: من ماء مهين خلقاً عجيباً في أطوار مختلفة، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تم خلقه، ونفخ فيه الروح، فغذاه ونماه ورزقه القوت، حتى إذا استقل ودرج نسي الذي خلقه خلقاً سويًّا من ماء مهين، بل خاصمه فقال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وعبد ما لا يضر ولا ينفع ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ وكان حقه والواجب عليه أن يطيع وينقاد لأمر الله، وأكثر ما ذكر الإنسان في القرآن في معرض الذم، أو مردفاً بالذم، ذكره أبو حيان في «البحر».

ولمَّا ذكر[3] الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض، ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان.. ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته، ولمَّا كان أعظم ضرورات الإنسان الأكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الإنسان.. بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك، وهو الأنعام فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ﴾؛ أي: الإبل والبقر والغنم والمعز، جمع نعم، وهي الأجناس الأربعة، المسماة بالأزواج الثمانية، اعتباراً للذكر والأنثى، فالخيل والبغال والحمير خارجة من الأنعام، وانتصابها بفعل مضمر يفسره قوله: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾؛ أي: خلق الله سبحانه وتعالى الأنعام المذكورة لمنافعكم ومصالحكم يا بني آدم، وكذا سائر المخلوقات، فإنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم لا لها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأمَّا الإنسان فقد خلق له تعالى كما قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ وقرىء: ﴿الأنعامُ﴾ بالرفع شاذًّا، كما ذكره

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

أبو البقاء، حالة كون تلك الأنعام ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾؛ أي: ما يتدفأ به من البرودة ويستحسن من اللباس المتخذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ﴿و﴾ حالة كونها فيها ﴿منافع﴾ أخرى غير الدفء، من نسلها ودرها وركوبها، والحراثة بها وثمنها وأجرتها ﴿و﴾ حالة كونها ﴿منها﴾؛ أي: من لحومها وشحومها وأكبادها وكروشها وغير ذلك أصالةً، وغالباً ﴿تَأْكُلُونَ﴾ يا بني آدم[1]، بخلاف القُبل والدبر والذَّكر والخصيتين والمرارة والمثانة ونخاع الصلب والعظم والدم فإنها حرام، وتقديم الظرف لرعاية الفاصلة، أو لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الطيور وصيد البر والبحر.. فعلى وجه التداوي، أو التفكه والتلذذ، فيكون القصر إضافياً بالنسبة إلى سائر الحيوانات، حتى لا ينتقض بمثل خبز ونحوه من المأكولات المعتادة.

وقرأ الزهري وأبو جعفر[2]: ﴿دفٌّ﴾ بضم الفاء وشدِّها وتنوينها، ووجهه أنه نقل الحركة من الهمزة إلى الفاء ثم حذفها ثم شدد الفاء إجراء للوصل مجرى الوقف، إذ يجوز تشديدها في الوقف، وقرأ زيد بن عليّ ﴿دفٌ﴾ بنقل الحركة وحذف الهمزة دون تشديد الفاء، وقال صاحب «اللوامح» قرأ ﴿دفٌ﴾ بضم الفاء من غير همزٍ، والفاء محركة بحركة الهمزة المحذوفة، ومنهم من يعوض من هذه الهمزة فيشدد الفاء، وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفاً.

وخص منفعة[3] الأكل بالذِّكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها، وقيل: خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها، بخلاف غيره من المنافع التي فيها، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، وغيره نادر، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في هذه الأنعام مع ما فُصِّل من أنواع المنافع ﴿جَمَالٌ﴾؛ أي: زينةٌ في أعين الناظرين إليها ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾؛ أي: حين تردونها بالعشي من مسارحها إلى منازلها، التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ أي: وحين تخرجونها من مراحها إلى مسارحها بالغداة،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

وخصص هٰذين الوقتين بالذكر لأن الأفنية تتزين بها، ويتجاوب رغاؤها في الإبل، وثغاؤها في الشاة حين الذهاب والإياب.

فيعظم أربابها في أعين الناظرين إليها، وقدم المَرَاح على السَّرَاح مع تأخرها في الوجود لأن الجمال فيها أظهر، وجلب السرور فيها أكمل، ففيها حضور بعد غيبه، وإقبال بعد إدبار، على أحسن ما يكون، إذ تكون ملأى البطون حافلة الضروع.

وفي «الخازن»[1]: فإن قلت: لِمَ قدمت الإراحة على التسريح؟

قلتُ: لأن الجمال في الإراحة، وهو رجوعها إلى البيوت أكثر منها وقت التسريح، لأن النعم تقبل من المرعى ملأى البطون، حافلة الضروع، فيفرح أهلها بها، بخلاف تسريحها إلى المرعى، فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن، ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية، فثبت بهذا البيان أن التجمل في الإراحة أكثر منه من التسريح، فوجب تقديمه، وقرأ عكرمة والضحاك والجحدري: ﴿حِيْناً﴾ فيهما بالتنوين وفك الإضافة، وجعلوا الجملتين صفتين حذف منهما العائد، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾.

﴿و﴾ هذه الأنعام ﴿تَحْمِلُ﴾ أيضاً ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾؛ أي: أمتعتكم وأحمالكم، والمراد بها هنا الإبل خاصة، جمع ثقل بفتحتين وهو متاع المسافر ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ بعيدٍ غير بلدكم أيّاً ما كان، فيدخل فيه إخراج أهل مكة متاجرهم إلى اليمن ومصر والشام ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾؛ أي: بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه؛ أي: واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الإبل؛ لو لم تخلق الإبل فرضاً، والاستثناء في قوله[2]: ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾؛ أي: إلا بتعب الأنفس، فضلاً عن استصحابها معكم؛ أي: عن أن تحملوها على ظهوركم إليه مفرغ من أعم الأشياء؛ أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بكلفةٍ ومشقةٍ وجهدٍ شديدٍ وعناءٍ وتعبٍ، والشقُّ نصف الشيء، والمعنى على هذا: لم تكونوا بالغيه إلا

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

بنقصان بقوة النفس وذهاب نصفها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾.

وقد امتن الله[1] سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم، ثم خص الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَرَءُوفٌ﴾؛ أي: عظيم الرأفة والرفق بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: عظيم الإنعام عليكم، ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾.

وقال أبو حيان: وناسب[2] الامتنانَ بهذه النعمة من حملها الأثقال الختم بصفة الرأفة والرحمة، لأن من رأفته تيسير هذه المصالح وتسخير الأنعام لكم اهـ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بِشِقِ﴾ بكسر الشين، وقرأ مجاهد والأعرج وأبو جعفر وعمر بن ميمون وابن أرقم: بفتحها، ورويت عن نافع وأبي عمرو، وهما مصدران معناهما المشقة، وقيل الشق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ عطف على الأنعام؛ أي: وخلق الله سبحانه وتعالى لكم الخيل ﴿وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليلٌ بمعظم منافعها، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً مما لا ريب في تحققه ﴿وَ﴾ جعلها لكم ﴿زينة﴾ تتزينون بها إلى ما لكم فيها من منافع أخرى.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ وما عطف بالنصب، عطفاً على قوله:

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾، وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع، ولما كان الركوب أعظم منافعها اقتصر عليه، ولا يدل ذلك على أنه لا يجوز أكل الخيل، خلافاً لمن استدل بذلك، كأبي حنيفة كما يأتي بيانه، والخيل اسم جنس للفرس لا وحد له من لفظه كالإبل، وسمي الخيل خيلاً لاختيالها في مشيها، والخيل نوعان: عتيق وهجين، والفرق بينهما: أن عظم البرذون أعظم من عظم الفرس، وعظم الفرس أصلب وأنقل، والبرذون أجمل من الفرس، والفرس أسرع منه، والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة، فالعتيق ما أبواه عربيان، سمي بذلك لعتقه من العيوب، وسلامته من الطعن فيه بالأمور المنقصة، كما سميت الكعبة بالبيت العتيق لسلامتها من عيب الرق، لأنه لم يملكها مالك قط، والهجين الذي أبوه عربي وأمه عجمية، وخلق الله الخيل من ريح الجنوب، وكان خلقها قبل آدم ـ عليه السلام ـ لأن الدواب خلقت يوم الخميس، وآدم خلق يوم الجمعة بعد العصر، والذكر من الخيل خلق قبل الأنثى لشرفه، كآدم وحواء، وأول من ركب الخيل إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكانت وحوشاً، ولذلك قيل لها العراب، وفي الحديث: «اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم اسماعيل»، وكان له ﷺ سبعة أفراس، وروي أن موسى عليه السلام قال للخضر: أيُّ الدواب أحب إليك، قال: الفرس والحمار والعير، لأن الفرس مركب أولي العزم من الرسل، والعير مركب هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام، والحمار مركب عيسى والعزير ـ عليهما السلام ـ فكيف لا أحب شيئاً أحياه الله بعد موته قبل الحشر.

والبغال جمع بغل وهو مركب من الفرس والحمار، ويقال أول من استنتجتها قارون، وله صبر الحمار وقوة الفرس، وهو مركب الملوك في أسفارهم، ومعبرة الصعاليك في قضاء أوطارهم، وعن عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ البغال كانت تتناسل، وكانت أسرع الدواب في نقل الحطب لنار إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ فدعا عليها فقطع الله نسلها، وهذه الرواية تستدعي أن يكون استنتاجها قبل قارون، لأن إبراهيم مقدم على موسى بأزمنة كثيرة، وإذا بخر البيت بحافر البغل الذكر. . هرب منه الفأر وسائر الهوام، كما في «حياة الحيوان»، وكان له ﷺ بغال ست، والحمير جمع حمار، وكان

له ﷺ من الحمر اثنان: يعفور وعفير، والعفرة الغبرة، والحمار من أذل خلق الله تعالى كما قال الشاعر:

وَلاَ يُقِيْمُ عَلَىٰ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إلاَّ ٱلأَذَلاَّنِ عِيْرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتَدُ
هَذَا عَلَىٰ ٱلْخَسْفِ مَرْبُوْطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِىٰ لَهُ أَحَدُ

ثم علل[1] سبحانه وتعالى خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها، لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم، كالتحميل عليها، وعطف ﴿زينة﴾ على محل ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ لأنه في محل نصب على أنه علةٌ لخلقها، ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ لأن الركوب فعل المخاطبين، والزينة فعل الزائن، وهو الخالق، والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية، لأنه يورث العجب، فكأنه سبحانه قال: خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر، ولكنه غير مقصود بالذات.

فصلٌ في ذكر الاختلاف في لحوم الخيل

وقد استدل[2] بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل، قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقةٌ لهذه المصلحة دون غيرها، قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام، فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل، قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزاً.. لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما، والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل، ولا حجة لأهل القول الأول في التعليل بقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره،

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر، ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب، وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل.. لدلت على تحريم الحمر الأهلية، وحينئذٍ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر، وقد قدمنا أن هذه السورة مكية، والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم.. لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعةً لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال، واحتجوا[1] على إباحة لحوم الخيل بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه، وفي رواية قالت: ذبحنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً ونحن في المدينة فأكلناه، أخرجه البخاري ومسلم، وبما روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل، وفي رواية قال: أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش، ونهى النبي ﷺ عن الحمار الأهلي، متفق عليه، وهذه رواية البخاري ومسلم، وفي رواية أبي داود قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، وكنا قد أصابتنا مخمصة، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل.

وقال البغوي[2]: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها: تعريف الله عباده نعمه، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، والدليل الصحيح المعتمد عليه في إباحة لحوم الخيل أن السنَّة مبنية للكتاب، ولما كان نص الآية يقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتاً عنه.. دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم، فوردت السنة بإباحة لحوم الخيل، وتحريم لحوم البغال والحمير فأخذنا بها جمعاً بين النصين، والله أعلم.

﴿وَيَخْلُقُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أيها العباد؛ أي: ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات، غير ما عدده هنا من أنواع الحشرات والهوام في

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر، ولم يسمعوا به، مما يهدي إليه العلم، وتستنبطه العقول، كالقطر البرية والبحرية، والطائرات التي تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى بلد آخر، ومن قطر إلى قطر، والمطاود الهوائية التي تسير في الجو، والغواصات التي تجري تحت الماء، إلى نحو أولئك مما تعجبون منه، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير في الركوب والزينة.

والتعبير[1] هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة بالنسبة إلى ما ظهر؛ لأنه تعالى قد خلق ما لا يعلم به العباد، وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته، أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوي لمن أراده، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وعلى الله سبحانه وتعالى بموجب رحمته وبمقتضى وعده المحتوم، لا واجب عليه إذ لا يجب عليه شيءٌ، بيان قصد السبيل؛ أي: بيان الطريق المستقيم، الموصل من سلكه إلى الحق والتوحيد بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ونحو الآية قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾.

والقصد[2]: مصدر بمعنى اسم الفاعل، يقال: سبيل قصد وقاصد؛ أي: مستقيم، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: إلى سبيل القصد؛ أي: المستوي المستقيم، أو المعنى: وعلى الله قاصد السبيل؛ أي: هداية قاصد الطريق المستقيم، بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع.

﴿وَمِنۡهَا﴾؛ أي: من السبل سبيل ﴿جَآئِرٞۚ﴾؛ أي: طريق مائلٌ عن الاستقامة، معوج زائغ عن الحق، فالسبيل القاصد هو الإسلام، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى، سماويةً كانت كاليهودية والنصرانية، أو أرضية كالوثنية والمجوسية.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وخلاصة هذا[1]: أن ثمة طرقاً تسلك للوصول إلى الله، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وأمر بها، وهي طريق الإسلام له، والإخبات إليه وحده، كما أرشد إلى ذلك بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وما عداها فهو جائزٌ، وعلى الله بيان ذلك، ليهتدي إليه الناس، ويبتعدوا عن سواه.

ثم أخبر سبحانه: بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله سبحانه وتعالى أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد هدايةً موصلة إليه.. ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لفعل ذلك، ولكن لم يشأ؛ لأن مشيئته تابعةٌ للحكمة الداعية إليها، ولا حكمة في تلك المشيئة؛ أي[2]: ولو شاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل في حياتكم الاجتماعية، أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة وتقوى الله، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية، ولا تسعى إلى الشر، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم، وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها، ثم ترجحون منها ما تميل إليه نفوسكم، وما ترون فيه الفائدة لكم، كما قال عز من قائل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: طريق الخير والشر ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

والمعنى[3]: ولو شاء أن يهديكم جميعاً إلى الطريق الصحيح والمنهج الحق.. لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته إراءة الطريق والدلالة، وأما الإيصال إليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافرٌ، ولا يستحقُّ النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمناً، والبعض كافراً، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع.

فإن قلت[4]: لِمَ غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؟

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

قلت: ليعلم بما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان كما تزعم المجبرة.. لقيل: وعلىٰ الله قصد السبيل، وعليه جائرها، أو عليه الجائر، وقرأ عبد الله: ﴿ومنكم جائر﴾ عن القصد بسوء اختياره، والله بريء منه.

وبعد أن ذكر سبحانه نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام، شرع بذكر نعمته عليهم في إنزال المطر فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ بقدرته القاهرة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى السحاب ومنه إلى الأرض ﴿مَآءً﴾ عذباً؛ أي: نوعاً منه وهو المطر، وفي «بحر العلوم»: تنكيره للتبعيض؛ أي: بعض الماء، فإنه لم ينزل من السماء الماء كله ﴿لَكُمْ﴾ أيها الأدميون ولكلٍّ حيٍّ ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الماء المنزل ﴿شَرَابٌ﴾؛ أي: ما تشربونه، والظرف[1] الأول وهو لكم خبرٌ مقدم لشرابٌ، والثاني حال منه، ومن تبعيضية، قال الخطيب: وإن قيل: ظاهر هذا أن شرابنا ليس إلا من المطر.. أجيب بأنه تعالى لم ينف أن نشرب من غيره، وبتقدير الحصر لا يمتنع أن يكون الماء العذب الذي تحت الأرض من جملة ماء المطر أسكن هناك، بدليل قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَمِنْهُ﴾؛ أي: ومن ذلك المنزل ﴿شَجَرٌ﴾ فـ ﴿من﴾ ابتدائية؛ أي: ومنه وبسببه يحصل شجر ترعاه المواشي، والمراد به: ما ينبت من الأرض سواء كان له ساق أو لا ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الشجر ﴿تُسِيمُونَ﴾؛ أي: ترعون مواشيكم، قدم الشجر على الزرع وعلى ما بعده لحصوله بغير صنع من البشر.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿تَسيمون﴾ بفتح التاء، فإن سمع متعدياً.. كان هو وأسام بمعنى واحد، وإن كان لازماً.. فتأويله على حذف مضاف تسيمون؛ أي: تسيم مواشيكم لما ذكر.

والمعنى[3]: أي إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

ومصالحكم هو الإله الذي أنزل المطر من السماء عذباً زلالاً تشربون منه، وتسقون أشجاركم ونباتكم التي تسيمون فيها أنعامكم وفيها ترعى.

ثم استأنف[1] إخباراً عن منافع الماء، فقال جواباً لمن قال: هل له منفعة غير ذلك؟ ﴿يُنۢبِتُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿لَكُم﴾ أيها العباد؛ أي: ينبت لمصالحكم ومنافعكم ﴿بِهِ﴾؛ أي: بما أنزل من السماء ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ الذي هو أصل الأغذية وعمود المعاشر، قال في «بحر العلوم»: الزرع كل ما استنبت بالبذر مسمى بالمصدر وجمعه زروع.

قال كعب الأحبار: لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام.. جاء ميكائيل بشيء من حب الحنطة وقال: هذا رزقك ورزق أولادك، قم فاضرب الأرض، وابذر البذر، قال: ولم يزل الحب من عهد آدم إلى زمن إدريس كبيضة النعام، فلما كفر الناس.. نقص إلى بيضة الدجاجة، ثم إلى بيضة الحمامة، ثم إلى قدر البندقة، ثم إلى قدر الحمصة، ثم إلى المقدار المحسوس الآن، يقال: إن البوم لا يأكل الحنطة ولا يشرب الماء، أما الأول: فلأن آدم عصى بالحنطة ربه، وأما الثاني: فلأن قوم نوح أهلكوا بالماء.

وقرأ أبو بكر[2]: ﴿نُنبِتُ﴾ بنون العظمة، وقرأ الزهري ﴿نُنَبِّتُ﴾ بالتشدد، قيل للتكثير والتكرير، والذي يظهر أنه تضعيف التعدية، وقرأ أُبيٌّ: ﴿يَنْبُت﴾ من نبت، ورفع الزرع وما عطف عليه، ﴿و﴾ ينبت لكم بذلك الماء ﴿الزيتون﴾ الذي هو إدام من وجه، وفاكهة من وجه، قال في «إنسان العيون»: شجرة الزيتون تعمّر ثلاثة آلاف سنة، وهو جمع زيتونة، ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، ﴿و﴾ وينبت لكم ﴿النخيل﴾ والنخيل والنخل بمعنى واحد، وهو اسم جمع، والواحدة نخلة كالثمرة والثمر، وفي الحديث: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضل طينة آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ٱبنة عمران، فأطعموا نسائكم الولَّد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمرٌ»، كما في

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

«المقاصد الحسنة»، ﴿و﴾ ينبت لكم ﴿الأعناب﴾ جمع عنب، وإنما جمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة، وفيه إشارة: إلى أن تسمية العنب كرماً لم يكن بوضع الواضع، ولكنه كان من الجاهلية، كأنهم قصدوا به الاشتقاق من الكرم؛ لكون الخمر المتخذة منه تحثُّ على الكرم والسخاء، فنهى النبي ﷺ عن أن يسموه بالاسم الذي وضعه الجاهلية، وأمرهم بالتسمية اللغوية بوضع الواضع حيث قال: «لا تقولوا: الكرم، ولكن قولوا: العنب والحبلة» ثم بين قبح تلك الاستعارة بقوله: «إنما الكرم قلب المؤمن» يعني أن ما ظنوه من السخاء والكرم فإنما هو من قلب المؤمن لا من الخمر؛ إذ أكثر تصرفات السكران عن غلبةٍ من عقله، فلا يعتبر ذلك العطاء كرماً ولا سخاء؛ إذ هو في تلك الحالة كصبي لا يعقل السخاء، ويؤثر بماله سرفاً وتبذيراً، فكما لا يُحمل ذلك على الكرم، فكذا إعطاء السكران، كذا في «أبكار الأفكار».

وخصص هذه الأنواع الأربعة بالذكر للإشعار بفضلها وشرفها، وفي «البحر»: وخص[1] الأربعة بالذكر؛ لأنها أشرف ما ينبت، وأجمعه للمنافع، وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه، وهي ضرورية مع منفعة أكله، والائتدام به، وبدهنه والإطلاء بدهنه، ثم بالنخل لأن ثمرته من أطيب الفواكه، وقوت في بعض البلاد، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة.

ثم عمَّم فقال[2]: ﴿و﴾ ينبت لكم ﴿من كل الثمرات﴾؛ أي: بعض كلها، وأتى بلفظ ﴿من﴾ التي للتبعيض؛ لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أُنبت في الأرض بعضٌ من كلها للتذكرة.

ويحتمل كون المراد ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يحتملها هذه النشأة الدنيوية، وترى بها، وهي الثمرات المتعارفة عند الناس بأنواعها وأصنافها، فتكون كلمة ﴿مِنْ﴾ صلة كما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ على رأي الكوفية وهو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

اللائح الواضح.

والمعنى: أي ينبت لكم بالماء الذي أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم، ومن كل الثمرات غير ذلك أرزاقاً لكم، وأقواتاً نعمةً منه عليكم، وحجة على من كفر به، ولما ذكر الحيوانات المنتفع بها على التفصيل.. أعقبه بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كذلك هنا ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات، ثم قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تنبيهاً على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها مما لا يكاد يحصر، كما أنَّ تفصيل ما خُلق من باقي الحيوان لا يكاد يحصر، وختم ذلك تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إنزال الماء، وإنبات ما فصل ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية، لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لقوم يعتبرون مواعظ الله، ويتفكرون فيها، حتى تطمئن قلوبهم بها، وينبلج نور الإيمان فيها يضيء أفئدتهم، ويزكي نفوسهم، فإن[1] من تفكر في أن الحبة والنواة تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها، فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض، وينشق أعلاها إن كانت منتكسة في الوقوع ويخرج منه ساق فينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار، على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع، وعلى نواةٍ قابلةٍ لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا إلى نهاية، مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية، والتأثيرات العلوية بالنسبة إلى الكل.. علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال، فضلاً عن أن يشاركه أخس الأشياء في صفاته التي هي الألوهية، واستحقاق العبادة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، والتفكر تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب، قالوا: الذكر طريق والفكر وسيلة المعرفة التي هي أعظم الطاعات، ولله[2] در القائل:

تَـأَمَّـلْ فِـيْ رِيَـاضِ ٱلْـوَرْدِ وَٱنْـظُـرْ   إِلَـىٰ آثَـارِ مَـا صَـنَـعَ ٱلْـمَـلِـيْـكُ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

عُيُوْنٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ عَلَىٰ أَهْدَابِهَا ذَهَبٌ سَبِيْكُ
عَلَىٰ قَضْبِ ٱلزَبَرَّجَدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكُ

﴿وَسَخَّرَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنامنكم ومعاشكم، ولعقد الثمار وإنضاجها ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفةً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ قال[1] بعضهم: الليل ذكر كآدم، والنهار أنثى كحواء، والليل من الجنة، والنهار من النار، ومن ثمة كان الأنس بالليل أكثر، ﴿و﴾ سخر لكم ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ تسخراً في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة، وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحه، كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم، وليس المراد بتسخير هذه لهم تمكنهم من تصريفها كيف شاؤوا، كما في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ونظائره، بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم، لا أن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب إرادتهم.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوها مسخرات؛ أي: مذللات لله تعالى خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خلقت له ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾؛ أي: بإرادته ومشيئته، وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين والقمرين، لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص، بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى، من غير دلالة على شيء آخر، ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث، إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار.

والمعنى[2]: أي ومن نعمه تعالى عليكم مضافةً إلى النعم التي سلف ذكرها أن سخر لكم الليل والنهار، يتعاقبان خلفةً، لمنامكم واستراحتكم وتصرفكم في معايشكم وسعيكم في مصالحكم، وسخر لكم الشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافة، وأدائهما ما نيط بهما من تربية الأشجار والزرع وإنضاج الثمرات وتلوينها، إلى نحو ذلك من الآثار والمنافع التي ربطها سبحانه

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

بوجودهما، وبهما يعرف عدد السنين والشهور، وفي ذلك صلاح معايشكم، وسخر لكم النجوم بأمره وإرادته، تجري في أفلاكها بحركة مقدرة لا تزيد ولا تنقص، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير المتعلق بما ذكر مجملاً ومفصلاً ﴿لَآيَٰتٍ﴾ باهرة ودلالات واضحة متكاثرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حجج الله، ويفتحون عقولهم للنظر والاستدلال، ويفهمون ما نبههم إليه بها، ويعتبرون، وعبر هنا[1] بالعقل، وفي خاتمة الآية السابقة بالتفكر، من قبل أن الآثار العلوية متعددة، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية ظاهرة لا تحتاج إلا إلى العقل من غير تفكر ولا تأمل، بل تدرك بالبديهة، بخلاف الآثار السفلية من الزرع والنخيل والأعناب فهي تحتاج في دلالتها على وجود الصانع إلى فكر وتدبر ونظر شديد، وجمع الآيات هنا ليطابق قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾، وفي «البحر»: وجمع[2] الآيات هنا، وذكر العقل وأفرد فيما قبل، وذكر التفكر؛ لأن فيما قبل استدلالاً بإنبات الماء، وهو واحد وإن كثرت أنواع النبات، والاستدلال هنا متعدد، ولأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، وقد ذكر لفظ الآية في هذه السورة سبع مرات، خمس بالإفراد، واثنتان بالجمع، قال الكرماني: ما جاء بلفظ الإفراد فلوحدة المدلول، وهو الله تعالى، وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات اهـ.

والأَوْلَى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها، كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار، وللأفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين، وحسن كل واحد منهما.

فائدة: قال أهل العلم[3]: العقل جوهر مضيء، خلقه الله في الدماغ،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

وجعل نوره في القلب، يدرك الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة، وهو للقلب بمنزلة الروح للجسد، فكل قلب لا عقل له فهو ميت، وهو بمنزلة قلب البهائم، وسئل النبي ﷺ: من أحسن الناس عقلاً؟ قال: «المسارع إلى مرضاة الله تعالى، والمجتنب عن محارم الله تعالى»، قالوا أخف حلماً من العصفور، قال حسان بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ:

لاَ بَأسَ بِٱلْقَوْمِ مِنْ طُوْلٍ وَمِنْ عِظَمِ جِسْمُ ٱلْبِغَالِ وَأَحْلاَمُ ٱلْعَصَافِيْرِ

وقرأ ابن عامر: ﴿والشمس﴾ وما بعده بالرفع على الابتداء، والخبر ﴿مسخرات﴾، وقرأ حفص: و﴿النجوم﴾ ﴿مسخراتٌ﴾ برفعهما، وقرأ ابن مسعود والأعمش وابن مصرف. ﴿والرِّياحُ﴾ ﴿مسخراتٌ﴾ بدل و﴿النجومُ﴾ ﴿مسخرات﴾ وهي مخالفة لسواد المصحف، والظاهر في قراءة نَصْبِ الجميع أنَّ ﴿والنجومُ﴾ معطوف على ما قبله، و﴿مسخرات﴾ حالٌ مؤكدة من الجميع.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على الليل والنهار رفعاً ونصباً؛ أي: وسخر لكم سبحانه وتعالى ما خلق لكم في الأرض، من عجائب الأمور ومختلف من حيوان ونبات ومعادن حالة كونه: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ وهيئات من خضرة وبياض وحمرة وسواد، وغير ذلك على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصّها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ونحوها، أو إن في اختلاف ما في الأرض ﴿لَآيَةً﴾ دالة على أن من هذا شأنه واحد لا شريك له ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ آلاء الله ونعمه، فيشكرونه على ما أنعم، ويخبتون إليه على ما تفضل به وأحسن، فإن ذلك غير محتاج إلا إلى تذكر ما عسى يفضل عنه من العلوم الضرورية.

وختم هذا بقوله[1]: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ ومعناه الاعتبار والاتعاظ، كأن علمهم بذلك سابق طرأ عليه النسيان، فقيل يذكرون؛ أي: يتذكرون ما نسوا من تسخير هذه المكونات في الأرض.

---

(١) البحر المحيط.

قيل: وإنما[1] خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة، وخص المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وإزاحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية.. فلا عقل له، وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك.. فلا حس له، وفي هذا من التكلف ما لا يخفي، والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في إفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر، وبيانه أن كلاً من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر، لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن، لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة، والله أعلم بأسرار كتابه.

وبعد أن ذكر أنواع النعم في البر شرع يفصل نعمه في البحر، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ وذلل لكم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ العذب والملح، والبحر: الماء الكثير، أو الملح فقط؛ أي: جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد.

قال بعضهم[2]: هذه البحور على وجه الأرض ماء السماء النازل وقت الطوفان، فإن الله تعالى أمر الأرض بعد هلاك القوم فابتلعت ماءها، وبقي ماء السماء لم تبتلعه الأرض، وأما البحر المحيط فغير ذلك، بل هو جزر عن الأرض حين خلق الله الأرض من زبده، ويجوز ركوب البحر بشرط علم السباحة وعدم دوران الرأس، وإلا فقد ألقى نفسه إلى التهلكة، وأقدم على ترك الفرائض، وذلك للرجال والنساء، كما قاله الجمهور، وكره ركوبه للنساء، لأن حالهن على الستر، وذا متعسر في السفينة، لا سيما في الزورق وهي السفينة الصغيرة.

امتن الله[3] سبحانه وتعالى بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه، واستخراج ما فيه من صيد وجواهر، لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده، مع

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ومواضع النظر والاعتبار.

ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾؛ أي: وهو تعالى الذي سخر لكم البحر لتصطادوا منه؛ أي: من حيوانه، فهو على حذف مضاف ﴿لَحْمًا﴾؛ أي: سمكاً طريًّا، أي: رطباً؛ أي: سخر لكم لتأكلوا سمكاً رطباً تصطادونه منه أي من حيوانه.

والتعبير[1] عن السمك باللحم مع كونه حيواناً، لانحصار الانتفاع به في الأكل، وفي وصفه[2] بالطراوة والرطوبة تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، وبما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضاً إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب.

وقد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء، وهو الذي يموت حتف أنفه في الماء فيطفو على وجهه، لحديث جابر عن النبي ﷺ: «ما نضب عنه الماء فكلوا، وما لفظه فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا». فالمراد منه ميتة البحر في الحديث: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته» هو ما لفظه، لا ما مات فيه من غير سبب، ﴿و﴾ سخر لكم البحر أيضاً ﴿لتستخرجوا منه﴾؛ أي: من جواهره ﴿حِلْيَةً﴾؛ أي: زينة ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: تتزينون أنتم ونساؤكم بها، والمراد بالحلية المذكور في الآية اللؤلؤ المخلوق في صدفه العائش في البحار، ولا سيما المحيط الهندي، والمرجان الذي ينبت في قيعانها، لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ فهما حلالان للرجال والنساء، ولا حاجة لما تكلَّفه جماعة

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

من المفسرين في تأويل قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقوله: تلبسه نساؤهم، لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبهاً بهن، وقد ورد الشرع بمنعه، لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وتبصر أيها المخاطب السفن حالة كونها ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: جواري ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في البحر؛ أي: لو حضرت أيها المخاطب لرأيت السفن جواري في البحر، تجري جرياً وتشقه شقاً بحيزومها ومقدمها، مقبلة مدبرة، من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك، ومن ثم قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: لتطلبوا فضل الله ورزقه، بركوبه للتجارة، وهذا معطوف على ﴿تستخرجوا﴾ وما بينهما اعتراض، أو معطوف على علةٍ محذوفةٍ؛ أي: لتنتفعوا بذلك، ولتطلبوا من سعة رزقه بركوبه للتجارة، فإن تجارته أربح.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي[1]: تعرفون حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر، لأنه أقوى في باب الإنعام، من حيث إنه جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

والمعنى[2]: أي ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم، إذ جعل ركوب البحر مع كونه مظنة للهلاك سبباً للانتفاع وحصول المعاش، مع عدم الحاجة إلى الحل والترحال والاستراحة والسكون، ولله در القائل:

وَإِنَّا لَفِيْ ٱلدُّنْيَا كَرَكْبِ سَفِيْنَةٍ　　نُظَنُّ وُقُوْفاً وَٱلزَّمَانُ بِنَا يَسْرِيْ

وفي «الشوكاني» هنا: قيل[3]: ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر، من حيث إن فيها قطعاً لمسافةٍ طويلةٍ مع أحمال ثقيلة، من غير مزاولة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

أسباب السفر، بل من غير حركة أصلاً، مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون ما فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس، وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له.

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد الموجبة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى، وآيةٍ أخرى فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ الله سبحانه وتعالى ونصب بقدرته القاهرة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هي[1] كروية الشكل، محلها وسط العالم، وسميت بالأرض لأنها تأرض؛ أي: تأكل أجساد بني آدم.

﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت من غير سبب ولا ظهير ولا معين، كأنهن حصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن في الأرض، فهو تصوير لعظمته وتمثيلٌ لقدرته، وإن كل عسير، فهو عليه يسير.

أي[2]: وجعل فيها رواسي، بأن قال لها كوني فكانت، فأصبحت الأرض وقد أرسيت وأثبتت بالجبال، بعد أن كانت تمور موراً، فلم يدر أحد مم خلقت، من رسا الشيء إذا ثبت جمع راسية والتاء للتأنيث على أنها صفة جبال، كراهية ﴿أَن تَمِيدَ﴾ وتتحرك الأرض ﴿بِكُمْ﴾ أيها العباد الأرضيون، على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والميد: الاضطراب والميل يميناً وشمالاً، يقال: ماد الشيء يميد ميداً إذا تحرك، ومنه سميت المائدة.

والمعنى: كراهية أن تميد بكم وتضطرب، وقد خلق الله الأرض مضطربة لكونها على الماء، ثم أرساها بالجبال، وهي ستة آلاف وست مئة وثلاثة وسبعون جبلاً، سوى التلول على ما قاله الجغرافيون، على جريان عادته في جعل الأشياء منوطة بالأسباب، فالأرض بلا جبال كاللحم بلا عظام، فكما أن وجود الحيوان وجسده إنما يستمسك بالعظم، فكذا الأرض إنما تقوم بالرواسي، ألا ترى أن سطيحاً الكاهن لم يكن في بدنه عظم سوى القفا، لكونه من ماء المرأتين، وكان

---

(١) روح البيان.　　(٢) روح البيان.

لا يستمسك وإنما يخرج في السنة مرة ملفوفاً في خرقة، أو موضوعاً على صحيفة من فضة ﴿و﴾ جعل سبحانه وتعالى في الأرض ﴿أنهاراً﴾ لأن[1] في ﴿ألقى﴾ معنى الجعل، إذ الإلقاء جعل مخصوص، وهي جمع نهر، ويحرك وهو مجرى الماء، وذلك مثل الفرات نهر الكوفة، ودجلة نهر بغداد، وجيحون نهر بلخ، وجيحان نهر أذنة في بلاد الأرمن، وسيحون نهر الهند، وسيحان نهر المصيصة، والنيل نهر مصر، وغيرها من الأنهار الجارية في أقطار الأرض.

وحاصل المعنى: أي[2] وألقى سبحانه وتعالى في الأرض جبالاً ثوابت، لتقر الأرض ولا تضطرب بما عليها من الحيوان، فلا يهنأ لهم عيشٌ بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ وما الأرض إلا كسفينةٍ على وجه البحر، فإذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة.. تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب، وإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة.. استقرت على حال واحدة، فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت.

﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ تجري من مكان إلى آخر رزقاً للعباد، وهي تنبع في مواضع وهي رزق لأهل مواضع أخرى، فهي تقطع البقاع والبراري، وتخترق الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التي سخر لأهلها أن تنتفع بها، كما يشاهد في نهر النيل إذ ينبع من أواسط أفريقية، ويمر بجبال ووهاد في السودان، ويستفيد منه الفائدة الكبرى أهل مصر دون سواها، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير، وذكر الأنهار عقب الجبال، لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال كما في «الخازن» ﴿و﴾ كذلك جعل سبحانه وتعالى في الأرض ﴿سبلاً﴾ وطرقاً مختلفة، نسلك فيها من بلاد إلى بلاد أخرى، وقد تحدث ثلمة في الجبل لتكون ممراً طريقاً، كما قال تعالى في وصف الجبال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا...﴾ الآية، جمع سبيل، وهو الطريق وما وضح.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي تهتدوا بها في أسفاركم إلى مقاصدكم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ومنازلكم، أو إرادة أن تهتدوا بها في أسفاركم، فلعل مستعارة لمعنى الإرادة كما في «روح البيان».

قال بعضهم[١]: خذوا الطريق ولو دارت، واسكنوا المدن ولو جارت، وتزوجوا البكر ولو بارت؛ أي: ولو كانت البكر بوراً؛ أي: فاسدة هالكة لا خير فيها.

﴿و﴾ كذلك جعل سبحانه وتعالى في الأرض ﴿علامات﴾؛ أي: معالم ودلائل، يهتدي ويستدل بها السابلة في النهار، وهم القوم المختلفة على الطريق من جبال كبار وآكام صغار، وسهول ومياه وأشجار وريح، كما قال الإمام الرازي: رأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرقات، حتى إذا ضلوا الطريق، كانت تلك العلامات عوناً لهم، وهدتهم إلى السبيل السوي في البر والبحر.

﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ بالليل في البراري أو البحار، حيث لا علامة غيره، ولعل[٢] الضمير لقريش، فإنهم كانوا كثيري التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم، وصرف النظم عن سنن الخطاب، وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء يهتدون، فالاعتبار بذلك ألزم لهم، والشكر عليه أوجب عليهم، والمراد بالنجم الجنس، أو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وذلك لأنها تعلم بها الجهات ليلاً لأنها دائرة حول القطب الشمالي، فهي لا تغيب، والقطب في وسط بنات نعش الصغرى، والجدي هو النجم السابع من بنات النعش الصغرى، والفرقدان هما النجمان الأولان من النعش الصغرى، وهما من النعش، والجدي من البنات، ويقرب من بنات نعش الصغرى بنات نعش الكبرى، وهي سبعة أيضاً أربعة نعش وثلاث بنات، وبإزاء الأوسط من البنات السهى: وهو كوكب خفي صغير كانت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تمتحن فيه أبصارهم، كذا في «التكملة» لابن عساكر، وفي

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

«الخطيب»: ولما كانت الدلالة من النجم أنفع الدلالات وأعمها، وأوضحها برًّا وبحراً ليلاً ونهاراً.. نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة، لإفهام العموم، لئلا يظن أن المخاطب مخصوص، وليس كذلك فقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾؛ أي: الجنس هم؛ أي: أهل الأرض كلهم، وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها، لفرط معرفتهم بالنجوم، وقدم الجار تنبيهاً على أن دلالة غيره بالنسبة إليه سافلة، وقيل: المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات لنعش، وقيل: الضمير لقريش لأنهم كثير الأسفار للتجارة، مشهورون بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في طرقكم وقبلتكم، ثم كفوا، وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم. قيل: أول من نظر في النجوم والحساب إدريس النبي ـ عليه السلام ـ قال بعض السلف: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان. وفي الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة، قال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينةً للسماء، ومعالم للطرق، ورجوماً للشياطين، فمن قال غير ذلك، فقد تكلم بما لا علم له به.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ بفتح النون وسكون الجيم على أنه اسم جنس، ويؤيد ذلك قراءة ابن وثاب ﴿وبالنجم﴾ بضم النون والجيم، ومراده النجوم فقصره بحذف الواو منه، أو هو جمع، كسقف وسقف، وفي «زاد المسير»: وقرأ[2] الحسن والضحاك وأبو المتوكل ويحيى بن وثاب: ﴿وبالنجم﴾ بضم النون وإسكان الجيم، وقرأ الجحدري ﴿وبالنجم﴾ بضم النون والجيم، وقرأ مجاهد: ﴿وبالنجوم﴾ بواو على الجمع.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

وقال الأخفش[1]: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ كلام منفصل عن الأول.

ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته.. أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ وعبارة «الخازن» هنا: ولما ذكر الله[2] عز وجل من عجائب قدرته، وغرائب صنعته، وبديع خلقه، ما ذكر على الوجه الأحسن، والترتيب الأكمل، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعاً.. قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته، واشتغل بعبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾؛ يعني: هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ يعني هذه الأصنام العاجزة التي لا تخلق شيئاً ألبتةً، لأنها جمادات لا تقدر على شيء، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها، ويترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الله الخالق هذه الأشياء كلها، ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد، فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر، بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكر انتهت.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ للاستفهام[3] الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد ظهور دلائل التوحيد تتصور المشابهة والمشاركة - فمن يخلق هذه المصنوعات العظيمة - وهو الله تعالى - كمن لا يخلق شيئاً منها - وهو الأصنام؟! وعبر عنها بمن التي للعقلاء لأنهم سموها آلهةً فأجريت مجرى العقلاء، أو للمشاكلة لأنه قابله بالخالق وجعله معه كقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾.

وفي «الكرخي»: وهذا من عكس التشبيه، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: أفمن

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

لا يخلق كمن يخلق، فخولف في خطابهم، لأنهم بالغوا في عبادتها، حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة، وصار الخالق فرعاً فجاء الإنكار على وفق ذلك مجاراة على معتقدهم.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون القدرة الباهرة للخالق سبحانه، والعجز الظاهر للأصنام، فلا تذكرون ذلك فتعرفون فساد ما أنتم عليه يا أهل مكة، فإنه بوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

ومعنى الآية: أي أفمن[1] يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم، وينعم هذه النعم العظيمة.. كمن لا يخلق شيئاً ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة؟ أفلا تذكرون هذه النعم، وهذا السطان العظيم، والقدرة على ما شاء من الحكمة، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع ضرًّا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها، وإقراركم لها بالألوهية.

وخلاصة هذا :الإنكار عليهم، ورميهم بالجهل، وسوء التقدير، وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر وإطالة نظر، بل يكفي فيه تنبه العقل ليعلم أن العبادة لا تليق إلا للمنعم بكل هذه النعم، أما هذه الأصنام التي لا فهم لها ولا قدرة ولا اختيار، فلا تنبغي عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها.

قال قتادة في الآية: الله هو الخالق الرازق، لا هذه الأوثان التي تعبد من دون الله، التي لا تخلق شيئاً، ولا تملك لأهلها ضرًّا ولا نفعاً اهـ.

وبعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته، ذكرهم بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى الفائضة عليكم مما لم يذكر ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾؛ أي[2]: لا تطيقوا إحصاءها وحصرها، وضبط عددها ولو إجمالاً، فضلاً عن القيام بشكرها، يقال: أحصاه؛ أي: عده كما في «القاموس»، وأصله

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أن الحساب كان إذا بلغ عدداً وضعت له حصاة، ثم استؤنف العدد.

والمعنى: لا توجد له غاية فتوضع له حصاة، وهذه الجملة تذكير إجمالي بنعمه تعالى، بعد تعداد طائفة منها، وكان الظاهر إيرادها عقبها تكملة لها، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكره أبو السعود.

والمعنى: أي وإن تعدوا نعم الله تعالى لا تضبطوا عددها، فضلاً عن أن تستطيعوا القيام بشكرها، فإن العبد مهما أتعب نفسه في طاعته، وبالغ في شكران نعمه، فإنه يكون مقصراً، فنعم الله تعالى كثيرة، وعقل المخلوق قاصر عن الإحاطة بها، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَغَفُورٌ﴾؛ أي: لستور فيستر عليكم تقصيركم في القيام بشكرها، ويتجاوز عنه، ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: كثير الرحمة بكم، عظيم النعمة عليكم، لا يقطعها عنكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان، بسبب ما أنتم عليه من أصناف الكفر والعصيان، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها، ومن أفظع ذلك وأعظمه جرماً المساواة بين الخالق والمخلوق، وتقديم[1] وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية.

قال بعض الحكماء[2]: إن أي جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان النعم، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم، وهو سبحانه يدبر جسم الإنسان على الوجه الملائم له، مع أنه لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر نعمه عليه، أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أدناها انتهى.

واعلم[3]: أنه لو صرف جميع عمر الإنسان إلى الأعمال الصالحة، وإقامة الشكر.. لما كافىء نعمة الوجود، فضلاً عن سائر النعم، ولله در القائل:

لَــوْ عِــشْــتُ أَلْــفَ عَــامٍ ... فِــيْ سَــجْــدَةٍ لِــرَبِّــيْ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

شُكْراً لِفَضْلِ يَوْمٍ لَمْ أَقْضِ بِالتَّمَامِ
وَالْعَامُ أَلْفُ شَهْرٍ وَالشَّهْرُ أَلْفُ يَوْمِ
وَالْيَوْمُ أَلْفُ حِيْنٍ وَالْحِيْنُ أَلْفُ عَامِ

اللهم ربنا يا ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك فتجاوز عنا، واغفر لنا، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إلا تفعل.. نهلك لتقصيرنا في شكر نعمك، فكيف بما فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك، والانتهاء عن مناهيك.

اَلْعَفْوُ يُرْجَىٰ مِنْ بَنِيْ آدَمَ فَكَيْفَ لاَ يُرْجَىٰ مِنَ الرَّبِّ
فَإِنَّهُ أَرْأَفُ بِيْ مِنْهُمُ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ

وبعد[1] أن أبطل عبادة الأصنام، من قبل أنها لا قدرة لها على الخلق والإنعام، أبطل عبادتها بوجه آخر، وهو أن الإله يجب أن يكون عليماً بالسرِّ والعلانية، وهذه الأصنام جماد لا معرفة لها بشيء، فكيف تجمل عبادتها، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾؛ أي: ما تضمرون في قلوبكم من العقائد والأعمال، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي: وما تظهرونه منهما؛ أي: يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سركم وعلنكم، فحقه أن يتقى ويحذر، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه، أو المعنى: والله يعلم ما تسرون يا كفار مكة من المكر بالنبي ﷺ، وما تعلنون؛ أي: تظهرونه من أذاه.

والمعنى: أي والله سبحانه وتعالى يعلم ما تسرونه في ضمائركم وتخفونه عن غيركم، وما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو محص ذلك كله عليكم، فيجازيكم به يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء منكم بإساءته، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على النعم التي أنعمها عليكم فيها، ما أحصيتم منها وما لم تحصوا.

---

(١) المراغي.

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة، تنبيهاً إلى كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: والأوثان التي تعبدونها، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله، فإن[1] معنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل من تجاوز حدًّا إلى حدٍّ، وتخطى حكماً إلى حكم، والموصول مبتدأ خبره ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء أصلاً؛ أي: ليس من شأنهم ذلك، لأنهم عجزة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية، لأنها ذوات ممكنة مفتقرة في ماهيتها ووجدانها إلى الموجد، قال في «القاموس»: الخالق هو المتفرد في صفاته المبدع للشيء، المخترع على غير مثال سبق، فإن قلت: قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً، فقوله هنا لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية، فما فائدة التكرار؟

قلت: فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئاً فقط، والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئاً وأنهم مخلوقون كغيرهم، فكان هذا زيادةً في المعنى، وهو فائدة التكرار، ذكره في «الخازن».

والمعنى: والآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، فكيف يكون إلٰهاً ما كان مصنوعاً، وغيره هو الذي دبر وجوده؟ ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿أَمْوَٰتٌ﴾ جمع ميت خبر ثان للموصول؛ أي: هي جمادات لا حياة فيها، ولم يقل موات، لأنهم صوروا على شكل من تحله الروح، وفي «القاموس»: الموات كغراب وكسحاب ما لا روح فيه، وأرضٌ لا مالك لها ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ جمع حيّ ضدُّ الميت؛ أي: غير قابلين للحياة، كالنطفة والبيضة فهي أموات على الإطلاق، والمعنى؛ أي: هي أمواتٌ ولا تعتريها الحياة بوجه، فلا تسمع ولا

---

(١) روح البيان.

تبصر ولا تعقل، وفائدة[1] قوله: ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ بيان أن بعض ما لا حياة فيه قد تدركه الحياة بعد، كالنطفة التي ينشئها الله تعالى حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، أمَّا هذه الأصنام من الحجارة والأشجار، فلا يعقب موتها حياة، وذلك أتم في نقصها.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾؛ أي: وما تدري هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله متى تبعث عبتدها، فالضمير في يشعرون للأصنام، وفي يبعثون لعبدتها، وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يبعثون للآلهة؛ أي: وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام، ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها، فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذه قوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولا يخفى ما في ذلك من التهكم بها، لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهي الاستحالة لدى كل أحد، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير، كما أن فيه تهكماً بالمشركين من قبل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف، لأنه جزاء على العمل من خير أو شر، وأن معرفة وقته لا بد منه في الألوهية.

وقرأ الجمهور[2] بالتاء من فوق في: ﴿تُسرون﴾ و﴿تعلنون﴾ و﴿تدعون﴾، وهي قراءة مجاهد والأعرج وشيبة وأبي جعفر وهبيرة عن عاصم، على معنى قل لهم، وقرأ عاصم في مشهوره ﴿يَدْعون﴾ بالياء من تحت، وبالتاء في السابقتين، وقرأ الأعمش وأصحاب عبد الله ﴿يَعْلَمُ الذي تُبدون وما تكتمون﴾ و﴿تدعون﴾ بالتاء من فوق في الثلاثة، وقرأ طلحة ﴿ما يُخفون﴾ و﴿ما يُعلنون﴾ و﴿تدعون﴾ بالتاء من فوق، وهاتان القراءتان مخالفتان لسواد المصحف، والمشهور: ما روي عن الأعمش وغيره، فوجب حملها على التفسير لا على أنها قرآنٌ، وقرأ محمد اليمانيُّ ﴿يُدْعون﴾ بضم الياء وفتح العين مبيناً للمفعول، وقرأ أبو عبد الرحمن

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

﴿إِيَّان﴾ بكسر الهمزة، وهي لغة قومه سليم.

ولَّما أبطل[1] طريق عبدة الأصنام، وبين فساد مذهبهم.. صرح بالمدعى، ولخص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾؛ أي: معبودكم الذي يستحق العبادة، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: معبود واحد، لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكاً سواه، ثم ذكر الأسباب التي لأجلها أصر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ وأحوالها من البعث والجزاء وغير ذلك؛ أي: فالذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ أي: جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته، وجزيل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلاَّ له، والألوهية ليست لشيء سواه، فلا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد، تقليداً لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به، كما حكى سبحانه عنهم قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والمعنى؛ أي: وهم قوم لا يزال الاستكبار عن اعتراف الوحدانية والتعظيم عن قبول الحق دأبهم، كما أن الإنكار سجيتهم.

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة مركبة من كلمتين حرفٍ وفعلٍ، فقد ركبت لا مع جرم وجعل كلمةً واحدة، وتلك الكلمة مصدر بمعنى حقًّا، أو فعل بمعنى حقَّ وثبت، وقوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ فاعل بفعل ذلك المصدر المأخوذ من لا جرم، وذلك المصدر منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: حقَّ حقًّا وثبت ثبوتاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ عنك من أقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من ذلك؛ أي: حق وثبت أن الله يعلم ما

(١) المراغي.

يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك، واستكبارهم على الله تعالى، ويعلم ما يعلنون ويظهرون من كفرهم به وافترائهم عليه، ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيده، وعن الاستجابة لأنبيائه ورسله، بل يبغضهم أشد البغض وينتقم منهم أعظم الانتقام.

وقرأ عيسى الثقفي: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف والقطع عما قبله، والمعنى[1]: أنه لا يحب جنس المستكبرين، سواء كانوا مشركين أو مؤمنين، والاستكبار رفع النفس فوق قدرها وجحود الحق، والفرق بين المتكبر والمستكبر أن التكبر عام لإظهار الكبر الحق، كما في أوصاف الله تعالى، فإنه جاء في أسمائه الحسنى الجبَّار المتكبر، وفي قوله عليه السلام: «التكبُّر على المتكبر صدقةٌ»، ولإظهار الكبر الباطل كما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، والاستكبار إظهار الكبر باطلاً كما في قوله تعالى في حق إبليس ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ ومنه ما في هذا المقام.

أخرج مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمص الناس».

وفي «الصحيح»: «إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم» وقال العلماء: كل ذنب يمكن ستره وإخفاؤه إلا التكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله ذكره القرطبي، وحكى أنه[2] افتخر رجلان عند موسى ـ عليه السلام ـ بالنسب والحسب، فقال أحدهما: أنا فلان

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ابن فلان حتى عد تسعةً، فأوحى الله تعالى إليه قل له: هم في النار، وأنت عاشرهم، وأنشد بعضهم:

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعَاً فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِيْ عِزٍّ وَحِرْزٍ وَرِفْعَةٍ فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ

فعليك بالتواضع وعدم الفخر على أحدٍ، فإن التواضع باب من أبواب الجنة، والفخر باب من أبواب النار، واللازم فتح أبواب الجنان وسد أبواب النيران، وتحصيل الفقر المعنوي الذي ليس الفخر في الحقيقة إلا به، فإنه لا يليق المرء بدولة المعنى ورياسة الحال وسلطنة المقام إلا بتحلية ذاته بحلية التواضع وزينة الفناء، اللهم اجعلنا من أهل التواضع لا من أرباب التملق، واجعلنا من أصحاب التحقق بعد التخلق.

الإعراب

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ②﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿لاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه سبحاناً، أو سبحوه سبحاناً، والجملة مستأنفة، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة على جملة التسبيح، ﴿عَمَّا﴾ ﴿عَنْ﴾: حرف جر، ﴿ما﴾ اسم موصول، أو موصوفة في محل الجر بـ ﴿عَنْ﴾، أو ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عمَّا يشركونه به من الأصنام، أو صلةٌ ﴿ما﴾ المصدرية، تقديره: عن إشراكهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أو بـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ على سبيل التنازع، ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾،

والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلرُّوحِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: حالة كونهم مُتلَبسِينَ بالروح والوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور حالٌ من ﴿الرُّوح﴾ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُنَزِّلُ﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: على من يشاؤه، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الموصول أو من العائد المحذوف. ﴿أَنْ﴾: مفسرة بمعنى: أي، ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة للروح، بمعنى الوحي الدال على القول، وإن شئت قلت: ﴿أَنْ﴾: مصدرية، ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية مبني على حذف النون، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من ﴿الروح﴾ تقديره: ينزل الملائكة بالروح من أمره، ينزل الملائكة بإنذارهم للناس، ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: ضمير الشأن في محل النصب، ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: لا إله موجود، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَنَا۠﴾: ضمير رفع منفصل في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ تقديره: أن أنذروا عدم كون إله غيري. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿الفاء﴾[1]: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر، من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء، وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له في الألوهية، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿اتقوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويحتمل كون الفاء تفريعية كما في «الشهاب».

---

(١) الفتوحات.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول به، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف، تقديره: خلقاً متلبساً بالحق والحكمة، لا بالعبث، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: حالة كونه محقاً، ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: خلق السموات حالة كونه متعالياً عن النقائص، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾، وجملة ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ صلةٌ لـ ﴿ما﴾، أو صفةٌ لها، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية، كما مر آنفاً ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿إذا﴾: حرف مفاجأة ﴿هُوَ خَصِيمٞ﴾: مبتدأ وخبر ﴿مُّبِينٞ﴾: صفة ﴿خَصِيمٞ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾: مفعول بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وأوجد الأنعام، والجملة مستأنفة، ﴿خَلَقَهَاۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة، لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿خَلَق﴾ ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿دِفۡءٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب حالٌ من ﴿الأنعام﴾، أو من الضمير المنصوب، ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: معطوف على ﴿دِفۡءٞ﴾ ﴿وَمِنۡهَا﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾. ﴿وَلَكُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، أو حال من ﴿جَمَالٌ﴾، ﴿جَمَالٌ﴾: مبتدأ مؤخر،

والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾، ﴿حِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، وجملة ﴿تُرِيحُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حِينَ﴾، والظرف متعلق بـ ﴿جَمَالٌ﴾ لأنه بمعنى تجمل، أو صفة له، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ معطوف على ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الأنعام﴾، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تحمل﴾. ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه وخبره ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿بَلَدٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الضمير المستكن في ﴿بَالِغِيهِ﴾ مشقوقاً عليكم. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رَّحِيمٌ﴾: صفة ﴿رؤوف﴾، أو خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ معطوفات على ﴿الأنعام﴾. ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿تركبوها﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿خَلَق﴾؛ أي: وخلق الخيل والبغال والحمير لركوبكم إياها، ﴿وَزِينَةً﴾: مفعول[1] مطلق لفعل محذوف، معطوف على ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾؛ أي: وخلقها لتركبوها، ولتتزينوا بها زينة، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: وللزينة، وقيل التقدير: وجعلها زينةً، ويقرأ بغير واو، وفيه الوجوه المذكور، وفيها وجهان آخران:

(١) العكبري.

أحدهما أن يكون مصدراً في موضع الحال من الضمير في ﴿تركبوا﴾.

والثاني: أن تكون حالاً من الهاء؛ أي: لتركبوها تزيناً بها، ﴿وَيَخْلُقُ مَا﴾: فعل ومفعول، وفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط المفعول المحذوف؛ أي: ما لا تعلمونه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: وعلى الله بيان السبيل القصد وهو الإسلام، والقصد بمعنى المقصود كما في «الجَمَل»، ﴿وَمِنْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿جَآئِرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وهو صفة لموصوف محذوف؛ أي: ومنها سبيل جائر، والسبيل: تذكر وتؤنث، ﴿وَلَوْ﴾: حرف شرط، ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾، ﴿هداكم﴾: فعل ومفعول، وفعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير المفعول، والجملة جواب ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة، ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضي، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿لَّكُم﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾ أو صفة لـ ﴿مَآءً﴾، ﴿مِّنْهُ﴾: خبر مقدم، ﴿شَرَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ ﴿مَآءً﴾ أو مستأنفة و﴿من﴾ في قوله: ﴿منه﴾ ابتدائية، ويصح أن يكون ﴿لَّكُم﴾ خبراً مقدماً لـ ﴿شَرَابٌ﴾، ﴿وَمِنْهُ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر كما في «روح البيان» و﴿مِنْ﴾ فيه

تبعيضية على هذا الوجه، ﴿وَمِنْهُ﴾: خبر مقدم، وهي هنا سببية، ﴿شَجَرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، ﴿تُسِيمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صفة لـ ﴿شَجَرٌ﴾.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يُنۢبِتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿يُنۢبِتُ﴾ وكذا تعلّق به قوله ﴿بِهِ﴾، أي: بسببه، ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾: معطوفات على الزرع. ﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿مِنۡ﴾ زائدةٌ على رأي الكوفيين، ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾، أو ﴿وَمِن﴾ اسم بمعنى بعض معطوف على ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ على رأي البصريين، ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ مضاف إليه كذا في «روح البيان». ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأٓيَةٗ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: جار ومجرور صفةٌ ﴿لَأٓيَةٗ﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة لـ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض، وفعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّيۡلَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: معطوفات على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ عل قراءة النصب معطوف على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ أيضاً، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾: حال من الجميع، ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾: متعلق بـ ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، وعلى قراءة الرفع ﴿النجوم﴾: مبتدأ، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم لـ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: صفة لـ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ صفة لـ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب معطوفة على ﴿ٱلَّيْلَ﴾ على ما ذكره الزمخشري، أو منصوب بفعل محذوف تقديره: وخلق لكم ما ذرأ لكم، على ما ذكره أبو البقاء، ﴿ذَرَأَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، وكذا يتعلّق به قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وما ذرأ لكم في الأرض ﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال من ما الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾: فاعل ﴿مُخْتَلِفًا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأٓيَةً﴾: اسمها، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَأٓيَةً﴾، ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: صفة لـ ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿تأكلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تأكلوا﴾ و﴿من﴾ لابتداء الغاية، ﴿لَحْمًا﴾: مفعول به، ﴿طَرِيًّا﴾: صفة ﴿لَحْمًا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لأكلكم منه، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تأكلوا﴾، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به، ﴿حِلْيَةً﴾: مفعول به، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صفة لـ ﴿حِلْيَةً﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، ﴿مَوَاخِرَ﴾: حال من ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ لأن رأى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾ والجملة الفعلية معترضة، لاعتراضها بين

المعطوف الذي هو ﴿لتبتغوا﴾ والمعطوف عليه الذي هو ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلّ﴾ معطوفة على جملة ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ لأنها تعليلية.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَأَلْقَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿سَخَّرَ﴾، أو مستأنفة، ﴿رَوَٰسِىَ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: جبالاً رواسي، ولم ينون لأنه اسم لا ينصرف، لكونه على زنة مفاعل، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَمِيدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر الواقع مفعولاً لأجله، والتقدير: وألقى في الأرض رواسي خشية ميدها وتحركها بكم، ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾: معطوفان على ﴿رَوَٰسِىَ﴾، ولكنه على تأويل ﴿ألقى﴾ بمعنى خلق، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: معطوف على ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أيضاً، ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَهْتَدُونَ﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتتصور المشابهة والمشاركة بين الخالق وغيره بعد ظهور الدلائل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول،

﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، ﴿لَّا يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي داخلةٌ على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: ألا تلاحظون القدرة الباهرة للخالق سبحانه والعجز الظاهر للأصنام فلا تذكرون ذلك، فتعرفون فساد ما أنتم عليه، كما مرَّ في مبحث التفسير.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن تعدوا نعمة الله﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، مجزوم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾: ناف وفعل وفاعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَغَفُورٌ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رَّحِيمٌ﴾: صفة ﴿غفور﴾ أو خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب مفعول به، لأنَّ علم هنا بمعنى عرف، ﴿تُسِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يعلم ما تسرون، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾، ويجري فيه من الإعراب ما جرى فيه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والأصنام الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله في دعائهم إلى

الأصنام، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُخْلَقُونَ﴾ خبر أول له، ﴿أَمْوَاتٌ﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة مؤكدة لما قبلها، ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾: صفة مؤكدة لـ ﴿أَمْوَاتٌ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة: ﴿ما﴾: نافية، وجملة ﴿يَشْعُرُونَ﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿يُخْلَقُونَ﴾ على كونها خبراً ثالثاً لهم، ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح، والظرف متعلق بـ ﴿يُبْعَثُونَ﴾، ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في موضع نصب بـ ﴿يَشْعُرُونَ﴾، لأنه معلق عنها باسم الاستفهام، إذ معناه العلم كما ذكره في «البحر».

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَاحِدٌ﴾: صفة لازمة له والجملة مستأنفة، ﴿فَالَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، و﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: متعلق به، ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: مبتدأ ثان، ﴿مُنْكِرَةٌ﴾: خبر له، وجملة الثاني خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، لأن المضاف جزء من المضاف إليه.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾: اسم مركب تركيب خمسة عشر، وبعد التركيب صار معناها معنى فعلٍ، وهو حق، فإذاً نقول في إعرابها: ﴿لَا جَرَمَ﴾: فعل ماض بمعنى حق مبني على الفتح، ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿لَا جَرَمَ﴾، والتقدير: حق وثبت علم الله، ما يسرون وما يعلنون ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يُسِرُّونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يسرونه، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ معطوف على ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة

مسوقة لتعليل ما قبلها.

وفي «الشهاب»: في هذه اللفظة أعني ﴿لَا جَرَمَ﴾ خلاف بين النحاة، فذهب الخليل وسيبويه والجمهور إلى أن ﴿جرم﴾ اسم مركب مع ﴿لا﴾ تركيب خمسة عشر، وبعد التركيب صار معناها معنى فعلٍ، وهو حق، وما بعدها مرتفع بالفاعلية بمجموع لا جرم لتأويله بالفعل، أو بمصدر قائم مقامه، وهو حقاً على ما ذكره أبو البقاء، وقيل: هو مركب أيضاً ـ كلا رجل ـ وما بعدها خبر، ومعناها لا محالة ولا بد، وقيل: إنه على تقدير جارٍّ؛ أي: من أن الله إلخ انتهى.

وقيل: إن لا نافية لكلام مقدر تكلم به الكفرة، وجرم بمعنى حق ووجب اهـ: «زاده»، وقد تقدم لها مزيد بسط في سورة هود فراجعه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قرب ودنا، ويقال في مجرى العادة لما يجب وقوعه: قد أتى وقد وقع، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيؤها: جاءك الغوث، و﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: عذابه للكافرين أو يوم القيامة.

﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ الاستعجال طلب الشيء قبل وقته، كما في «الخازن»، وهو من استفعل السداسي.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ والروح: الوحي، وهو قائم في الدين مقام الروح من الجسد، فهو محيي القلوب التي أماتها الجهل.

﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ والإنذار[1] الإعلام، خلا إنه مختص بإعلام المحذور، من نذر بالشيء من باب فرح إذا علمه فحذره، وأنذره بالأمر إنذاراً إذا أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه، كذا في «القاموس»؛ أي: أعلموا الناس أيها الأنبياء.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: خافوا عقابي، لمخالفة أمري وعبادة غيري.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ أي: غير آدم، ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ والنطفة القطرة من الماء،

---

(١) روح البيان.

يقال: نطف رأسه ماء؛ أي: قطر وقيل هي الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل، اهـ «سمين».

وفي «المصباح» نطف[1] الماء ينطف ـ من باب قتل ـ سال، وقال أبو زيد: نطفت القربة تنطف وتنطف نطفاناً إذا قطرت، والنطفة ماء الرجل والمرأة، وجمعها نطف ونطاف، مثل برمة وبرم وبرام، والنطفة أيضاً الماء الصافي قل أو أكثر، ولا فعل للنطفة؛ أي: لا يستعمل لها فعل من لفظها اهـ.

وفي «المختار»: أن نطف من باب قتل وضرب اهـ، والمراد[2] بالنطفة هنا مادة التلقيح.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ والخصيم بمعنى المخاصم، كالخليط بمعنى المخالط، والعشير بمعنى المعاشر، والمراد به هنا المنطيق المجادل عن نفسه المنازع للخصوم، والمبين المظهر للحجة، أو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال الجوهري: والنعم واحد الأنعام، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل اهـ. الدفءُ: السخانة، والمراد به هنا ما يستدفأ به من الأكسية المتخذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها.

﴿وَمَنَافِعُ﴾ والمراد بها درها وركوبها، والحرث بها، وحملها للماء ونحو ذلك.

﴿جَمَالٌ﴾ والجمال ما يتجمل به ويتزين، والجمال الحسن، والمعنى هنا: لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها، قال في «القاموس»: الجمال الحسن في الخلق والخلق، وتجمل: تزين، وجمله: زينه، وفي الحديث[3]: «جمال الرجل فصاحة لسانه»، وفي حديث آخر: «الجمال صواب المقال، والكمال حسن الفعال».

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ من الإراحة، وهي رد المواشي بالعشي إلى مراحها؛ أي: مأواها بالليل؛ أي: تردونها بالعشي؛ أي: آخر النهار من المرعى إلى مراحها

---

(١) المصباح.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ومباركها، يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المراح بضم الميم، وهو موضع إراحة الإبل والبقر والغنم.

﴿تَسْرَحُونَ﴾؛ أي: تخرجونها غدوة؛ أي: أول النهار من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها، من سرح الراعي الإبل إذا رعاها وأرسلها في المرعى، من باب قطع وخضع، وفي «المصباح»: سرحت الإبل سرحاً من باب نفع وسروحاً أيضاً، رعت بنفسها وسرحتها يتعدى ولا يتعدى، وسرَّحتها بالتثقيل مبالغة وتكثير اهـ.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ والأثقال[1] جمع ثقل بفتح الثاء والقاف، كأسباب وسبب، أو جمع ثقل بكسر فسكون كحمل وأحمال، وهو متاع المسافر من طعام وغيره وما يحتاج إليه من آلاته، وسُمِّي ثقلاً لأنه يثقل الإنسان حمله، وقيل المراد أبدانهم.

﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ والشق بالكسر والفتح الكلفة والمشقة، وشق الأنفس مشقتها وتعبها، وقال الجوهري الشق المشقة ومنه قوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾، وحكى أبو عبيدة: بفتح الشين وهما بمعنًى، ويجوز أن يكون المفتوح مصدراً من شققت عليه أشق شقاً، والمكسور بمعنى النصف، يقال أخذت شق الشاة وشقة الشاة، ويكون المعنى على هذا في الآية؛ أي: لم تكون بالغيه إلاّ بذهاب نصف النفس من التعب.

﴿وَالْخَيْلَ﴾ اسم جنس لا واحد له من لفظه، بل من معناه وهو فرس، وقيل جمع خائل كضأن جمع ضائن، وسميت خيلاً لاختيالها في مشيها.

﴿وَالْبِغَالَ﴾ جمع بغل، وهو متولد بين الخيل والحمار.

﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ والقصد الاستقامة، يقال سبيل قصدٌ وقاصدٌ إذا أداك إلى مطلوبك، وفي «السمين»: والقصد مصدر يوصف به، فهو بمعنى قاصد، يقال سبيل قصد وقاصد؛ أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه اهـ.

---

(١) روح البيان.

﴿جَآئِرٌ﴾؛ أي: مائل عن المحجة منحرف عن الحق.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ والمراد بالشجر هنا مطلق النبات، سواء كان له ساق أم لا اهـ «شيخنا»، فالشجر في الأصل ماله ساق قوي، والنجم ما لا ساق له قوي.

﴿تُسِيمُونَ﴾؛ أي: ترعون دوابكم من أسام الماشية، ويقال سومها، إذا جعلها ترعى، وفي «الخازن»: تقول أسمت السائمة إذا خليتها ترعى، وسامت إذا رعت حيث شاءت اهـ ويقال: سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة، وأسمتها؛ أي: أخرجتها إلى الرعي، فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة، وأصل السوم الإبعاد في المرعى، قال أخذ من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها.

﴿ٱلنَّخِيلِ﴾ والنخل بمعنى واحد، وهو اسم جمع والواحدة نخلة كالثمرة والثمر.

﴿الأعناب﴾ جمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً خلقهم، فهو ذارىء، ومنه الذرية وهي نسل الثقيلين.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾؛ أي: أصنافه ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وفي «السمين»: الطراوة ضد اليبوسة؛ أي: غضًا طريًا، ويقال طريت كذا؛ أي: جددته اهـ، وفي «المصباح»: طرو الشيء بالواو وزان قرب فهو طرىء؛ أي: غض بين الطراوة، وطرىء وزان تعب، فهو طرىء بين الطراوة، وطرأ فلان علينا يطرأ مهموزاً بفتحتين طروًا أطلع، فهو طارىء، وطرأ الشيء يطرأ أيضاً طرآناً مهموزاً حصل بغتة فهو طارىء، وأطريت العسل بالياء طراء عقدته، وأطريت فلاناً مدحته بأحسن ما فيه، ويقال بالغت في مدحه، وجاوزت الحد، وقال السرقسطي: في باب الهمز والياء: أطرأته مدحته وأطريته أثنيت عليه اهـ.

﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وفي «المصباح»: حلي الشيء بعيني وبصدري يحلى ـ من باب تعب ـ حلاوةً، إذا حسن عندي وأعجبني، وحليت المرأة حلياً ساكن اللام

لبست الحلي، وجمعه حليٌّ، والأصل على فعول مثل فلس وفلوس، والحلية بالكسر الصفة، والجمع حلي مقصوراً، وتضم الحاء وتكسر، وحلية السيف زينته، قال ابن فارس: ولا تجمع، وتحلت المرأة لبست الحلي واتخذته، وحليتها بالتشديد ألبستها الحلي واتخذته لها لتلبسه، وحليت السويق جعلت فيه شيئاً حلواً حتى حلا اهـ.

﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها، ومخر السفينة شقها الماء بصدرها، قال الجوهري: مخر السابح إذا شق الماء بصدره، ومخر الأرض شقها للزراعة، قال ابن جرير: المخر في اللغة صوت هبوب الريح ولم يقيد بكونه في ماء اهـ.

وفي «المختار»: مخرت السفينة من باب قطع ودخل إذا جرت تشق الماء مع صوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾؛ أي: جواري.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت، يقال رسا يرسو إذا ثبت وأقام.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: أن تميل بكم، وفي «المختار»: ماد الشيء يميد ميداً من باب باع، ومادت الأغصان والأشجار تمايلت، وماد الرجل تبختر اهـ.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ جمع علامة ففي «المصباح»: وأعلمت على كذا بالألف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة، وأعلمت الثوب جعلت له علماً من طراز وغيره، وهو العلامة، وجمع العلم أعلام مثل سبب وأسباب، وجمع العلامة علامات، وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له أمارة يعرفها اهـ.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يقال شعر به كنصر وكرم شعراً وشعوراً علم به وفطن له وعقله، وأيان مركب من أي التي للاستفهام وأن بمعنى الزمان، فلذلك كان بمعنى متى؛ أي سؤالاً عن الزمان كما كان أين سؤالاً عن المكان، فلما ركِّبا وجعلا اسما واحداً بنيا على الفتح كبعلبك، ذكره في «روح البيان».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم وحطاً لدرجتهم عن رتبة الخطاب.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ حيث شبه الوحي بمعنى الموحى به الذي من جملة التوحيد بالروح، بجامع أن الروح به إحياء الجسد، والوحي به إحياء القلوب من الجهالات، فاستعير له لفظ الروح على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ مخاطبةً لهم بما هو المقصود، وإيماء إلى أن التقوى هي المقصود من الإنذار.

ومنها: التعبير بآخر الأمر عن أوله في قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ويسمى مجاز الأول كقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ فيقضي أن المخاطب مطلق بني آدم، المندرجين تحت الإنسان تأمل.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيكون القصر فيه إضافياً إلى سائر الحيوانات، حتى لا ينتقض بمثل الخبز ونحوه من المأكولات المعتادة.

ومنها: الطباق بين: ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾.

ومنها: صفة المبالغة في قوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها: الإسناد إلى العام في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾؛ أي: الأنعام مراداً به الخاص وهو الإبل.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ لأنه حقيقة في النصف والجانب، فاستعير للمشقة والتعب، كما تقول: لن تناله إلا بقطعة من كبدك على المجاز.

ومنها: الإجمال بعد التفصيل في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ لأن المراد بالشجر هنا مطلق النبات سواء كان له ساق أم لا، وهو حقيقة فيما كان له ساق.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ لما فيه من إسناد حال السالك وهو القصد إلى السبيل، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، كما ذكره في «روح البيان».

ومنها: تنكير ماء في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ للدلالة على التبعيض، أي: بعض الماء، فإنه لم ينزل من السماء الماء كله.

ومنها: الطباق بين: ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

ومنها: التفنن في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: التلويح في قوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به السمك، عبر عنه باللحم مع كونه حيواناً، للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل كما في «الإرشاد»، وللإيذان بعدم احتياجه للذبح كسائر الحيوانات غير الجراد.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: يلبسها نساؤكم لكم، فهي حلية لكم، بهذا الاعتبار كذا قالوا.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ لأن الإلقاء حقيقة في الرمي والطرح، فاستعاره للخلق والوضع والجعل، فكأن الجبال الرواسي حصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن في الأرض، فهو تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته، وإن كل عسير فهو عليه يسير.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لأن لعل فيهما مستعار لمعنى الإرادة كما في «روح البيان».

ومنها: الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لإفهام العموم لئلا يظن أن المخاطب مخصوص وليس كذلك، والمعنى: بالنجم هم؛ أي: أهل الأرض كلهم لا خصوص قريش.

ومنها: التشبيه المقلوب في قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لأن حق العبارة أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق.

ومنها: الاستفهام الإنكاري فيه.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات وصفة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام، ومثله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾...﴾

الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل[1] التوحيد، ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام.. أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها، وبين أنهم ليسوا ببدع في هذه المقالة، فقد سبقتهم أمم قبلهم، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، فأهلكهم في الدنيا، وسيخزيهم يوم القيامة بما فعلوا، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء، ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هي.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ...﴾ الأيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] بين أحوال المكذبين بالله ورسوله، الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وتراهاتهم، ونقلها للناس، وادعى أنها من رب الأرض والسموات، وذكر ما سينالهم من النكال والوبال، إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصي.. أردف ذلك بوصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً، وذكر ما أعده لهم من الخير والسعادة في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً وفاقاً لما أحسنوا من العمل، وأتوا به من جميل الصنع.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم أساطير الأولين، ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم، ثم وَعَدَ من وصف القرآن بالخيرية.. بين أن أولئك الكفرة لا يرتدعون من حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد، أو أمر الله بعذاب الاستئصال.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

طعن المشركين في القرآن بنحو قولهم إنه أساطير الأولين، وإنه قول شاعر، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به.. قفى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضةً أرواحهم، أو يأتيهم عذاب الاستئصال، فلا يبقى منهم أحداً، ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم، فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد، أو أتاهم عذاب الاستئصال، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسل الله تعالى.. قفى على ذلك ببيان أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة، وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا فلا فائدة من إرسالهم، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا... لكان الأمر كما أراد، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم، لا من عند الله تعالى.

وقد رد الله عليهم مقالهم، بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة، وما على الرسل إلا التبليغ، وليس عليهم الهداية، ولم يترك الله أمةً دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته، وينهاهم عن الضلال والشرك، فمنهم من استجاب دعوته، ومنهم من أضلَّه الله على علم، فحقت عليهم كلمة ربك، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين، الذين أخذوا بذنوبهم، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئاً، فإن الله لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه،

---

(١) المراغي.

كما لا يجد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حجتهم، وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعاً لأنا مجبورون فيما نفعل، وأنه لو شاء الله أن نهتدي لكان دون حاجة إلى إرسال الأنبياء، ورده عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هي في تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولا يلزمون أحداً بإيمانٍ ولا كفرٍ...أردف هذا بشبهة أخرى لهم، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب، ولكن العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة، ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب.. امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب، فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعداً حقاً، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب، والعاصي من المطيع، وأيضاً فإيجاده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلةٍ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته، وليس لقدرته دافعٌ ولا مانعٌ.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الآية، قيل سبب نزولها[2]: أن النضر بن الحارث سافر من مكة إلى الحيرة، وكان قد اتخذ كتب التواريخ والأمثال، فجاء إلى مكة فكان يقول إنما يحدث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما يتكلم به:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) لباب النقول.

والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا، فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ...﴾ الآية.

وأخرج[1] هؤلاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: سبَّني ابن آدم، ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، وأما سبه إياي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ روي أنه اجتمعت[2] قريش فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان، إذا كلم رجلاً.. ذهب بقلبه، فانظروا ناساً من أشرافكم، فابعثوهم في كل طريق مكة على رأس ليلة أو ليلتين، فمن جاء يريده.. ردوه عنه، فخرج ناس منهم من كل طريق، فكان إذا جاء وافد من القوم ينظر ما يقول محمد فنزل بهم.. قالوا له: هو رجل كذاب ما يتبعه إلا السفهاء والعبيد، ومن لا خير فيه، وأما أشياخ قومه وأخيارهم فهم مفارقوه، فيرجعه أحدهم، وإذا كان الوافد ممن هداه الله.. يقول: بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم.. رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل فأنظر ما يقول، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ما يقول لهم فيقولون خيراً، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين المستكبرين المقتسمين طرق مكة من قبل الوفود، أو وفود الحاج في الموسم. ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: أي شيء أنزل ربكم على محمد ﷺ، أو ما الذي أنزل ربكم على محمد ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أولئك المشركون المقتسمون طرق مكة للوافدين الذين سألوهم عن محمد وعما أنزل عليه: ﴿أَسَاطِيرُ

(1) المراغي. (2) روح البيان.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم على محمد هو أساطير الأولين؛ أي: أحاديث الأمم الماضية وأخبارهم العاطلة، وأكاذيبهم الباطلة، التي غرر بهم الناس واستمال قلوبهم بها، وليس من الإنزال في شيء، وليس فيه شيء من العلوم والحقائق.

وقرأ الجمهور[1]: برفع ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ فاحتمل أن يكون التقدير: المذكور أساطير أو المنزل أساطير، وقرىء شاذاً: ﴿أساطير﴾ بالنصب على معنى ذكرتم أساطير، أو أنزل أساطير، على سبيل التهكم والسخرية، لأن التصديق بالإنزال ينافي أساطير، وهم يعتقدون أنه ما نزل شيءٌ، ولا أنَّ ثم منزلٌ.

والمعنى: أي[2] وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين أي شيء أنزله ربكم؟ قالوا: لم ينزل شيئاً إنما الذي يتلىٰ علينا أساطير الأولين؛ أي: هو مأخوذ من كتب المتقدمين، ونحو الآية قوله حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ وكانوا يفترون على الرسول ﷺ أقوالاً مختلفة، فتارة يقولون: إنه ساحرٌ، وأخرى إنه شاعر أو كاهن، وثالثة إنه مجنون، ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي كما حكى عنه الكتاب الكريم:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾؛ أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا معتقدين صحة قوله، وصدق رأيه، قبحهم الله تعالى.

وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة، ينفرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج يقولون هذه المقالة، ثم بين عاقبة أمرهم فقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾؛ أي: قالوا[3] هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم وآثامهم الخاصة بهم، وهي أوزار ضلالهم ﴿كَامِلَةً﴾ لم يكفر منها شيءٌ بمصيبة أصابتهم في الدنيا،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب، كما يكفر بها أوزار المؤمنين، فإن ذنوبهم تكفر عنه من الصلاة إلى الصلاة، من رمضان إلى رمضان، ومن الحج إلى الحج، وتكفر بالشدائد والمصائب؛ أي: المكروهات من الآلام والأسقام، والقحط حتى خدش العود وعثرة القدم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف ليحملوا، فاللام[1] في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ للتعليل كما فسرنا، وقيل إن اللام هي لام العاقبة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقيل هي لام الأمر والأوزار جمع وزرٍ: الآثام.

قال الإمام الرازي: وقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ يدل[2] على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين، إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل.. لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفاء بهذا التكميل فائدة، ﴿و﴾ ليحملوا ﴿من أوزار الذين يضلونهم﴾؛ أي[3]: بعض أوزار من ضل بإضلالهم، وهو وزر الإضلال والتسبب للضلال، لأنهما شريكان، هذا يضله وهذا يطاوعه، فيتحاملان الوزر، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى.. كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة.. كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» أخرجه مسلم، ومعنى الآية والحديث[4]: أن الرئيس أو الكبير إذا سنَّ سنة حسنة أو قبيحة فتبعه عليها جماعة، فعملوا بها.. فإن الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه، حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء، لأن ذلك ليس بعدلٍ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

قال الواحديُّ: ولفظة ﴿مِنْ﴾[5] في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) الفخر الرازي.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.
(٥) الواحدي.

ليست للتبعيض؛ لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار، وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، ولكنها للجنس؛ أي: وليحملوا من جنس أوزار الأتباع.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل؛ أي: يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال، وبما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلة الإضلال، أو من المفعول؛ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلالٌ.

وفائدة[1] التقييد بهذا الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذوي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذراً، إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل، ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿سَآءَ﴾ من أفعال الذم بمعنى بئس، والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: بئس شيئاً يزرونه؛ أي: يحملونه، والمخصوص بالذم فعلهم ففيه وعيدٌ وتهديد لهم.

واعلم: أنه لا يحمل أحدٌ وزر أحد، إذ كل نفس تحمل ما اكتسب هي، لا ما كسبت غيرها، إذ ليس ذلك من مقتضى الحكمة الإلهية، وأما حمل وزر الإضلال فهو حمل وزر نفس، لأنه مضاف إليه لا إلى غيره، فعلى العاقل أن يجتنب من الضلال والإضلال في أمور الشريعة، فمن حمل القرآن على الأساطير، ودعا الناس إلى القول بها، فقد ضل وأضل، وكذا في جميع أمور الشريعة.

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدةٌ إليهم، ووبال ذلك لاحقٌ بهم، كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسلهم، فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل كفار قريش، والمكر الخديعة؛ إي: قد مكر أهل مكة بمحمد ﷺ، كما مكر الذين من قبلهم بأنبيائهم، وصار المكر سبباً لهلاكهم لا لهلاك غيرهم، لأن من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ، بأن مكرهم سيعود

(١) روح البيان.

عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم.

قال في «المدارك»: الجمهور عل أن المراد به ـ نمروذ بن كنعان ـ وكان من أكبر ملوك أهل الأرض في زمن إبراهيم عليه السلام، حين بنى الصرح ببابل، وكان قصراً عظيماً طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه فرسخان ليقاتل عليه من في السماء بزعمه، ويطلع على إله إبراهيم عليه السلام، فهبت ريح فقصفت وألقت رأسه في البحر، وخر عليهم الباقي فأهلكهم وهم تحته، ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع، فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت بابل، وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية، وهذا قول مردود، لأن التبلبل يوجب الاختلاط والتكلم بشيء غير مستقيم، فأما أن يوجب إحداث لغات مضبوطة الحواشي فباطل، وإنما اللغات تعليم من الله تعالى.

قلت[1]: هكذا ذكره البغوي، وفي هذا نظر، لأن صالحاً عليه السلام كان قبلهم، وكان يتكلم بالعربية، وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم، الذي نشأ إسماعيل بينهم، وتعلم منهم العربية، وكانت قبائل من العرب قديمة قبل إبراهيم عليه السلام، مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا في قديم الزمان بالعربية، ويدل على صحة هذا قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الله أعلم، وقيل حمل قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على العموم أولى، فتكون الآية عامة في جميع الماكرين المبطلين، الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالغير.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾؛ أي: أتى أمر الله، وهو الريح التي أخربت بنيانهم، قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخر عليهم الباقي فهلكوا والبنيان[2] البناء والجمع أبنية، والقواعد جمع قاعدة، وقواعد البيت أساسه وأساطينه وسواريه، كما سيأتي في مباحث التصريف؛ أي: قصد الله سبحانه وتعالى وأراد تخريب بنائهم من جهة أصوله وأساسه، وأتاه أمره وحكمه وبأسه، أو من جهة الأساطين والسواري التي بنوا عليها بأن ضعفت وزلزلت،

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

﴿فَخَرَّ﴾؛ أي: سقط ﴿عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾؛ أي: سقف بنائهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ فأهلكهم، وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ للتأكيد، لأن السقف لا يخر إلا من فوقهم، وقيل[1] جاء بفوقهم وعليهم، للإيذان بأنهم كانوا تحته، فإن العرب لا تقول سقط علينا البيت وليسوا تحته، روي أنه هبت عليه ريحٌ هائلة فألقت رأسه في البحر، وخر الباقي عليهم، ولما سقط الصرح تبلبلت الألسن من الفزع يومئذٍ، فتكلموا ثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت ببابل، وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية كما مر.

هذا[2] إذا حملنا تفسير الآية على القول الأول، وهو ظاهر اللفظ، وإن حملنا تفسير الآية على القول الثاني، وهو حملها على العموم.. كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى، وأهل الحق من عباده.. أهلكهم الله تعالى، وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنياناً شديداً ودعموه، فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم سقف بنيانهم، فأهلكهم، شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكايد، وإبطاله تعالى تلك الحيل، وجعله تعالى إياها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فضعضعت تلك الأساطين، فسقط عليهم السقف، فهلكوا، فهو مثل ضربه الله تعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره، ومنه المثل السائر على ألسنة الناس: من حفر لأخيه قليباً وقع فيه قريباً.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: وجاءهم الهلاك بالريح ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه منه، بل يتوقعون إتيان مقابله مما يريدون ويشتهون، أو أنهم اعتمدوا على منصوباتهم، ثم تولد البلاء منها بأعيانها.

والمعنى: أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين سيأتيهم في الدنيا من العذاب مثل ما أتاهم، من جهة لا تخطر ببالهم.

وخلاصة ذلك: أن الله تعالى أحبط أعمالهم، وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بُنْيَـٰنَهُم﴾، وقرأت فرقة ﴿بنْيَتُهم﴾ وقرأ جعفر: ﴿بَيْتهُم﴾ والضحاك: ﴿بيوتهم﴾، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلسَّقْفُ﴾ مفرداً، والأعرج ﴿السقف﴾ بضمتين، وزيد بن علي ومجاهد بضم السين فقط، وتقدم توجيه مثل هاتين القراءتين في: ﴿وبالنجم﴾، وقرأت فرقة ﴿السَّقُف﴾ بفتح السين وضم القاف، وهي لغة في السقف ولعل السقف مخفف منه، ولكنه كثر استعماله، كما قالوا في رجل رجل وهي لغة تميمية.

وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر في الدنيا من العذاب والهلاك.. بين حالهم في الآخرة فقال: ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما عجل لهم العذاب في الدنيا إن ربك: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ويذلهم ويهينهم بعذاب أليم؛ أي[2]: يذل أولئك المفترين والماكرين والذين من قبلهم جميعاً بعذاب الخزي على رؤوس الأشهاد. وفيه[3] إشهار بأن العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة، لأن الخزي هو العذاب مع الهوان، وأصل الخزي ذل يستحيى منه، وثم لتفاوت ما بين الجزاءين ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم حين ورودهم عليه، على سبيل الاستهزاء والسخرية والتوبيخ، والفضيحة لهم، فهو إلى آخره بيان للإخزاء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ تزعمون في الدنيا أنهم شركائي، وكنتم ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾؛ أي: تخاصمون الأنبياء والمؤمنين ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في شأنهم، بأنهم شركاء أحقاء، حين بينوا لكم بطلانها، وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا وتتولونهم، والولي ينصر وليه، والمراد من المشاقة فيهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم في شأنهم، وزعمهم أنهم شركاء حقاً، حين بينوا لهم ذلك، والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والتوبيخ والاحتقار لشأنهم، إذ كانوا يقولون: إن صح ما تدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا، والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقةً، بل يكفي ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به، من عنوان الإلٰهية، فليس هناك

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

شركاء ولا أماكنها، والخلاصة أنه لا شركاء ولا أماكن لهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شركائي﴾ ممدوداً مهموزاً مفتوح الياء، وقرأت فرقة كذلك تسكنها، فسقط في الدرج لالتقاء الساكنين، والبزي عن ابن كثير بخلاف عنه مقصوراً، وفتح الياء هنا خاصةً بوزن هداي، وروي عنه ترك الهمز في القصص، وقرأ الجمهور ﴿تشاقون﴾ بفتح النون، وقرأ نافع بكسرها، ورويت عن الحسن، ولا يلتفت إلى تضعيف أبي حاتم هذه القراءة، وقرأت فرقة بتشديدها، أدغم نون الرفع في نون الوقاية.

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين في شأنهم يوم القيامة بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والمؤمنون الذين أوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونم ويتكبرون عليهم؛ أي: يقولون توبيخاً لهم وإظهاراً للشماتة بهم ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾؛ أي: الفضيحة والذل والهوان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في هذا اليوم، الذي يفصل فيه القضاء، متعلق بالخزي، وإيراده[2] للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق.

﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله، وهو قصر للجنس الادّعائي، كأن ما يكون من الذل وهو العذاب لعصاة المؤمنين لعدم بقائه، ليس من ذلك الجنس، ومرادهم بهذه المقالة الشماتة، وزيادة الإهانة للكافرين وفي ذلك إعظام للعلم، إذ لا يقول ذلك إلا أهله.

ثم بين الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب، هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالموا أنفسهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين، وفائدة هذا النعت تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره إلى حين الموت، دون من آمن منهم، ولو في آخر عمره؛ أي: إن الخزي والسوء على الكافرين الذين استمروا على الكفر حتى تقبض ملائكة الموت أرواحهم؛ أي: عزرائيل وأعوانه حالة كونهم ﴿ظَالِمِىٓ

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

﴿أَنفُسِهِمْ﴾ ومعرضيها للعذاب المخلد، باستمرارهم عل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الملك الجبار، وتبديلهم فطرة الله تبديلاً وأي ظلم للنفس أشد من الكفر[1]، وقرأ حمزة والأعمش: ﴿يتوفاهم﴾ بالياء من أسفل في الموضعين، وقرىء بإدغام تاء المضارعة في التاء بعدها، وفي مصحف عبد الله بتاء واحدة في الموضعين، ذكره في «البحر».

ثم ذكر حالهم حينئذٍ من الخضوع والمذلة فقال: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ والسلم بالتحريك الاستسلام؛ أي: فيلقون الاستسلام والانقياد في الاخرة، حين عاينوا العذاب، ويتركون المشاقة والمخاصمة، وينزلون عما كانوا عليه في الدنيا من التكبر، والعلو وشدة الشكيمة قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي: من شرك، قالوا ذلك منكرين لصدوره عنهم قصداً لتخليص نفوسهم من العذاب؛ أي: أسلموا[2] وأقروا لله بالعبودية، حين عاينوا العذاب عند الموت، قائلين ما كنا نشرك بربنا أحداً، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ رد عليهم من قبل الله تعالى، أو من قبل الملائكة، أو من قبل أولي العلم، وإثبات لما نفوه؛ أي: فتقول الملائكة بلى كنتم تعملون أعظم الشرك وأقبح الآثام و﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك، فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانه فلا يفيدكم إنكاركم وكذبكم على أنفسكم والفاء في قوله: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟﴾ للتعقيب ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: كل صنف بابه المعدُّ له؛ أي: فادخلوا طبقات جهنم، وذوقوا ألواناً من العذاب، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم، واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصي، حالة كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً إن[3] أريد بالدخول حدوثه.. فالحال مقدرة، وإن أريد مطلق الكون فيها.. فمقارنة، والفاء في قوله ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

التوحيد، وسائر ما أتت به الأنبياء، عاطفة على فاء التعقيب، واللام للتأكيد تجري مجرى القسم، والمثوى المنزل والمقام والمخصوص بالذم محذوف، وهو جهنم؛ أي: فوالله لبئس وقبح مثوى المتكبرين عن توحيد الله، وطاعة الرسل، والمخصوص بالذم جهنم؛ أي: فلبئس[1] المقيل والمقام دار الذل والهوان، لمن كان متكبراً عن اتباع الرسل، والاهتداء بالآيات التي أنزلت عليهم، وما أفظعها من دار وصفها ربنا بقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وذكرهم بعنوان[2] التكبر للإشعار بعلته لثوائهم وإقامتهم فيها، والمراد المتكبر عن التوحيد، أو كل متكبر من المشركين والمسلمين.

فائدة: قال الشيخ علي السمرقندي في تفسيره المسمى بـ «بحر العلوم»: التكبر ينقسم على ثلاثة أقسام: التكبر على الله تعالى، وهو أخبث أنواع الكبر وأقبحها، وما منشأه إلا الجهل المحض، ثم التكبر على الرسل من تعزز النفس، وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وهذا كالتكبر على الله تعالى في الوقاحة واستحقاق العذاب السرمديِّ، والثالث التكبر على العباد، وهو بأن يستعظم نفسه، ويستحقر غيره، فيأبى عن الانقياد لهم، ويدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم ويستنكف عن مساواتهم، وهو أيضاً قبيح، وصاحبه جاهل كبير يستأهل سخطاً عظيماً لو لم يتب، وإن كان دون الأولين للدخول تحت عموم قوله: ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وأيضاً من تكبر على أحد من عباد الله فقد نازع الله في ردائه وفي صفةٍ من صفاته، قال أبو صالح حمدان بن أحمد القصار - رحمه الله تعالى -: من ظن أن نفسه خيرٌ من نفس فرعون فقد أظهر الكبر.

ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء فقال: ﴿وَقِيلَ﴾ روي[3] أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام موسم الحج من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون الذين اقتسموا طرق مكة، وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن

---

(1) المراغي.

(2) روح البيان.

(3) روح البيان..

لم تلقه كان خيراً لك، فإنه ساحر كاهن كذاب مجنون، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن استطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه، فذلك قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، أي: من طرق الوافدين ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الكفر والشرك، وهم المؤمنون المخلصون ﴿مَاذَا﴾؛ أي: أي شيء، فهو مفعول قوله: ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: أي شيء أنزل ربكم على محمد ﷺ؟

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المتقون في جواب سؤال الوافد: أنزل ربنا ﴿خَيْرًا﴾.

وهو اسم جامع لكل خير ديني ودنيوي وأخروي ظاهري معنوي، وفي تطبيق الجواب بالسؤال إشارة إلى أن الإنزال واقع، وأنه نبي حق، وقرأ زيد بن علي ﴿خَيْرٌ﴾ بالرفع: أي: المُنْزَلُ خيرٌ، كما في «البحر».

قال الثعلبي: فإن[1] قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وانتصب في قوله: ﴿خَيْرًا﴾؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا: الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين، والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيراً اهـ.

والمعنى: أي وقيل للذين خافوا عقاب ربهم: أي شيء أنزله ربكم؟ قالوا: أنزل خيراً وبركة ورحمة لمن اتبع دينه، وآمن برسوله، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قيل: هذا من كلام الله عز وجل، وقيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلاً من ﴿خَيْرًا﴾ وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً للمدح للمتقين.

والمعنى: للذين أحسنوا أعمالهم وأخلصوا، وقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإنه أحسن الحسنات وأسُّ الديانات.

﴿فِي هَذِهِ﴾ الدار ﴿الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ أي: مثوبة حسنة مكافأة فيها بإحسانهم، وهي عصمة الدماء والأموال، واستحقاق المدح والثناء والظفر على الأعداء ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ولثوابهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة، أو

(١) الشوكاني.

المعنى[1]: دار الآخرة خيرٌ من الدنيا على الإطلاق، فإن الآخرة كالجوهر والدنيا كالخزف، وقيمة الجوهر أرفع من قيمة الخزف، بل لا مناسبة بينهما أصلاً.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: وعزة الله وجلاله لنعم وحسن دار المتقين دار الآخرة، فالمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما قبله عليه، وقال الحسن: دار المتقين الدنيا لأنهم منها يتزودون للآخرة، والقول[2] الأول أولى، وهو قول جمهور المفسرين، لأن الله فسر هذه الدار بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ عدن علم على طبقة من طبقات الجنة الثمانية؛ أي: لهم بساتين عدن حال كونهم ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال كونها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت منازلها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة على أن يكون المنبع فيها بشهادة مِنْ، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات حال من المبتدأ المؤخر، وهو قوله ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ ويحبون من أنواع المشتهيات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قال البيضاوي: في تقديم الظرف تنبيهٌ[3] على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة اهـ.

قال بعضهم: إن قلت[4] هل يجوز للمرء أن يشتهي في الجنة اللواطة، وقد ذهب إليه من لا وقوف له على جلية الحال؟

فالجواب: أن الاشتهاء المذكور مخالف لحكمة الرب الغفور، ولو جاز هو.. لجاز نكاح الأمهات فيها، على تقدير الاشتهاء، وإنه مما لا يستريب عاقل في بطلانه، ألا ترى أن المذكور وكذا الزنى واللواطة والكذب ونحوها، كان حراماً مؤبداً في الدنيا في جميع الأديان، لكونه مما لا تقتضي الحكمة حله، بخلاف الخمر ونحوها، ولذا كانت هي أحد الأنهار الجارية فيها، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا يستطيب ما استخبثته الطباع السليمة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمراد بالمتقين كل من يتقي الشرك، وما يوجب النار من المعاصي، والموصول في

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) بيضاوي.
(٤) روح البيان.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله؛ أي: يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾؛ أي: طاهرين[١] من الكفر والشرك، مبرئين عن العلائق الجسمانية، متوجهين إلى حضرة القدس، فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت.

وقرأ زيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن[٢]: ﴿جنات عدن﴾ بالنصب على الاشتغال؛ أي: يدخلون جنات عدن يدخلونها، وهذه القراءة تقوي إعراب جنات عدن بالرفع على أنه مبتدأ، ويدخلونها الخبر، وقرأ زيد بن عليّ: ﴿ولِنعْمَةُ دارٍ﴾ بتاءٍ مضمومةٍ، ودارٍ مخفوضٍ بالإضافة، فيكون نعمة مبتدأ وجنات الخبر.

وقرأ السلمي: ﴿تدخلونها﴾ بتاء الخطاب، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع: ﴿يدخلونها﴾ بياء على الغيبة، والفعل مبني للمفعول، ورويت عن أبي جعفر وشيبة.

وقرأ الأعمش وحمزة[٣]: ﴿تَتَوفَّاهم﴾ في هذا الموضع، وفي الموضع الأول بالياء التحتية، وقرأ الباقون: بالمثناة الفوقية، واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلاً بما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم.

وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ حالٌ من الملائكة؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين لهم على وجه التعظيم والتبشير ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيق بكم بعد مكروه، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي أعدها لكم ربكم، ووعدكموها، والمراد دخولهم له في وقته، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب[٤] ثباتكم على التقوى والطاعة والعمل وإن لم يكن موجباً للجنة، لأن الدخول فيها محض فضل الله إلا أن الباء دلت على أن الدرجات إنما تنال بالأعمال وصدق الأحوال، فإن المراد من دخول

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

(٤) روح البيان.

الجنة إنما هو اقتسام المنازل بحسب الأعمال.

وفي «تفسير المراغي»: والمراد[1] من قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ البشارة بالدخول فيها بعد البعث، إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب، كان ذلك حين التوفي كما يشير إليه قوله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»، أخرج ابن جرير والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال: «إذا أشرف العبد المؤمن على الموت.. جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة»، والاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ إنكاري؛ أي: ما ينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم بالتهديد والتعذيب، لمواظبتهم على الأسباب الموجبة له المؤدية إليه، فكأنهم يقصدون إتيانه ويترصدون لوروده، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقةً لأنهم لا يصدقونه ﴿أَوۡ﴾ إلا أن ﴿يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾؛ أي: عذابه في الدنيا المستأصل لهم، كما فعل بأسلافهم من الكفار، فيرسل عليهم الصواعق، أو يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، وهذا تهديد لهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا.

وخلاصة هذا: حثهم على الإيمان بالله ورسوله، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من السالفين المكذبين لرسلهم.

وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي وخلف[2]: ﴿إلا أن يأتيهم الملائكة﴾ بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية.

ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب بالرسل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم فأصابهم العذاب المعجل.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي المؤدية إلى ذلك، فكذبوا الرسل فاستحقوا ما نزل بهم.

والمعنى[1]: أي وما ظلمهم الله تعالى بإنزال العذاب بهم، لأنه أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاؤوا به.

ثم أعقبه بذكر ما ترتب على أعمالهم فقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض، وقيل[2] في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله... إلخ.

والمعنى: فأصابهم بحكم عدل جزاء سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم السيئة، على طريقة تسمية المسبب باسم سببه، إيذاناً بفظاعته، لا على حذف لمضاف، فإنه يوهم أن لهم أعمالاً غير سيئاتهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: أحاط بهم ونزل من الحيق الذي هو إحاطة الشر كما في «القاموس»؛ أي: نزل بهم على وجه الإحاطة.

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب الموعود؛ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزائهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله من أهل مكة، فعبدوا الأصنام والأوثان من دونه تعالى، معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عدم عبادتنا لشيءٍ غيره ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ﴾ تعالى ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: ما عبدنا من دونه شيئاً من الأصنام ﴿نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الذين اقتدينا بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: ولو شاء الله تعالى عدم تحريمنا شيئاً من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.. ما حرمنا من دونه شيئاً من ذلك.

والمعنى: ما نعبد هذه الأصنام إلا لأنه قد رضي عبادتنا لها، ولا حرمنا ما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأنه قد رضي ذلك منا، ولو كان كارهاً لما فعلنا.. لهدانا إلى سواء السبيل، أو لعجل لنا العقوبة وما مكننا من عبادتها.

والخلاصة[1]: فإشراكنا بالله الأوثان وتحريمنا الأنعام والحرث بمشيئته تعالى، وهو راضٍ بذلك، وحينئذٍ فلا فائدة في مجيئك إلينا، بالأمر والنهي في إرسالك إلينا، وقد رد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم، فأشركوا بالله، وحرموا حله، وعصوا رسله، وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ، وهدوهم إلى الحق.

واستن هؤلاء سنتهم، وسلكوا سبيلهم في تكذيب الرسول، واتباع أفعال آبائهم الضلال.

ثم بين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: فهل[2] على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم، من أمره ونهيه، إلا إبلاغ الرسالة، وإيضاح طريق الحق، وإظهار أحكام الوحي، التي منها أن مشيئة الله تعالى تتعلق بهداية من وجه همته إلى تحصيل الحق، كما قال ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ وليس من وظيفتهم إلجاء الناس إلى الإيمان شاؤوا أو أبوا، فإن ذلك ليس من شأنهم، ولا من الحكمة التي عليها مدار التكليف، حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك.

والاستفهام في قوله: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ إنكاري؛ أي: ليست[3] وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً، وإطلاع الخلق على بطلان الشرك وقبحه، لا إلجاءهم إلى قبول الحق، وتنفيذ قولهم عليهم شاؤوا أو أبوا.

وقصارى ذلك[4]: أن الثواب والعقاب لا بُدَّ فيهما من أمرين، تعلق مشيئته

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

تعالى بوقوع أحدهما، وتوجيه همة العبد إلى تحصيل أسبابه، وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطرارياً لا اختياريًا، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي، أما العمل بها إلجاء وقسراً، فليس من وظيفتهم لا في كثير ولا قليل.

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها، وجعلت سبباً لهدى من أراد الله هدايته، وزيادة ضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوي ويقويه، ويضر المزاج المنحرف ويفنيه، فقال:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا في كل أمة من الأمم التي سلفت قبلكم ﴿رَسُولًا﴾ خاصًا بهم، كما بعثناك في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إما مصدرية[1]؛ أي: بعثنا بأن اعبدوا الله، أو مفسرة لأن في البعث معنى القول؛ أي: قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله وحده لا شريك له، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا إلى الضلال، أو واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا، والطاغوت هو الشيطان، وكل ما يدعو إلى الضلالة، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، مع علمه أن منهم من لا يأتمر بالأوامر ولا يؤمن، و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فاء[2] الفصيحة؛ أي: فبلغوا ما بعثوا به من الأمر، بعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، فتفرقوا، فمنهم؛ أي: فمن هذه الأمم التي بعث الله إليها رسله، ﴿مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾؛ أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته، واجتناب الطاغوت، أو خلق[3] فيه الاهتداء إلى الحق الذي هو عبادته واجتناب الطاغوت، بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئي إلى تحصيله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ أي: وجبت وثبتت عليه الضلالة إلى حين الموت، لعناده وإصراره على الكفر، وعدم صرف قدرته، فلم يخلق فيه الاهتداء، ولم يرد أن يطهر قلبه.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

قال الزجاج[1]: أعلم الله تعالى أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الطاغوت، وأنهم بعد ذلك فريقان: فمهم من هدى، ومنهم من حقت عليهم الضلالة، فكان في ذلك دليلٌ على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته، فإنه يأمر الكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعض، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا.

وإجمال القول[2]: أن المشيئة الشرعية للكفر منتفية، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، والمشيئة الكونية وهي تمكين عباده من الكفر، وتقديره لهم بحسب اختيارهم وصرف همتهم إلى تحصيل أسبابه، لا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجةٌ ناصعةٌ وحكمة بالغة.

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ أي: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هداه الله، ووفقه لتصديقهم وقبول إرشادهم، والعمل بما جاؤوا به، ففازوا وأفلحوا ونجوا من عذابه، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله، وكذبوا رسله، واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم بعقابه، وأنزل بهم شديد بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاء الفصيحة؛ أي: إذا عرفتم التفريق المذكور، وأردتم معرفة عاقبة من حقت عليهم الضلالة.. فأقول لكم سيروا وسافروا يا معشر قريش، إذ الكلام معهم في أكناف الأرض ونواحيها ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: كيف كان آخر أمر المكذبين لرسلهم، من عاد وثمود، ومن سار بسيرتهم ممن حقت عليهم الضلالة، لعلكم تعتبرون

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

حين تشاهدون من منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب، وفي الإتيان[1] بالفاء الدالة على التعقيب في قوله: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ إشارة إلى وجوب المبادرة إلى النظر والاستدلال المؤديين إلى الإقلاع عن الضلال.

والمعنى[2]: أي فسيروا في الأرض التي كان يسكنها القوم الظالمون، والبلاد التي كانوا يعمرونها، كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم، ممن حقت عليهم الضلالة، وانظروا إلى آثار سخطنا عليهم، لعلكم تعتبرون بما حل بهم.

ثم خاطب سبحانه رسوله ﷺ مسلياً له على ما يراه من جحود قومه، وشديد إعراضهم، ومبالغتهم في عنادهم، مع أسفه عليهم، وعظيم رغبته في إيمانهم، ومبيناً أن الأمر بيد الله، وليس له من الأمر شيءٌ فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾؛ أي: على هداية قومك؛ أي: إن تطلب هداية قريش بجهدك.. لا ينفعهم حرصك على إيمانهم وهدايتهم، إذا كان الله تعالى يريد إضلالهم بسوء اختيارهم، وتوجيه عزائمهم إلى عمل المعاصي والإشراك بربهم، وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ معللة لجواب الشرط الذي قدرناه؛ أي: لأنه تعالى لا يخلق الهداية قسراً فيمن يخلق فيه الضلالة لسوء اختياره، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: وما لهم ناصرٌ ينصرهم من الله إن إراد عقوبتهم، كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: وليس لهم أحدٌ يعينهم على مطلوبهم في الدنيا والآخرة من دفع العذاب عنهم.

ومجمل القول[3]: أنَّ من اختار الضلالة ووجه همته إلى تحصيل أسبابها، فالله سبحانه لا يخلق فيه الهداية قسراً وإلجاءً، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإلجاء والاضطرار.

وقرأ النخعي[4]: ﴿وإن﴾ بزيادة واو وهو والحسن وأبو حيوة ﴿تَحْرَص﴾ بفتح الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة، وقرأ الجمهور بالكسر مضارع حرص

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

بالفتح، وهي لغة الحجاز، وقرأ الحرميان نافع وابن كثير، والعربيان أبو عمرو وابن عامر، والحسن والأعرج ومجاهد وشيبة وشبل ومزاحم الخراساني والعطاردي وابن سيرين: ﴿لا يُهْدَى﴾ مبنياً للمفعول، ومن مفعول لم يسم فاعله، والفاعل في ﴿يُضِل﴾ ضمير الله، والعائد على مَنْ محذوف، تقديره: من يضله الله، وقرأ الكوفيون وابن مسعود وابن المسيب وجماعة: ﴿يَهْدي﴾ مبنياً للفاعل، والظاهر أن في يهدي ضميراً يعود على الله ومن مفعول، وعلى ما حكى الفراء: إن هدى يأتي بمعنى اهتدى، يكون لازماً، والفاعل من؛ أي: لا يهتدي من يضله، وقرأت فرقة منهم عبد الله: ﴿لا يهدي﴾ بفتح الياء وكسر الهاء والدال، قال ابن عطية: وهي ضعيفة، انتهى.

وإذا ثبت أن هدى لازم بمعنى اهتدى.. لم تكن ضعيفةً، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية، فالمعنى لا يجعل مهتدياً من أضله، وفي مصحف أبي: ﴿لا هادي لمن أضلَّ﴾، وقال الزمخشري: وفي قراءة أبيٍّ فإن الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضل، وقرىء يضل بفتح الياء.

ثم ذكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: حلف الذين أشركوا ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: غاية أيمانهم، وإذا حلف الرجل بالله.. فقد حلف جهد يمينه، فإن الكفار كانوا يحلفون بآبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمر عظيماً.. حلفوا بالله تعالى، وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إعلاماً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث، وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدر في موضع الحال وقوله: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ من عباده مقسم عليه؛ أي: حلف[1] هؤلاء المشركون بالله حالة كونهم جاهدين ومبالغين في أيمانهم، حتى بلغوا غاية شدتها وكادتها، قائلين: لا يبعث الله يوم القيامة من يموت من عباده، فإنهم يجدون في تقولهم أن الشيء إذا صار عدماً محضاً لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئاً آخر، ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ ردٍّ بقوله: ﴿بَلَى﴾ إثبات

---

(١) روح البيان.

لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم الله تعالى بعد الموت ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه، وهو ما دل عليه بلى، فإن البعث موعد من الله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الخلف في وعده، أو لأن البعث مقتضى حكمته ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد، والتقدير: بلى يبعثهم الله وعد بذلك وعداً حقاً واجباً عليه إنجازه بمقتضى حكمته، وقيل هما مصدران مؤكدان للجملة المقدرة؛ أي: وعد[1] ذلك وعداً ثابتاً عليه، وحق ذلك حقاً، أي: ثبت ذلك ثبوتاً على الله، فينجزه لامتناع الخلف في وعده ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أهل مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون، وأن ذلك يسير عليه سبحانه، غير عسير، لقصور نظرهم بالمألوف، فيتوهمون امتناع البعث، ولجهلهم بشؤون الله تعالى، من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال، وعدم وقوفهم على سرِّ التكوين.

وقرأ الضحاك[2]: ﴿بلى وعد عليه حق﴾ والتقدير: بعثهم وعد عليه حق، وحق صفة لوعد، والمعنىٰ؛ أي: بلى[3] سيبعثه الله بعد مماته، وقد وعد ذلك وعداً حقاً لا بد منه، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشؤون الله وصفات كماله، من علم وقدرة وحكمة ونحوها، لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه، وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء، ومن قبل هذا جرؤوا على مخالفة الرسل، ووقعوا في الكفر والمعاصي.

ثم ذكر سبحانه الحكمة في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ و﴿اللام﴾ متعلقة بـ ﴿يبعثهم﴾ المقدر بعد بلى، أي: بلى يبعث الله كل من يموت مؤمناً كان أو كافراً، ليبين لمنكري البعث، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول يبين؛ أي: ليبين للمشركين الذين ينكرون البعث الأمر الذي يختلفون فيه مع المؤمنين، من أمر الدين بتعذيبهم، وإثابة المؤمنين، مما جاءت به الرسل وخالفتهم فيه أممهم، فيمتاز الخبيث من

---

(١) الفتوحات.
(٢) الفتوحات.
(٣) المراغي.

الطيب، والمطيع من العاصي، والظالم من المظلوم، إلى نحو أولئك ممن كان مدار دعوة الرسل عليه، وأنكرته الأمم الذي أرسلوا إليهم، ويجزي الذين أساؤوا بما علموا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسن، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معطوف على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ أي: بلى يبعثهم ليبين لهم الذي يختلفون فيه، وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم: لا يبعث الله من يموت، وسيدعون إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ هذا[1] إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له، من حيث الحكمة، وهو التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، والثواب والعقاب.

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقال: ﴿إِنَّمَا﴾ و﴿ما﴾ فيه كافة ﴿قَوْلُنَا﴾ مبتدأ ﴿لِشَيْءٍ﴾؛ أي: أي شيء كان مما عز وهان، متعلق بـ ﴿قَوْلُنَا﴾ على أن اللام للتبليغ، كهي في قولنا: قلت له قم فقام، فإن قلت: فيه دليل على أن المعدوم شيءٌ، لأنه سماه شيئاً قبل كونه.

قُلْتُ: التعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى، لا أنه كان شيئاً قبل ذلك. وفي «التأويلات النجمية»: في الآية دلالة على أن المعدوم الذي في علم الله إيجاده شيء، بخلاف المعدوم الذي في علم الله عدمه أبداً، ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ ظرف لـ﴿قَوْلُنَا﴾؛ أي: وقت إرادتنا لوجوده ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ﴾ خبر المبتدأ ﴿كُن﴾؛ أي: احدث وابرز من العدم إلى الوجود، لأنه من كان التامة بمعنى الحدوث التام، ﴿فَيَكُونُ﴾ ذلك الشيء ويحدث، عطف على مقدر؛ أي: فنقول ذلك فيكون، أو جواب لشرط محذوف؛ أي: فإذا قلنا ذلك.. فهو يكون ويحدث عقيب ذلك، وهذا الكلام مجازٌ عن سرعة الإيجاد وسهولته على الله، وليس هناك قول ولا مقول له، ولا آمر ولا مأمور، حتى يقال إنه يلزم أحد

---

(١) روح البيان.

المحالين إما خطاب المعدوم، أو تحصيل الحاصل؛ أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف.

والمعنى: أي[1] إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت.. فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه ولا بعثه، لأنا إذا أردنا ذلك.. فإنما نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه ولا كلفة علينا، ونحو الآية قوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾، وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

وخلاصة هذا: أنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته، وسرعة حدوثها حين إرادته سرعة حصول المأمور حين أمر الآمر، وقوله دون هوادة ولا تراخ، ولكن العباد[2] خوطبوا بذلك على قدر عقولهم، ولو أراد الله خلق الدنيا وما فيها في قدر لمح البصر.. لقدر على ذلك، فالمعنى: إنما إيجادنا لشيء عند تعلق إرادتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وحمزة ﴿فَيَكُونُ﴾ رفعاً، وكذلك في كل القرآن، وقرأ ابن عامر والكسائي: ﴿فيكون﴾ نصباً، قال مكيُّ بن إبراهيم: من رفع قطعه عما قبله.

والمعنى: فهو يكون، ومن نصب عطفه على يقول. والله أعلم.

الإعراب

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾ فعلٌ ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: نائب فاعل محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَّاذَآ﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبرٌ، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجمل صلة لـ ﴿ذا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما الذي أنزله ربكم، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾ وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: خبرٌ ومضاف إليه لمبتدأ محذوف تقديره: المنزل أساطير الأولين، وسموه منزلاً على سبيل التهكم، أو على سبيل التقدير ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وعاقبة ﴿يحملوا أوزارهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، منصب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي ﴿كَامِلَةً﴾: حال من الأوزار، ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يحملوا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: قالوا لصيرورة عاقبتهم حملهم أوزارهم يوم القيامة، ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ﴾: معطوف على ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾، و﴿وَمِنۡ﴾ إما زائدة أو تبعيضة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، ﴿يُضِلُّونَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، إما حال من فاعل ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، أو من مفعوله كما مر ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، لشبهه بالمثل، تقديره: هو يعود على الشيء المبهم الذي يفسره التمييز، ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز لفاعل ﴿سَآءَ﴾، ﴿يَزِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ ﴿مَا﴾، والرابط محذوف تقديره: ألا ساءَ الشيء شيئاً يزورنه، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: حملهم هذا، وجملة ﴿سَآءَ﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: جار

ومجرور صلة الموصول، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَكَرَ﴾ و﴿الفاء﴾ للعطف والتعقيب ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أتى﴾، ﴿فَخَرَّ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿خر﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلسَّقْفُ﴾: فاعل ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿خَرَّ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أتى﴾. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أتى﴾، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حَيْثُ﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف متعلق بما بعده، ﴿يُخْزِيهِمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَيَقُولُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُخْزِيهِمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾: إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع خبر مقدم وجوباً، ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الرفع صفة لـ ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ ﴿فِيهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل ومفعول ثان، لأن أتى هنا بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين، أولهما صار نائب فاعل، لـ ﴿أُوتُوا۟﴾ والأصل قال الذين آتاهم الله العلم، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾: ناصب واسمه،

﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾ لأنه مصدر فيه الألف واللام، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور الواقع خبراً، لأن كما ذكره أبو البقاء، ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾، ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، صلة الموصول، ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾: حال من ضمير الغائبين، ومضاف إليه، ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على جملة قوله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أو على ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، و﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ويجوز أن يكون مستأنفاً، والفاء حينئذٍ استئنافية، ذكره أبو البقاء ﴿مَا﴾ نافية ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۢ﴾ فعل ومفعول، و﴿مِن﴾ زائدة، وفاعله ضمير يعود على المشركين، وجملة ﴿نَعۡمَلُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقولٌ لقول محذوف، حال من فاعل ﴿ألقوا﴾؛ أي: فألقوا السلم قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۢ﴾. ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب لإثبات ما بعد حرف النفي قائمة مقام الجواب المحذوف، تقديره: بلى كنتم تعملون أقبح الشرك وأشد الآثام، والجملة الجوابية مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَلِيمُۢ﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كنتم تعملونه.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿ادخلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ادخلوا﴾، أو منصوب على التشبيه بالمفعول به، والجملة معطوفة على الجواب تقديره: بلى كنتم تعملون أشد الشرك وأقبح الآثام فادخلوا أبواب جهنم، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدرة من فاعل ﴿ادخلوا﴾ ﴿فِيهَاۖ﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿فَلَبِئۡسَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿بئس مثوى المتكبرين﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله:

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾؛ أي: فادخلوا أبواب جهنم فيقال فيكم: والله لبئس مثوى المتكبرين، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: جهنم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق به، ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ نائب فاعل محكي لـ ﴿قيل﴾، وجملة ﴿قيل﴾ مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿مَاذَآ﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قيل﴾، وإن شئت قلت ﴿مَاذَآ﴾ مبتدأ وخبر، وجملة ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ صلة لـ ﴿ذا﴾ الموصولة، كما مر نظيره فراجعه، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خَيۡرٗاۗ﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: أنزل خيراً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول قالوا، ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿أَحۡسَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصولة ﴿فِي هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عنه ﴿حَسَنَةٞۚ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب بدل من ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، أو جملة مفسرة له ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿خَيۡرٞۚ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ ﴿وَلَنِعۡمَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف، ﴿نعم دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، والتقدير: والله لنعم دار المتقين، وجملة القسم معطوفة على الجملة التي قبلها، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هي.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف تقديره: لهم جنات عدن، والجملة مستأنفة، وفيه أوجه أخر تركناها خوف الإطالة، ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾: فعل

وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فاعل، وجملة ﴿تَجۡرِي﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، ﴿يَشَآءُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما يشاؤونه ويشتهونه والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من مفعول ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والتقدير: يجزى الله المتقين جزاء مثل الجزاء الذي ذكرناه، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من المفعول في ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ إلى آخر الآية: مقولٌ محكي لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض الدعاء، ﴿عَلَيۡكُمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾: فعل وفاعل مفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، و﴿الباء﴾ سببية، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خبره، وجعله ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه، ويصح أن تكون مصدريةً؛ أي: بعملكم.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ناصب وفعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: هل ينتظرون إلا إتيان الملائكة إياهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾؛ أي: ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة، أو إتيان أمر ربك، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول، والجملة مستأنفة، والتقدير: فعل الذين من قبلهم فعلاً مثل فعل هؤلاء المشركين من قومك، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ناف وفعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ والمعطوف عليه الذي هو ﴿فَعَلَ﴾، و﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿أَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا﴾: فعل ومفعول وفاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض اهـ «سمين»، وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلةٌ لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض، ﴿بِهِم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصابهم﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَشْرَكُواْ﴾: فعل وفاعل،

والجملة صلة الموصول، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَبَدْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من ﴿شَيْءٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿عَبَدْنَا﴾، و﴿مِن﴾ زائدة وجملة ﴿عَبَدْنَا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿نَّحْنُ﴾: تأكيد لضمير الفاعل في ﴿عَبَدْنَا﴾، ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾: معطوف على ذلك الضمير، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَبَدْنَا﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿دُونِهِۦ﴾: ظرف حال من ضمير ﴿حَرَّمْنَا﴾؛ أي: حالة كوننا دونه؛ أي: دون الله؛ أي: مستقلين بتحريمه، كما في «الجَمَلِ». ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مفعول ﴿حَرَّمْنَا﴾ و﴿مِن﴾ زائدة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ﴿مِن قَبْلِهِمْۚ﴾: صلة الموصول، والجملة مستأنفة، والتقدير: فعل الذين من قبلهم فعلاً مثل فعل هؤلاء المشركين، ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت فعل هؤلاء، وفعل الذين من قبلهم، وأردت بيان ما على الرسل.. فأقول لك: هل على الرسل، ﴿هَلْ﴾؛ حرف استفهام، للاستفهام الإنكاري، ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ والجملة الاستفهامية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿بَعَثْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه،

متعلق بـ ﴿بَعَثۡنَا﴾. ﴿رَّسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿أَنِ﴾ مصدريةٌ أو مفسرة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية مع ﴿أَنِ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: بعبادة الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَعَثۡنَا﴾. ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، ﴿فَمِنۡهُم﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت بعثنا في كل أمة رسولاً، وأردت بيان حال أممهم.. فأقول لك: منهم مَنْ هدى الله، ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّنۡ﴾: نكرة موصوفة كما في «العكبري» أو موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صفة لـ ﴿مَّنۡ﴾ المَوْصُوفةِ، أو صلة ﴿مَّنۡ﴾ الموصولة، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: من هداهم الله، ﴿وَمِنۡهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مَّنۡ﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿حَقَّتۡ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَّنۡ﴾ أو صفة لها.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَسِيرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم التفريق المذكور، وأردتم معرفة حال من حقت عليه الضلالة.. فأقول لكم ﴿سيْروا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ ﴿سيروا﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَٱنظُرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿انظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سيروا﴾، ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها، وهي معلقة لـ ﴿انظروا﴾ عن العمل فيما بعده، ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿انظروا﴾.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿تَحْرِصْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾: متعلق به، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فلا ينفعهم حرصك، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية للجواب المحذوف، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾ ﴿يُضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يُضِلُّهُ ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية ﴿لَهُم﴾: خبر ﴿ما﴾ مقدم، أو خبر المبتدأ، ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: اسمها مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾ زائدة، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿أقسموا﴾ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: منصوب على المصدرية، واقع موقع الحال، كما مر في مبحث التفسير، ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، واقع حالاً من فاعل ﴿أقسموا﴾؛ أي: وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ﴿يَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات ما بعد النفي، نائب عن الجواب المحذوف، تقديره: بلى يبعثه الله تعالى، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر، تقديره: وعد ذلك وعداً، وحق ذلك حقاً، ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور صفة

لـ ﴿وَعۡدًا﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة الجوابية المحذوفة.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كَيْ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتبيينه لهم، الجار والمجرور متعلق بالجواب المقدر بعد بلى؛ أي: بلى يبعثهم الله لتبيينه لهم، ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يبين﴾، ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولعلم الذين كفروا، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾، ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿ما﴾: كافة، ﴿قَوۡلُنَا﴾: مبتدأ أو مضاف إليه، ﴿لِشَيۡءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَوۡلُنَا﴾، ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في حل النصب على الظرفية، مبني على السكون، ﴿أَرَدۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَآ﴾ تقديره: وَقْتَ إرادتنا إياه، والظرف متعلق بـ ﴿قَوۡلُنَا﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿نَّقُولَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وفعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نَّقُولَ﴾، ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿نَّقُولَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُن﴾: فعل أمر تام بمعنى احدث، وفاعله ضمير يعود على

الشيء، والجملة في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾ وجملة ﴿نَّقُولَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية، تقديره: إنما قولنا لشيء وقت إرادتنا إياه قولنا له كن، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿فَيَكُونُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يكون﴾ فعل مضارع تام، وفاعله ضمير يعود على ﴿شيء﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة مقدرة تدل عليها الفاء، تقديره: فنقول ذلك فيكون، ويجوز أن يكون جواباً لشرط محذوف، تقديره: فإذا قلنا ذلك فهو يكون، كذا في «الفتوحات» وغيرها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير جمع أسطورة، كأحاديث جمع أُحدوثة، وأضاحيك جمع أضحوكة، وأعاجيب جمع أعجوبة، وأراجيح جمع أرجوحة، وهي الأكاذيب والأباطل والترهات، وقال في «القاموس»: الأساطير الأحاديث التي لا نظام لها، جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأسطور، وبالهاء في الكل اهـ. ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ والأوزار الآثام، واحدها وزر كأحمال وحمل، والوزر الثقل والحمل الثقيل، ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ أي: بئس شيئاً يحملونه، ﴿قَدْ مَكَرَ﴾ والمكر صرف غيرك مما يريده بحيلة، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: أهلكه وأفناه، كما يقال أتى عليه الدهر، والبنيان البناء يجمع على أبنية، والقواعد جمع قاعدة، وقواعد البيت أساسه، أو أساطينه ودعائمه وعمده، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ والسقف يجمع على سقوف، وهو القياس، وعلى سُقُفٍ وسُقْفٍ، وفُعَلٌ وفُعْلٌ، محفوظان في فَعْلٍ، وليسا مقيسين فيه، ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم في شأنهم، وأصله أن كلاًّ من المتخاصمين في شق وجانب غير شق الآخر، وعبارة «الخازن»: المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شقٍّ غير شق صاحبه، والمعنى: ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان اهـ. وأصل الخزي ذل يستحي منه، وأصل ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ تشاققون بوزن تفاعلون، ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ والسلم بالتحريك الاستسلام؛ أي: فيلقون

الاستسلام والانقياد في الآخرة حين عاينوا العذاب، ويتركون المشاقة، ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف يجاب به لإثبات ما بعد النفي.

﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ المثوى المنزل والمقام، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: وأحاط بهم جزاؤه ونزل، من الحيق الذي لا يستعمل إلا في الشر، كما في «القاموس»: الحَيْقُ ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، والمراد أن أصل معناه الإحاطة مطلقاً، لكنه خص في الاستعمال بإحاطة الشر، فلا يقال حاقت به النعمة، بل النقمة اهـ. «شهاب»، وفي «المختار»: حاق به الشي أحاط به، وبابه باع ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ اهـ.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والبلاغ اسم مصدر بمعنى الإبلاغ اهـ «شهاب»؛ أي: ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والطاغوت فعلوت من الطغيان، كالجبروت الملكوت من الجبر والملك، وأصله طغيوت فقدم اللام على العين، وتاؤه زائدة دون التأنيث، واختلف في الطاغوت، فقال بعضهم كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، وقال الحسن: الطاغوت الشيطان، والمراد من اجتنابه اجتناب ما يدعوا إليه مما نهي عنه شرعاً، ولما كان ذلك الارتكاب بأمر الشيطان ووسوسته سمي ذلك عبادة للشيطان اهـ. «زاده»، وهو من الطغيان يذكر ويؤنث اهـ «مصباح»، ويقع على الواحد كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾، وعلى الجمع كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ والجمع الطواغيت اهـ «مختار»، ومن إطلاقه على الجمع ما هنا، والحاصل: أنَّ الطاغوت كلُّ ما عبدُ من دون الله تعالى، من شيطان وكاهن وصنم، وكل من دعا إلى ضلال.

﴿مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ حقت وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ في «المصباح»: حرص عليه حرصاً من باب ضرب إذا اجتهد، والاسم الحرص بالكسر، وحرص على الدنيا من باب شرب أيضاً، وحرص حرصاً من باب تعب لغة إذا رغب رغبة مذمومة اهـ. وفي «السمين»: قرأ العامة: ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ بكسر الراء مضارع حرص بفتحها،

وهي اللغة العالية لغة الحجاز، وقرأ الحسن: ﴿تَحْرص﴾ بفتح الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة لبعضهم اهـ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الإقسام والقسم محركة اليمين بالله، وسمي الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدَّق ومكذب، والجهد بفتح الجيم المشقة، وبضمها الطاعة، يقال جهد الرجل في كذا ـ كمنع ـ جدَّ فيه وبالغ واجتهد، وجهد أيمانهم؛ أي: غاية اجتهادهم فيها، وبلى كلمة جوابٍ كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي، فتثبت ما بعده، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ أي: وعد ذلك وعداً عليه حقاً؛ أي: ثابتاً متحققاً لا شك فيه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وبين ﴿يَزِرُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً شديد الدعائم فانهدم ذلك البنيان، وسقط عليهم فأهلكهم، بطريق الاستعارة التمثيلية، ووجه الشبه أن ما عدوه سبباً لبقائهم عاد سبباً لفنائهم، كقولهم: من حفر حفرة لأخيه سقط فيها.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهو قصر للجنس الادعائي، كأن ما يكون من الذل ـ وهو العذاب ـ لعصاة المؤمنين لعدم بقائه ليس من ذلك الجنس.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾؛ أي: قالوا: أنزل خيراً.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿أحسنوا﴾ و﴿حسنة﴾ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

ومنها: الطباق بين الدنيا والآخرة.

ومنها: الجناس أيضاً بين ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ و﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في هذه الآية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: جزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه، إيذاناً بفظاعته، لا على حذف مضاف، فإنه يوهم أنَّ لهم أعمالاً غير سيئاتهم، ذكره في «روح البيان».

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾ و﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ لأن الأوزار حقيقة في الأحمال الثقيلة، فاستعاره للآثام.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ لأنه كناية عن إرادة تخريبه.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ لأن السقف لا يخرُّ إلا من فوق.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ وبين قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين قوله: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ وبين قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لأنه مجاز عن سرعة الإيجاد وسهولته على الله، وتمثيل الغائب، وهو تأثير قدرته في المراد بالشاهد،

وهو أمر المطاع للمطيع في حصول المأمور به من غير امتناعٍ وتوقف، ولا افتقارٍ إلى مزاولة عمل، واستعمال آلة، وليس هناك قول ولا مقول له، ولا آمرٌ ولا مأمور، حتى يقال إنه يلزم أحد المحالين: إما خطاب المعدوم، أو تحصيل الحاصل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٤٣) بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (٤٥) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ (٤٦) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ (٥٠) ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٥٤) لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٥٥) وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ (٥٦) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٦٠) وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٦١) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٦٣) وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٦٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما

قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى[1] أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتمادوا في الغيِّ والضلالة ومن هذه حالة فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء، حتى يضطروهم إلى الهجرة من الديار، ومفارقة الأهل والأوطان.. ذكر هنا حكم تلك الهجرة، وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسناتٍ في الدنيا، وأجرٍ في الأخرة، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم، وصبروا وتوكلوا على الله سبحانه وتعالى، وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة، واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر.

وقال ابن عطية[2]: لمَّا ذكر الله كفار مكة الذين أقسموا بالله بأنَّ الله لا يبعث من يموت، ورد على قولهم.. ذكر مؤمني مكة المعاصرين لهم، وهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب الآية، لأن هجرة المدينة ما كانت إلا بعد وقت نزول الآية انتهى، والظاهر أن الذين هاجروا عام في المهاجرين كائناً ما كانوا فيشمل أولهم وأخرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة لهم إلى الأنبياء، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياةٌ أخرى يحاسبون فيها، وهم لا يصدقون بها، وليس من المعقول أن تكون.. أردف ذلك بشبهة أخرى لهم، إذ قالوا: هب الله أرسل رسولاً، فليس من الجائز أن يكون بشراً، فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر، فلو بعث إلينا رسولاً لبعثه ملكاً، ثم أجاب عن هذه الشبهة: بأن سنة الله أن يبعث رسله من البشر، وإن كنتم في شكٍّ من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك، ثم هدّدهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعايشهم، أو

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

يأخذهم طائفة بعد أخرى، ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي على أتمّ نظام، وأحكم تقدير.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] قدرته على تعذيب الماكرين، وإهلاكهم بأنواع من الأخذ.. ذكر تعالى طواعية ما خلق من غيرهم، وخضوعه ضد حال الماكرين لينبههم على أنه ينبغي بل يجب عليهم أن يكونوا طائعين منقادين لأمره.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[2] في الآيات السالفة أنَّ كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك منقادٌ له، وخاضعٌ لسلطانه.. أتبع ذلك بالنهي عن الشرك به، وبيَّن أنّ كل ما سواه فهو ملكه، وأنه مصدر النعم كلِّها، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه الضر، فإذا كشفه عنه.. رجع إلى كفره، وأنَّ الحياة الدنيا قصيرة الأمد، ثم يعلم الكفار بعدئذٍ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاءً لهم على سيء أعمالهم، وقبيح أقوالهم، وعبارة أبي[3] حيَّان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر انقياد ما في السموات وما في الأرض لما يريده تعالى منها، فكان هو المتفرد بذلك.. نهى أن يشرك به، ودلَّ النهي عن اتخاذ إلهين على النهي عن اتخاذ آلهة، ولمَّا كان الاسم الموضوع للإفراد والتثنية قد يتجوز فيه، فيراد به الجنس، نحو: نعم الرجل زيدٌ، ونعم الرجلان الزيدان، أكد الموضوع لهما بالوصف، فقيل: إلهين اثنين، وقيل إلهٌ واحدٌ، ولمَّا نهى عن اتخاذ الإلهين واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة.. أخبر تعالى أنه إله واحد، كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ بأداة الحصر، وبالتأكيد بالوحدة، ثم أمرهم بأن يرهبوه، والتفت من الغيبة إلى الحضور لأنه أبلغ في الرهبة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما بيَّن[1] سخف أقوال أهل الشرك.. أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التي تمجها الأذواق السليمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن الكفار عظيم ما ارتكبوه من الكفر، ونسبة التوالد له.. بيّن تعالى أنه يُمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته.

وعبارة «المراغي»: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما حكى[3] عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم.. بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته، ولو أخذهم بما كسبت أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة، أما الظالم فبظلمه، وأما غيره فبشؤمه كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ لكنه سبحانه يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى، ثم سلى رسوله ﷺ على ما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم، فقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك فكذبوهم، فلك بهم أسوة، فلا يحزننك تكذيبهم، ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[4]: ما أخرجه ابن جرير عن داود بن أبي هند قال: نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أبي جندل بن سهيل.

وقال ابن الجوزي[5]: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت فيه على ثلاثة أقوال:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) لباب النقول.
(٥) زاد المسير.

أحدها: أنها نزلت في ستةٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، بلال وعمار وصهيب وخباب بن الأرت وعابس وجبير موليان لقريش، أخذهم أهل مكة فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو، قاله داود بن أبي هند.

والثالث: أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا...﴾ الآية، قال[1] المفسرون في سبب نزول هذه الآية إنه لما أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث إلينا ملكاً.. نزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: أنَّ رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾؛ أي: فارقوا أهاليهم وديارهم وأوطانهم، من مكة إلى الحبشة أو إلى المدينة ﴿فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في شأن الله ورضاه وفي حقه والتمكين من طاعته، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى اللام مع حذف مضاف؛ أي: لإظهار دين الله ونصرته ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ وعذِّبوا وأُهينوا في مكة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾؛ أي: لننزلنهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ تبوئةً ﴿حَسَنَةٗ﴾؛ أي: تنزيلاً طيباً في أرض طيبة كريمة، فهو صفة لمصدر محذوف، أو مباءة حسنة ومنزلاً طيباً، وهي المدينة المنورة حيث آواهم أهلها ونصروهم، يقال[3] بوَّاه منزلاً أنزله، والمباءة المنزل، فهي منصوبة على الظرفية، أو على أنها مفعول ثان إن كان لنبوئنهم بمعنى لنعطينهم، وهم[4]

---

(١) زاد المسير.
(٢) زاد المسير.
(٣) روح البيان.
(٤) المراح.

رسول الله ﷺ وأصحابه الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم، فهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وعلى هذا يكون نزول الآية في أصحاب الهجرتين، فيكون نزولها في المدينة بين الهجرتين، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه الآية في ستةٍ من الصحابة: صهيب وبلال وعمار وخبَّاب وعابس وجبير، أخذهم المشركون يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر، فأما بلال فيخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر، ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة، وهو يقول: أحد أحد، فاشتراه منهم أبو بكر وأعتقه، وأما صهيب فقال: أنا رجل كبير، إن كنت معكم.. لم أنفعكم، وإن كنت عليكم.. لم أضركم فافتدى منهم وهاجر، وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر، فتركوا عذابهم ثم هاجروا، فبسبب هجرتهم ظهرت قوة الإسلام، كما أن بنصرة الأنصار قويت شوكتهم، فلذلك غلبوا على أهل مكة وعلى العرب قاطبةً، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أكبر.

والمعنى: أي[1] والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله ونيلاً لمرضاته، من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم، لنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها، إذ هم لمَّا تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله.. عوَّضهم الله خيراً منها في الدنيا، فمكَّن لهم في البلاد، وحكَّمهم في رقاب العباد، وصاروا أمراء وحكاماً، وكان كل منهم للمتقين إماماً.

ثم أخبر سبحانه أنَّ ثوابه لهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعد لهم في مقابلة الهجرة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا؛ أي: ولثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله في الآخرة أكبر وأعظم من الأجر الكائن في الدنيا، لأنَّ ثوابه إياهم هنالك الجنة، التي لا يفنى

---

(١) المراغي.

نعيمها ولا يزول خيرها، وفي «المدارك» الوقف لازم عليه لأنّ جواب قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ محذوف، والضمير للكفار؛ أي: لو علم الكفار أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين.. لوافقوهم في الدين، ويجوز[1] أن يعود إلى المهاجرين.

والمعنى: لو كان المهاجرون يعلمون ما أعدَّ الله لهم في الآخرة.. لزادوا في الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين.

هؤلاء المهاجرون هم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أذية الكفار، ومفارقة الأهل والوطن، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون في أمورهم، منقطعين إليه، معرضين عما سواه، مفوضين الأمر كله إليه تعالى، والتعبير[2] بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة، وجملة التوكل معطوفة على الصلة أو في محل النصب على الحال.

والمعنى: أي[3] هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا القهقرى، وعلى مفارقة الوطن المحبوب، لا سيما حرم الله المحبوب لكل قلب مؤمن، فكيف لمن كان مسقط رأسه، وعلى بذل الروح في ذات الله، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسبٍ ولا جوارٍ في دار، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل ما سواه.

وسبب قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾، لأن مشركي قريش لما بلَّغهم النبي ﷺ الرسالة، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى.. أنكروا ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، ولو أراد أن يبعث إلينا رسولاً.. لبعث من الملائكة الذين عنده، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد إلى الأمم الماضية رسلاً للدعوة إلى توحيدنا، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ أي: إلا ذكوراً بالغين آدميين لا نساءً، إذ مبنى أحوالهن على الستر، والنبوة تقتضي الظهور، ولا صبياناً لعدم

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

كمالهم، ونبوة عيسى في المهد لا تنافيه إذ الرسالة أخص، قال ابن الجوزي اشتراط الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء، ولا ملائكة لاختلاف الجنس، وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾؛ أي: إلى الملائكة أو إلى الأنبياء ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ على ألسنة الملائكة في الأغلب وأكثر الأمر، وفيه[1] إشارة إلى أن الرسالة النبوة والولاية لا تسكن إلا في قلوب الرجال الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله.

والمعنى[2]: أي وما أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والانتهاء إلى أمرنا إلا رجالاً من بني آدم نوحي إليهم لا ملائكة، ومجمل القول: إنا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم؛ أي: رسلاً من جنسهم وعلى منهاجهم، روى الضحاك عن ابن عباس: الله لمَّا بعث محمداً ﷺ. . أنكر العرب ذلك وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُوحَى﴾ بالياء وفتح الحاء، وقرأت فرقة: بالياء وكسرها، وقرأ عبد الله والسلمي وطلحة وحفص عن عاصم: بالنون وكسرها.

ولمَّا[4] كان كفار مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل. . صرف الخطاب إليهم، وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾ يا معشر قريش إن شككتم في ذلك ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: أهل العلم بذلك؛ أي: علماء أهل الكتاب، ليخبروكم أن الله تعالى لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً، وكانوا يشاورونهم في بعض الأمور، ولذلك أحالهم إلى هؤلاء للإلزام؛ أي: فإذا أخبروكم بذلك. . زالت الشبهة من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

قلوبكم، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الرسل من البشر.

والمعنى: أي فاسألوا[1] أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكةً؟ فإن كانوا ملائكةً.. أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجالاً؛ أي: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً متلبسين بالمعجزات الباهرة، الدالَّة على صدق من يدعي الرسالة، كعصا موسى، وناقة صالح، ومتلبسين بالكتب المشتملة على التكاليف الشرعية، التي يبلغونها من الله تعالى إلى العباد، كالتوراة والإنجيل، والبينات جمع بينة، وهي المعجزة الواضحة، والزبر جمع زبور، وهو الكتاب بمعنى المزبور؛ أي: المكتوب.

أي: وما أرسلنا رسلاً من قبلك إلا رجالاً متلبسين بالأدلة والحجج، التي تشهد لهم بصدق نبوتهم، وبالكتب التي تشمل على التكاليف والشرائع التي يبلغونها من الله إلى العباد.

وقيل: في الكلام[2] تقديم وتأخير، والتقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً، وقيل: يتعلق بمحذوف دلَّ عليه المذكور؛ أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، وقيل: متعلق بتعلمون على أنه مفعوله والباء زائدة؛ أي: إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر، وقيل: متعلق بنوحي؛ أي: نوحي إليهم بالبينات والزبر، وقيل: منصوب بتقدير: أعني، والباء زائدة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: وأنزلنا عليك يا محمد القرآن منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع، وإنما سمّاه ذكراً لأن فيه مواعظ وتنبيهاً للغافلين؛ يعني: أنه سبب[3] الذكر، فأطلق عليه اسم المسبب، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافةً العرب والعجم ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع، وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب، حسب أعمالهم الموجبة لذلك

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

على وجه التفصيل بياناً شافياً، كما ينبىء عنه صيغة التفعيل في الفعلين، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما نُزِّل إليهم، فينتبهوا لما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب.

والمعنى: أي[1] وأنزلنا إليك القرآن تذكيراً وعظةً للناس، لتُعرِّفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرائع، وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام، وتفصل لهم ما أجمل بحسب مراتبهم في الاستعداد والفهم لأسرار التشريع، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: وتوقعاً منك وانتظاراً لتفكرهم في هاتيك الأسرار والعبر، وإبعاداً لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين، حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم.

ثم حذرهم وخوفهم مغبة ما هم فيه من العصيان والكفر فقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والهمزة[2] فيه للاستفهام التوبيخي التقريعي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف المنسحب عليه النظم الكريم؛ أي: أنزلنا إليك الذكر لتبين لهم مضمونه، الذي من جملته أنباء الأمم المهلكة بفنون العذاب، ولم يتفكروا في ذلك؛ أي: ألم يتفكروا ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اهـ «أبو السعود». والتقدير: أيُعْرِضُ الذين فعلوا المكرات السيئات برسول الله ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله، أو إخراجه من مكة كما ذكر في الأنفال، ومكروا بأصحابه حين راموا صدهم عن الإيمان عن التذكر في هذا الذكر المشتمل على أنباء الأمم المهلكة؛ أي: أأعرض هؤلاء الماكرون عن التفكر فيه فأمنوا ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أن يغور الله بهم الأرض، حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى، كما فعل بقارون وأصحابه، والإنكار[3] موجه إلى المعطوفين معاً.

وذكر بعضهم أن الكركي لا يطأ الأرض بقدميه بل بإحداهما، فإذا وطئها.. لم يعتمد عليها خوفاً أن تخسف الأرض، فإذا لم يأمن الطير من الخسف.. فما

---

(١) المراغي.
(٢) أبو السعود.
(٣) روح البيان.

بال الإنسان العاقل يمشي على الأرض وهو غافل انتهى.

﴿أَوْ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: عذاب الاستئصال ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به؛ أي: من جهة لا تخطر ببالهم، فيهلكهم بغتةً كما فعل بقوم لوط وغيرهم، ﴿أَوْ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ الله سبحانه بالعقوبة ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: في حالة تحركهم في أسفارهم إقبالاً وإدباراً، فهو حال من المفعول؛ أي: حالة كونهم متقلِّبين في أسفارهم، والتقلب الحركة إقبالاً وإدباراً اهـ «شهاب»، فإنَّه سبحانه[1] وتعالى قادر على أن يهلكهم في السفر، كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض، وبعدهم عن الأوطان، وقيل: المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجود الحيل، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم، وقيل: في حال تقلبهم في الليل على فرشهم، وقيل: في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، وقيل غير ذلك.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: فإذا أخذهم بالعقوبة بأيِّ سبب وفي أيِّ حالةٍ.. فما هم بناجين من عذاب الله القهار، سابقين قضاءه بالهرب والفرار على ما يوهمه التقلب والسير في الديار.

﴿أَوْ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى بالعذاب حالة كونهم ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وتوقع؛ أي: مخافة من وقوع العذاب، بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه، غير غافلين عنه، بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا، فيأتيهم الله به وهم متخوفون، وقيل: معنى ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: على تنقصٍ، قال ابن الأعرابي: أي تنقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات.

والمعنى[2]: أو يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، ولا يهلكهم في حالة واحدة، فيكون المراد مما قبله عذاب الاستئصال، ومنه الأخذ شيئاً فشيئاً، والمراد بذكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله تعالى على إهلاكهم بأيِّ وجهٍ كان، لا الحصر فيها.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾، أيها العباد، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بكم حيث لا يعاجلكم بالعقوبة، ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث لا يأخذكم في الحال ويتوب عليكم في المآل، ويجازي توبتكم بالفضل والنوال، ولمَّا[1] كان تعالى قادراً على هذه الأمور، ولم يعاجلهم بها.. ناسب وصفه بالرأفة والرحمة.

وحاصل المعنى: أي[2] أفأمن الذين مكروا برسول الله ﷺ من أهل مكة وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله تعالى أن يصيبهم بعقوبة من عنده:

١ ـ إمَّا بأن يخسف بهم الأرض، ويبيدهم من صفحة الوجود، كما فعل بقارون من قبل.

٢ ـ وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لا يشعرون، كما صنع بقوم لوط.

٣ ـ وإمَّا بأن يأخذهم بعقوبة وهم في أسفارهم يكدحون في الأرض ابتغاء الرزق، وما هم بممتنعين عليه فائتين له بالهرب والفرار كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ وقال ﷺ: «إن الله تعالى لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ».

٤ ـ وإمَّا بأن يخيفهم أوَّلاً، ثم يعذبهم بعد ذلك، بأن يهلك طائفة فتخاف التي تليها، حتى يأتي عليهم جميعاً، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشة، وختم الآية بما ختم به لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجل، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل، وفي ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها تلافي التقصير، وهذا من آثار رحمته بعباده.

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة[3] فيه للإنكار المضمن للتوبيخ، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والرؤية هي البصرية المؤدِّية إلى التفكر، والضمير لكفار مكة؛ أي: ألم ينظروا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ويروا ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان لـ ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: من كل شيء له ظل، ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾؛ أي: يتقلص ويتحول وينتقل ظلاله شيئاً فشيئاً من جانب إلى جانب، وتدور من موضع إلى موضع، حسبما تقتضيه إرادة الخالق، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾؛ أي: عن جهة أيمانها وشمائلها؛ أي: عن[1] جانبي كل واحد منها، أو عن يمين الفلك وهو جهة المشرق، وعن شمائل الفلك وهي جهات المغرب، وأفرد اليمين باعتبار لفظ ما، وجمع الشمائل باعتبار معناها، وقيل إنما[2] وحد اليمين وجمع الشمائل لأن مذهب العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن يلغى واحد ويكتفى بأحدهما، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كذا في الأسئلة المقحمة.

والحاصل: أن الهمزة في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ للإنكار، كما مرَّ آنفاً، وهي داخلة في الحقيقة على النفي، وإنكار النفي نفيٌ له، ونفي النفي إثبات.

والمعنى: قد رأى هؤلاء الذين مكروا السيئات من أهل مكة أمثال هذه الصنائع، فما لهم لم يتفكروا فيه، ليظهر لهم كمال قدرته تعالى وقهره، فيخافوا منه حالة كون تلك الظلال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: ساجدين لله، دائرين على مراد الله تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيُّؤ، وقوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حال من الضمير المستتر في ﴿سُجَّدًا﴾، فهي حال متداخلة؛ أي: خاضعون صاغرون من الدخور وهو الصغار والذل؛ أي: والحال أن أصحابها من الأجرام داخرة؛ أي: صاغرة منقادة لحكمه تعالى، ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به؛ أي: ألم ينظر[3] أهل مكة ولم يروا بأبصارهم إلى جسم قائم له ظل من جبل وشجر وبناء يرجع ظلاله من المشرق ومن المغرب واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد، وهم داخرون؛ أي: منقادون لقدرة الله تعالى وتدبيره، ولما وصفت الظلال بالانقياد لأمره

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

تعالى. . أشبهت العقلاء، فعبّر عنها بلفظ من يعقل، لأن الدخور من خصائصهم، أو لأن من جملة ذلك من يعقل فغلب.

والخلاصة: أي[1] ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال، التي تتفيَّأ ظلالها وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل، فهي في أوَّل النهار على حالٍ، ثم تتقلص، ثم تعود إلى حال أخرى في آخر النهار، مائلةً من جانب إلى جانب ومن ناحيةٍ إلى أخرى صاغرة منقادة لربها خاضعة لقدرته.

وقرأ السُّلمي والأعرج والأخوان حمزة والكسائي[2]: ﴿أولم تروا﴾ بتاء الخطاب إما على العموم للخلق استؤنف به الإخبار، وإما على معنى قل لهم، إذا كان خطاباً خاصًّا، وقرأ باقي السبعة: بالياء على الغيبة، واحتمل أيضاً أن يعود الضمير على الذين مكروا، واحتمل أن يكون إخباراً عن المكلفين، والأول أظهر لتقدم ذكرهم، وقرأ أبو عمرو وعيسى ويعقوب: ﴿تَتَفَيَّؤُ﴾ بالتاء على التأنيث، وباقي السبعة بالياء.

وقرأ الجمهور: ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ جمع ظل، وقرأ عيسى: ﴿ظُلَلُه﴾ جمع ظُلَّة، كحُلَّةٍ وحُلَلٍ، والرؤية هنا رؤية القلب التي يقع بها الاعتبار، ولكنها بواسطة رؤية العين.

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سلف فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده لا لغيره، فالقصر[3] فيه قصر قلب وإفراد كما سيأتي في مبحث البلاغة، ﴿يَسْجُدُ﴾؛ أي: يخضع وينقاد، قال العلماء: السجود على نوعين سجود طاعة وعبادةٍ كسجود المسلم، وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال. ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من العلويات قاطبةً، ودخل فيه الشمس والقمر والنجوم ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كائناً ما كان ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لما في الأرض؛ أي: من كل دابة تدب عليها، فإن قوله تعالى:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ يدل[1] على اختصاص الدابة بما في الأرض، لأنَّ ما في السماء لا يخلق بطريق التوالد، وليس لهم دبيبٌ، بل لهم أجنحة يطيرون بها، والظاهر أن الطيران لا ينافي الدبيب، وقد قيل إن في السماء خلقاً يدبون ودبيبه لا يستلزم كونه مخلوقاً من الماء المعهود، إذ من الماء كل شيء حيٍّ، فيكون ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ بياناً لما في السماء والأرض، و﴿ما﴾ عام للعقلاء وغيرهم، وفي «الأسئلة المقحمة»: أن ما لا يعقل أكثر عدداً ممن يعقل، فغلب جانب ما لا يعقل لأنه أكثر عدداً، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على ما في السموات، عطف جبريل على الملائكة تعظيماً وإجلالاً، ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الملائكة مع علو شأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا يتعظمون عن عبادته والسجود له، بل يتذللون، فكل شيء بين يدي صانعه ساجدٌ بسجود يلائم حاله، كما أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحاً يلائم حاله، فتسبيح بعضهم بلسان القال، وتسبيح بعضهم بلسان الحال، والله يعلم لسان حالهم، كما يعلم لسان قالهم، وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

والمعنى: أي ولله[2] يخضع ما في السموات وما في الأرض مما يدب عليها، وكذلك ملائكته الذين في السماء، وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: مَالِكَ أمرهم، والجملة حال من الضمير في: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾، حال من ربهم؛ أي: يخافونه تعالى خوف هيبةٍ وإجلال، وهو فوقهم بالقهر لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، أو يخافون أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، فهو متعلق بـ﴿يَخَافُونَ﴾ ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾؛ أي: الملائكة ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: ما يأمرهم الخالق به من الطاعات والتدبيرات، من غير تثاقل عنه وتوانٍ فيه، فبواطنهم وظواهرهم مبرأة من الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة، وفيه أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وبين الخوف والرجاء.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وحمل[1] هذه الجمل على الملائكة أولى من حمله على جميع من تقدم ذكره، لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده.

والمعنى: أي[2] يخاف هؤلاء الملائكة والدواب التي في الأرض ربهم، الذي هو من فوقهم بالقوة والقهر، أن يعذبهم إن عصوه، ويفعلون ما أمرهم به، فيؤدون حقوقه ويجتنبون سخطه، ونحو الآية قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾.

ومجمل القول: أنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه تدين له المخلوقات بأسرها، جمادها ونباتها وحيوانها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها.

ولما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له خاضعة لجلاله.. أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى لجميع المكلفين ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيد لما فهم من إلهين من التثنية، يعني نفسه والأصنام ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: معبود واحد لا شريك له في ذاته وصفاته، ولا شبيه له في أفعاله.

وقد قيل[3]: إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية، والإفراد في إله قد دل على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، ووصف إله بواحد؟

فقيل في الجواب: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين، إنما هو واحد إلهٌ، وقيل: إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك، وقيل: إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الوحدانية، مع

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية.

وعبارة «النسفي» هنا: فإن قلت[1]: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا: عندي رجال ثلاثة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد؛ فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان.

قلتُ: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دالٌ على شيئين، على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعني به منهما هو العدد.. شفع بما يؤكد، فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية.

﴿فَإِيَّىَ﴾ لا غيري ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ أي: فخافون؛ أي: إن كنتم راهبين شيئاً.. فارهبوني لا غيري، فإني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والأرض، فالفاء واقعة في جواب شرط محذوف.

والمعنى: أي[2] وقال الله سبحانه لعباده لا تتخذوا لي شريكاً ولا تعبدوا سواي، فإنكم إذا عبدتم معي غيري.. جعلتموه لي شريكاً، ولا شريك لي إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذاك، فاتقوني وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي بإشراككم بي غيري، أو عبادتكم سواي.

وإنَّما ذكر[3] العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه للدلالة على أنَّ المنهي عنه هي الاثنينية، وإنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أنَّ المقصود إثبات الواحدانية، وأنها من لوازم الألوهية، أما الألوهية فغير منكرة ولا منازع فيها، كما مر ذلك آنفاً عن الشوكاني والنسفي.

والخلاصة: أنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وأنه الذي يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة إليه.. ذكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه، فقال: وله سبحانه وتعالىٰ خلقاً وملكاً ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿و﴾ ما في ﴿الأرض﴾ من الجن والإنس وغيرها ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلدِّينُ﴾؛ أي: الطاعة والانقياد من كل شيء في السموات والأرض وما بينهما، ﴿وَاصِبًاۚ﴾ حال من ﴿ٱلدِّينُ﴾؛ أي: حالة كون الدين واصباً؛ أي: واجباً لله على خلقه، ثابتاً دائماً لا زوال له، لأنه الإله وحده الواجب أن يرهب منه، والهمزة في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع المضمن للإنكار[1] داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أي أبعد العلم بما ذكر من التوحيد واختصاص الكل به خلقاً وملكاً غير الله تطيعون فتتقون.

والمعنى: أي فبعد[2] أن علمتم هذا ترهبون غير الله، وتحذرون أن يسلبكم نعمةً، أو يجلب لكم أذى، أو ينزل بكم نقمة إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم، وأفردتم الطاعة له، وما لكم نافع سواه، وإجمال ذلك أنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد، وعرفتم أن كل ما سواه فهو في حاجة إليه في وجوده وبقائه، كيف يعقل أن يكون لامرىء رغبة أو رهبةً من غيره تعالى.

ولما بين أن الواجب أن لا يتقى غير الله.. ذكر أنه يجب أن لا يشكر إلا هو فقال: ﴿وَمَا بِكُم﴾؛ أي: أي شيء يلابسكم ويصاحبكم ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾؛ أي: نعمة كانت على اختلاف أنواعها كالغنى وصحة الجسم والخصب ونحوها ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: فهي من قبل الله تعالى، فـ ﴿ما﴾ شرطية[3] أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن ملابسة النعمة بهم سبب للإخبار بأنها منه تعالى، لا لحصولها منه، والنعمة[4] إما دينية، وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية، كالعادات

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه، فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه.

ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾؛ أي: الفقر والبلاء في جسدكم والقحط ونحوها مساساً يسيراً، ﴿فَإِلَيْهِ﴾؛ أي: فإلى الله لا إلى غيره ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾؛ أي: تتضرعون في كشفه، فلا كاشف له إلا هو، والجؤار[1]: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ﴾ الله تعالى ﴿الضُّرَّ﴾ الذي نزل بكم وأزاله ﴿عَنكُمْ﴾؛ أي: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر، ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنكُم﴾ وهم كفاركم ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كشف عنهم الضر ﴿يُشْرِكُونَ﴾ فيجعلون معه إلهاً آخر من صنم أو نحوه، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء، حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ بعبادة غيره ﴿بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: بما أعطيناهم من نعمة كشف الضر عنهم ﴿لام﴾ كي؛ أي: لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر، حتى[2] كأنَّ هذا الكفران منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرضٌ لهم، ومقصد من مقاصدهم، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية، ففي ﴿اللام﴾ استعارة تبعية كما سيأتي، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ من الكفران، وقيل: ﴿اللام﴾ للعاقبة، يعني: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفران.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم فيه من ذلك بقية آجالكم؛ أي: فعيشوا وانتفعوا بمتاع الحياة الدنيا أياماً قليلةً، وهو أمر تهديد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم، وما يحل بكم في هذه الدار، وما تصيرون إليه في الدار الآخرة.

وحاصل معنى الآيات[3]: أي ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ في أبدانكم من عافيةٍ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

وصحةٍ وسلامة، وفي أموالكم من نماءٍ وزيادةٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فالله هو المنعم بها عليكم، والمتفضل بها لا سواه، فبيده الخير، وهو على كل شيء قدير، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم المتواصلة، وإحسانه الدائم الذي لا ينقطع، ولقد أجاد من قال:

أَحْسِنْ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ فَطَالَمَا ٱسْتَعْبَدَ ٱلإِنْسَانَ إِحْسَانُ

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: ثم إذا أصابكم في أبدانكم سقم ومرض، أو حاجة عارضة أو شدة وجهد في العيش ووسائل الحياة. ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾؛ أي: فإليه تصرخون بالدعاء، وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم، علماً منكم أنه لا يقدر على إزالة ذلك إلا هو، ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾؛ أي: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض في أبدانكم، أو شدةٍ في معاشكم بتفريج البلاء عنكم.. إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكاً في العبادة، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكراً لغير من أنعم بالفرج وأزال من الضر.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يجحدوا نعم الله عليهم، وأنه هو المسدي لها، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم، وقد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم وخبث طويتهم، وبما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان، فجحدوا فضل الملك الديان، وإحسان صاحب الطول والإحسان، ثم توعدهم على سوء صنيعهم، وأبان لهم عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فتمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقت لحياتكم وتمتعكم فيها، وبعدئذٍ ستصيرون إلى ربكم فتعلمون عند لقائه وبال ما كسبت أيديكم، وسوء مغبة أعمالكم، وتندمون حين لا ينفع الندم.

وقرأ أبو العالية[1]: ﴿فَيُمْتَعُوا﴾ بالياء من تحت مضمومة مبنياً للمفعول

(١) البحر المحيط.

ساكن الميم، وهو مضارع متع مخففاً، وهو معطوف على ليكفروا، وقرأ: ﴿فسوف يعلمون﴾ بالياء على الغيبة وقد رواهما مكحول الشامي عن أبي رافع مولى النبي ﷺ، والتمتع هنا بالحياة الدنيا ومآلها إلى الزوال.

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾؛ أي: كفار مكة بعد ما وقع منهم الجؤار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم، وبعد ما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي للأصنام التي لا يعلم الكفار حقيقتها وقدرها الخسيس، ويعتقدون فيها أنها تنفع وتضر، وتشفع عند الله تعالى، وقيل: المعنى: أنهم؛ أي: الكفار يجعلون للأصنام وهم ـ أي الأصنام ـ لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هي الأصنام، وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون جرياً على اعتقاد الكفار فيها.

وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً ﴿نَصِيبًا﴾؛ أي: حظًّا وجزءاً ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: من الأموال التي رزقناهم إياها من الزرع والأنعام وغيرهما تقرباً إليها، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ وهي؛ أي: الأصنام لا تشعر أجعلوا لها نصيباً وحظاً في أنعامهم وزروعهم أم لا، ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أيها الكفار يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا، وتختلقونه من الكذب على الله تعالى بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب إليها؛ أي: أقسم لأسألنكم عما افتريتموه واختلقتموه من الباطل، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة تكون كفاء كفرانكم نعمي وافترائكم عليَّ، ونحو الآية: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر من قبائحهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾؛ أي: وينسب بعض الكفار البنات إلى الله سبحانه، ويقولون: الملائكة بنات الله، وهم خزاعة وكنانة، وإنَّما[1] أطلقوا لفظ البنات على الملائكة

(١) الخازن.

لاستتارهم عن العيون كالنساء، أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم، ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزيها له تعالى عن البنات والبنين، وعن كل ما لا يليق به من صفات الحدوث، نزه سبحانه نفسه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة، ولا أفهام مستقيمة، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل، وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم، ﴿و﴾ يجعلون ﴿لهم﴾؛ أي: لأنفسهم ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: ما يحبونه؛ أي: ويختارون لأنفسهم الأولاد الذكور، على أنَّ ﴿ما﴾ في محل النصب بالفعل المقدر، ويجوز أن تكون في محل رفع بالابتداء، والظرف المقدم خبره، والجملة حالية، وأنكر النصب الزجاج، وأجازه الفراء.

والمعنى: أي[1] ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين وعظيم أباطيلهم أنهم يجعلون لمن خلقهم، ودبر شؤونهم، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه البنات، إذ قالت خزاعة: الملائكة بنات الله، كما قال عزَّ اسمه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ وعبدوها مع الله، وقد أخطؤوا في ذلك خطأ كبيراً، وضلوا ضلالاً بعيداً، إذ نسبوا إليه الأولاد، ولا أولاد له، وأعطوه منها أخسها وهي البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، بل لا يرضون إلا البنين، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

قال ابن عباس: يقول سبحانه: تجعلون لي البنات ترضونهن لي ولا ترضونهن لأنفسكم، ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ أي: أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات، ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي: بولادة أنثى؛ أي: أُخبر بولادة أنثى له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾؛ أي: صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾؛ أي: متغيِّر[2] اللون بما يحصل له من الغم وانكسار القلب، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والتغير الذي يحصل بسبب الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غماً وحزناً، قاله الزجاج، وقال الماوردي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير، وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: ظل وجهه مسودًّا، والحال أنه مملوء غضباً على المرأة، لأجل ولادتها الأنثى، ومن هنا[1] أخذ المعبرون من رأى أو روئي له أن وجهه اسودَّ، فإن امرأته تلد أنثى، أو ممتلىءٌ من الغم غيظاً وخنقاً، قال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: يتغيب ويختفي ويستتر من قومه، ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: من أجل سوء المبشر به، ومن أجل تعييرهم له بها، والتعبير عنها بـ ﴿ما﴾ لإسقاطها عن درجة العقلاء؛ أي: يختفي[2] منهم من أجل كراهية الأنثى التي بشر وأخبر بها، من حيث كونها لا تكتسب، وكونها يخاف عليها الزنا، وكان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بأمرته.. اختفى عن القوم، إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً.. فرح به، وإن كان أنثى.. حزن ولم يظهر للناس أيّاماً، يدبر فيها ماذا يصنع بها، وذلك قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ تذكير الضمير باعتبار لفظ ﴿ما﴾؛ أي: أيمسك ذلك المولود ويتركه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: مع ذُلٍّ وتعيير يلحقه بسببها؛ أي: يحفظ ما بشر به من الأنثى، ويتركه بلا دفْنٍ مع رضاه بذل نفسه، فقوله: ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ إمَّا[3] حال من الفاعل؛ أي: يمسكها مع رضاه بهوان نفس، أو من المفعول، أي: يمسكها مهانة ذليلة للعمل والاستقاء والخدمة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ ويخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد؛ أي: دفنها حية؛ أي: إذا بشر أحدهم بالأنثى.. يكون متردداً بين أمرين، إما أن يمسكه على هون، وإما أن

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

يدسه في التراب، فيفعل ما ظهر له من الأمرين، فالعرب[1] كانوا مختلفين في قتل البنات، فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها، وهم كانوا يفعلون ذلك تارةً للغيرة والحمية، وتارةً خوفاً من الفقر ولزوم النفقة، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن يهجر بعضهم البيت الذي فيه المرأة إذا ولدت أنثى، ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿سَآءَ﴾ لإنشاء الذم؛ أي: انتهبوا واستمعوا ما أقول لكم: ساء وقبح ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ما يحكم هؤلاء المشركون في حق الله تعالى، وفي حق أنفسهم، حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه، وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم، والمخصوص بالذم حكمهم هذا.

والمعنى: أي وإذا[2] بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى.. ظل وجهه مسوداً كئيباً من الهم، ممتلئاً غيظاً وخنقاً من شدة ما هو فيه من الحزن، يتوارى من الناس خجلاً واستحياءً، ولا يود أن يراه أحد من مساءته بما بشِّر بها، ويدور بخلده أحد أمرين: إما أن يمسكها ويبقيها بقاء ذلة وهوان، فلا يورثها ولا يعنى بها، بل يفضل الذكور عليها، وإما أن يدسها في التراب، ويدفنها وهي حية، وذلك هو الوأد المذكور، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

ومعنى قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئس[3] ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، فإنهم بالغوا في استنكاف من البنت من وجوه:

١ ـ اسوداد الوجه.

٢ ـ الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها.

٣ ـ أنهم يقدمون على قتلها ووأدها خشية العار، أو خوف الجوع والفقر.

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

وقرأ الجحدري[1]: ﴿أيمسكها على هوان أم يدسها﴾ بالتأنيث عوداً على قوله: بالأنثى، أو على معنى ما بُشِّر به، ووافقه عيسى على قراءة، هوان على وزن فعال، وقرأت فرقة: ﴿أيمسكه﴾ بضمير التذكير ﴿أم يَدُسُّها﴾ بضمير التأنيث، وقرأت فرقة: ﴿على هون﴾ بفتح الهاء، وقرأ الأعمش: ﴿على سوء﴾، وهي عندي تفسير لا قراءة، لمخالفتها السواد المجمع عليه.

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: للذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين الذين ذكرت قبائحهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الصفة القبيحة من حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم، ووأدهم للبنات خشية العار أو الفقر، وذلك يومىء إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الصفة العليا العجيبة الشأن، وهي صفة الألوهية المنزهة عن صفات المخلوقين، وهي أنه الواحد المنزه عن الولد، وأنه لا إله إلاّ هو، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المنيع الذي لا يغالب، فلا يضره نسبتهم إليه ما لا يليق به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة.

ثم لمَّا حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم.. بين سعة كرمه وحلمه، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يؤاخذهم بظلمهم فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ فاعل هنا بمعنى فعل؛ أي: ولو أخذ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: الكفار أو جميع العصاة ﴿بِظُلْمِهِم﴾؛ أي: بسبب كفرهم ومعاصيهم.. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الأرض المدلول عليها بالناس، وبقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، لأنها ما يدب على الأرض، وتقول العرب[2]: فلان أفضل من عليها، وفلان أكرم من تحتها، فيردون الكناية إلى الأرض والسماء من غير سبق ذكر، لظهور الأمر بين يدي كل

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

متكلم وسامع، ولم يقل على ظهرها احترازاً من الجمع بين الظاءين في كلام واحد، وهو ﴿لَوْ﴾ وجوابه، فإنه ثقيل في كلام العرب.

والمعنى: أي ولو يؤاخذ الله كفار بني آدم وعصاتهم بكفرهم ومعاصيهم.. ما ترك على ظهر الأرض دابةً تدب عليها، بل أهلكها بالكلية، بشؤم ظلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ فهلاك الدواب بآجالها، وهلاك الناس عقوبة.

وأخرج البيهقي وغيره عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إنّ الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: لا والله، بل إن الحبارى في وكرها لتموت من ظلم الظالم.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم.. لأصاب العذاب جميع الخلائق، حتى الجُعْلان في جحرها، ولأمسكت السماء عن الإمطار، ولكن أخرهم بالعفو والفضل، ثم تلا هذه الآية.

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة الكفرة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى أجل معين معلوم، سماه الله وعينه لعذابهم أو لأعمارهم؛ كي يكثر عذابهم، أو يتوالدوا ويتناسلوا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل؛ أي: لا يستأخرون، وصيغة استفعل هنا للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له، ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: أقصر وقت، وهو مثل في القلة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه ساعة؛ أي: لا يتقدمون عليه، وإنما[1] تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجيء الأجل مبالغة في عدم الاستئخار بنظمه في سلك ما يمتنع.

والمعنى: فإذا جاء الوقت الذي وقت لهلاكهم.. لا يتأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون، ولا يتقدمون قبله، حتى يستوفوا أعمارهم، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ سبحانه

---

(١) روح البيان.

وتعالى؛ أي: يجعل هؤلاء المشركون لله تعالى وينسبون إليه سبحانه ﴿مَا يَكْرَهُونَۚ﴾ لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿تصف﴾؛ أي: تقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مفعول تصف، وهو أي ذلك الكذب: ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ عند الله تعالى ﴿ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾؛ أي: العاقبة الحسنى، وهي الجنة على تقدير وجودها إن كان البعث حقاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ﴾، فلا ينافي قولهم: لا يبعث الله من يموت، فإنه يكفي في صحته الفرض والتقدير، وجملة أنَّ مع معموليها بدل كل من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾.

والمعنى: ويكذبون[1] فيما يدعون، إذ يزعمون أن لهم العاقبة الحسنى عند الله، وهي الجنة على تقدير وجودها، فقد روي أنهم قالوا إن كان محمدٌ صادقاً في البعث.. فلنا الجنة بما نحن عليه، فرد الله عليهم مقالهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حق وثبت ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: كون عذاب النار لهم بدل ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى، ﴿و﴾ لا جرم ﴿أنهم مفرطون﴾؛ أي: مقدمون إلى النار معجلون إليها، أو متروكون منسيون فيها. وقرأ[2] الحسن ومجاهد: ﴿باختلاف ألسنْتهم﴾ بإسكان التاء، وهي لغة تميم، جمع لساناً المذكر، نحو حمار وأحمرة، وفي التأنيث ألسن كذراع وأذرع، وقرأ معاذ بن جبل وبعض أهل الشام: ﴿الكذب﴾ بضم الكاف والذال والباء صفة للألسن، جمع كذوب كصبور وصبر، وهو مقيس، أو جمع كاذب كشارفٍ وشرفٍ، ولا ينقاس وعلى هذه القراءة ﴿أنَّ لهم﴾ مفعول تصف، وقر الحسن وعيسى بن عمر: ﴿إنَّ لهم﴾ بكسر الهمزة، وإنَّ جواب قسم أغنت عنه لا جرم، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو رجاء وشيبة ونافع وأكثر أهل المدينة: ﴿مُفْرِطُون﴾ بكسر الراء، من أفرط حقيقةً؛ أي: متجاوزين الحد في معاصي الله، وباقي السبعة والحسن والأعرج وأصحاب ابن عباس ونافع في رواية: بفتح الراء، من أفرطته إلى كذا قدمته، معدى بالهمزة، من فرط إلى كذا تقدم إليه، وقرأ أبو جعفر: ﴿مفرِّطون﴾ مشدد من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فرط؛ أي:. مقصرون مضيعون، وعنه أيضاً فتح الراء وشدها؛ أي: مقدمون من فرطته المعدى بالتضعيف من فرط بمعنى تقدم.

ثم بين[1] سبحانه أنَّ هذا الصنيع الذي صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم السالفة في حق أنبيائهم، فقال مسلّياً رسوله على ما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: والله لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به إلى أمتك من الدعاء إلى توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، وخلع الأنداد والأوثان ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: فحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، من الكفر بالله والتكذيب بالرسل وعبادة الأوثان، فكذبوا رسلهم، وردوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم، وما كان ناصرهم فيما اختاروا إلا الشيطان، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾؛ أي: ناصرهم وقرينهم ومتولي أمورهم ﴿الْيَوْمَ﴾؛ أي: في الدنيا بإغوائهم وإضلالهم، وبئس الناصر والقرين، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هو عذاب النار حين ورودهم إلى ربهم، إذ لا تنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان، كما لا تنفعهم في الدنيا، وعبارة «الشوكاني» هنا: ويحتمل[2] أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الولي بمعنى الناصر، والمراد نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصراً فيه.. لزم أن لا نصرة من غيره، ويحتمل يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين:

الأول: أن يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية.

والثاني: أن يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول الآية، والمراد تزيين

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

الشيطان لكفار قريش، فيكون الضمير في ﴿وليهم﴾ لكفار قريش؛ أي فهو ولي هؤلاء اليوم، أو على حذف.

الإعراب

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿هَاجَرُواْ﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿هَاجَرُواْ﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿هَاجَرُواْ﴾ وحرف الجر ﴿فِي﴾ للتعليل؛ أي: لإقامة دين الله ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور متعلقان بحال ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿ظُلِمُواْ﴾: فعل وفاعل و﴿مَا﴾ المصدرية مؤولة مع مدخولها بمصدر مضاف إلى بعد؛ أي: من بعد ظلمهم بالأذى من أهل مكة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿نبوئنهم﴾: فعل ومفعول به، وجملة ﴿نبوئنهم﴾ خبر اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: جار ومجرور متعلقان بحال ﴿حَسَنَةٗۖ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: ثبوته حسنة، فهي نائب مفعول مطلق، ولك أن تقربها مفعولاً ثانياً لـ﴿نبوئنهم﴾ لتضمن معناه نعطينهم، فتكون صفة لمحذوف، أي: داراً حسنة ﴿وَلَأَجۡرُ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، و﴿اللام﴾ للابتداء ﴿أجر﴾: مبتدأ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: مضاف إليه ﴿أَكۡبَرُۚ﴾: خبر ﴿لَوۡ﴾ شرطية ﴿كَانُوٓاْ﴾ ماض ناقص، والواو اسمها وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف، تقديره: لوافقوهم في الدين، وجملة ﴿لَوۡ﴾ مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم الذين، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿صَبَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوف على ﴿صَبَرُواْ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿نُّوحِيٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿إِلَيۡهِمۡۚ﴾: متعلق به، وجملة ﴿نُّوحِيٓ﴾ صفة لـ﴿رِجَالًا﴾. ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر، تقديره: إن شككتم فيما ذكر.. فاسألوا أهل الذكر، ﴿اسألوا أهل الذكر﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجزم بالشرط، وجملة الشرط المقدر مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ ﴿أن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف تقديره: إن كنتم لا تعلمون ذلك فإنهم يعلمونه، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿رِجَالًا﴾ ﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾: معطوف على البينات؛ أي: رجالاً متلبسين بالبينات الزبر، وهذا أحسن الأعاريب فيه، السالم من الاعتراض كما ذكره الزمخشري، ﴿وَأَنزَلۡنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تبين﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتَبِيينِكَ للناس، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أنزلنا﴾ ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ ﴿نُزِّلَ﴾، وجملة ﴿نُزِّلَ﴾ صلةٌ لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ في محل جر بلام التعليل المقدرة، تقديره: ولإرادة تفكرهم فيه، لأن

لعلَّ مستعارة هنا لمعنى الإرادة، والجار المقدر معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ والتقدير: وأنزلنا إليك الذكر لتبيينك لهم ولإرادة تفكرهم فيه.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا في الذكر فأمِنَ الذين مكروا السيئات إلخ، ﴿أمن الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿بِهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً به لأمن؛ أي: أفأمنوا خسف الله تعالى بهم الأرض، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾ والتقدير: أو إتيان العذاب إياهم. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ ﴿حَيْثُ﴾ مضاف وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لحيث.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير المفعول؛ أي: أو يأخذهم حال كونهم متقلبين في أسفارهم ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر، تقديره: فإذا أخذهم بالعقوبة بأي سبب ﴿ما﴾: حجازية، ﴿هُم﴾: اسمها، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: خبرها، والجملة الاسمية جواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير المفعول، تقديره: حالة كونهم خائفين، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية لمحذوف تقديره:

إنما لم يعاجلكم الله بهذه العقوبات لأن ربكم إلخ، ﴿إن ربكم لرؤوف﴾: ناصب واسمه وخبره و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿رَّحِيمٌ﴾: صفة ﴿رؤوف﴾، أو خبر ثان لـ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ذلك المحذوف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يروا، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لم يروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿إِلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق به، ضمنه معنى نظر فعداه بـ ﴿إِلَىٰ﴾ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلى ما خلقه الله، ﴿مِن شَىْءٍ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مَا﴾ أو من الضمير المحذوف، ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾: فعل وفاعل، والجملة صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: متعلق بـ ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾ ﴿سُجَّدًا﴾: حال من الظلال، ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿سُجَّدًا﴾ ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿سُجَّدًا﴾، فهي حال متداخلة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لله﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَسْجُدُ﴾ ﴿يَسْجُدُ مَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور، صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: حال من ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ عطف خاص على عام، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿الملائكة﴾. ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مِّن

﴿فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿رَبَّهُم﴾، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَخَافُونَ﴾، ﴿يُؤْمَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يؤمرون به.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾: إلى آخر الآيات مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، واتخذ هنا يتعدى إلى مفعول واحد، لأنه بمعنى لا تعبدوا، ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾: صفة مؤكدة لـ ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿هُوَ إِلَٰهٞ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَٰحِدٞ﴾: صفة ﴿إِلَٰهٞ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون، ﴿إياي﴾: ضمير نصب منفصل في محل النصب بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: فإياي ارهبوا، والجملة المحذوفة جواب الشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿النون﴾: نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿وَاصِبًا﴾: حال من ﴿ٱلدِّينُ﴾ ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف،

والتقدير: أبعد العلم بما ذكر من التوحيد غير الله تطيعون فتتقون، ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، وتلك المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿بِكُم﴾: جار ومجرور صلة ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: وما وصل بكم، ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ أو من الضمير المُسْتَكِنِ في الظرف، ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة في الخبر لشبه المبتدأ بأسماء الشروط في العموم ﴿من الله﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجمل التي قبلها، على كونها مقول ﴿قال﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَإِلَيْهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً، ﴿إليه﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ولكن ما بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية لا يعمل فيما قبلها، وفي «السمين»: وفي الآية دليل على أن إذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها، لأن ما بعد إذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها اهـ. ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة الجواب بالشرط وجوباً، ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنكُم﴾: صفته، ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها مقول

﴿قال﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يكفروا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدرمجرور باللام، تقديره: لكفرانهم بما أعطيناهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: إياه، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إذا المقدرة، تقديره: إذا عرفت يا محمد حالهم هذا وأردت بيان ما تقول لهم.. فأقول لك قل لهم تمتعوا إلخ ﴿تمتعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف استقبال وتنفيس، ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف تقديره: عاقبة ما تصيرون إليه، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تمتعوا﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وفي «أبي السعود»: لعلها معطوفة على ما سبق بحسب المعنى: يفعلون ما يفعلون من اللجوء إلى الله تعالى عند مس الضر، ومن الإشراك به عندك كشفه ويجعلون إلخ اهـ، ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يجعلون﴾، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: للأصنام التي لا تعلم عبادتهم إياها، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول ﴿يجعلون﴾، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور، صفة لـ ﴿نَصِيبًا﴾، ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما رزقناهم إياه، ﴿تَاللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالله، وجملة القسم المحذوف مستأنفة، ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿تسألن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع

وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، أصله: لتسألونن، و﴿واو﴾ الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تسألن﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لسأل، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَفْتَرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما كنتم تفترونه، ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يجعلون﴾ الأول، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾ مفعول ﴿يجعلون﴾، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبِّحُ الله سبحاناً، وجملة التسبيح جملة معترضة، ﴿وَلَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشتهونه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يجعلون﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿إذا﴾، ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿بُشِّرَ﴾، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿وَجْهُهُۥ﴾، وجملة ﴿ظَلَّ﴾ جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من ضمير ﴿وَجْهُهُۥ﴾، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿مِن سُوٓءِ﴾ فلا يعترض بامتناع تعلق حرفي جر متحدي اللفظ بعامل واحد لاختلاف معناهما، فإن الأولى

للابتداء، والثانية للعلة؛ أي: من أجل سوء ما بشر به اهـ «سمين»، ﴿سُوٓءِ﴾: مضاف، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه، ﴿بُشِّرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ ﴿الهمزة﴾: حرف استفهام يطلب بها وبأم تعيين أحد الأمرين، ﴿يمسكه﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾ ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: جار ومجرور، إما حال من فاعل ﴿يمسكه﴾؛ أي: حالة كون الأحد متلبساً بهون نفسه وذلها، أو حال من المفعول؛ أي: حالة كون الأنثى متلبسة بهون وذل، وجملة ﴿يمسكه﴾ في محل النصب معمول لمحذوف حال من فاعل ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾، والتقدير: يتوارى ذلك الأحد من الناس حالة كونه مفكراً، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ﴿أَمۡ﴾: عاطفة متصلة، ﴿يَدُسُّهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أحد﴾. ﴿فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه، ﴿سَآءَ﴾. فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على شيء تقديره: ساء الشيء، ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب تمييز لفاعل ﴿سَآءَ﴾، وجملة ﴿يَحۡكُمُونَ﴾ صفة لـ ﴿مَا﴾، والرابط محذوف تقديره: ساء الشيء شيئاً يحكمونه، وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف وجوباً تقديره: حكمهم هذا، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: صفة أو خبر ثان.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِظُلۡمِهِم﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوۡ﴾، ﴿مَّا﴾:

نافية، ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: مفعول به لـ ﴿تَرَكَ﴾ و﴿مِن﴾ زائدة، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ حرف استدراك، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلق به، ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة ﴿أَجَلٍ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه يؤخرهم إل أجل مسمى وأردت بيان حالهم وقت مجيء الأجل.. فأقول لك إذا جاء أجلهم، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿سَاعَةً﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، وجملة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿جعل﴾، وجملة ﴿يَكْرَهُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يكرهونه، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يجعلون﴾، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿لَهُمُ﴾: خبرها مقدم، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من المفعول أعني ﴿ٱلْكَذِبَ﴾؛ أي: وتصف ألسنتهم الكذب كون الحسنى لهم، أو مرفوع على كونه خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: وهو كون الحسنى لهم، ﴿لَا جَرَمَ﴾: مركب مزجي بمعنى حق كما في

«الفتوحات»، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿لَهُمُ﴾: خبرها مقدم، ﴿ٱلنَّارَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لـ ﴿جَرَمَ﴾، والتقدير: حق كون النار لهم، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾،

﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة، ﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة لقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم، ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾، ﴿فَزَيَّنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿زين﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل، ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة مفرَّعة على جملة ﴿زيّن﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿وَلِيُّهُمُ﴾، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾: خبر ومبتدأ، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم العلل، ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي، ﴿تبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّذِى﴾: مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: وما أنزلنا عليك الكتاب لعلة من العلل إلا لتبيينك لهم الذي اختلفوا فيه، ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على محل ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: تنازع فيه ﴿هدى ورحمة﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: لننزلنهم[1] في الدنيا مباءة حسنة، وهي المدينة المنورة، يقال بوأه منزلاً أنزله فيه، والمباءة المنزل، فهي منصوبة على الظرفية، أو على أنها مفعول ثان إن كان لنبوأنهم في معنى لنعطينهم، ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: علماء أهل الكتاب ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ البينات جمع بينة، وهي المعجزات الدالة على صدق الرسول، والزبر جمع زبور بمعنى مزبور؛ أي: مكتوب، كرسل جمع رسول، وهي كتب الشرائع والتكاليف التي يبلغها الرسل إلى العباد، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن سمي به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لتوضح لهم ما خفي عليهم من أسرار التشريع بياناً شافياً، وصيغة التفعيل في الفعلين يدل على تكرار البيان والنزول كما هو كذلك، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والتفكر تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ والمكر السعي بالفساد خفية، والسيئات جمع سيئة، وهي الأعمال التي تسوؤهم عاقبتها، ﴿يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: يغورها ويزيلها من الوجود وهم على سطحها، يقال: خسف[2] المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً؛ أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وخسف هو في الأرض وخسف به، ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: في أسفارهم وسيرهم في البلاد البعيدة، للسعي في أرزاقهم، كما قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ وفي «القاموس»: تقلب في الأمور تصرف كيف شاء انتهى، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار، ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ والتخوف التنقص، من قولهم: تخوفت الشيء إذا تنقصته، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلاً حتى يأتي عليها الفناء جميعاً، قال في «القاموس» تخوف الشيء تنقصه، ومنه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

تَخَوُّفٍ﴾ انتهى، وقال لبيد:

تَـخَـوَّفَـهَـا نُـزُوْلِـيْ وَٱرْتِـحَـالِـيْ

أي: تَنَقَّص لحمَها وشحمَها.

ولقي رجل أعرابياً فقال: يا فلان ما فعل دَينك؟ فقال: تخوفته، يعني تنقصته.

﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ﴾؛ أي: ينتقل من جانب إلى آخر، وفي «السمين»: والتَّفيُّؤ[1] تفعل من فاء يفيء إذا رجع، وفاء قاصر فإذا أريد تعديته عدي بالهمزة، كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أو بالتضعيف نحو فيأ الله الظل فتفيأ، وتفيأ مطاوع فيَّأ، فهو لازمٌ، واختلف في الفيء، فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده، وهو الموافق لمعنى الآية هنا، وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظلٌ فقط، وما كان بعده فهو ظل وفيء، فالظل أعم، وقيل بل يختص الظل بما كان قبل الزوال، والفيء بما بعده، فالفيء لا يكون إلا بالعشي، وهو ما انصرفت عنه الشمس، والظل ما يكون بالغداة، وهو ما لم تنله اهـ.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ واليمين والشمائل جانبا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها، والشمائل جمع شمال بالكسر ضد اليمين، وبالفتح الريح التي مهبها بين مطلع الشمس وبنات نعش، أو من مطلع الشمس إلى مسقط النسر الطائر، كما في «القاموس».

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع، وفي «المختار»: سجد إذا خضع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض، وبابه دخل اهـ، والمراد بالسجود هنا الانقياد والخضوع، من قولهم: سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل، ومنه قوله:

وَٱسْجُدْ لِقِرْدِ ٱلسُّوْءِ فِيْ زَمَانِهِ

---

(١) الفتوحات.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ أي: صاغرون منقادون، واحدهم داخرٌ، وهو الذي يفعل ما تأمره به شاء أو أبى، يقال دخر كمنع وفرح دخوراً ودخراً إذا صغر وذل وأدخره كما في «القاموس». ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: عقابه ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾؛ أي: بالقهر والغلبة، كما قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾؛ أي: ثابتاً واجباً دائماً لا يزول، والدين هو الطاعة والإخلاص وقال الفراء: ﴿وَاصِبًا﴾ معناه دائماً، ومنه قول الدُّؤلي:

لاَ أَبْتَغِيْ الْحَمْدَ الْقَلِيلَ بَقَاؤُهُ بِذَمٍّ يَكُوْنُ الدَّهْرَ أَجْمَعَ وَاصِبَا

يقال: وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب إذا دام، ووصب الرجل على الأمر إذا واظب عليه، وقيل الوصب التعب والإعياء، وفي «المصباح»: وصب الشيء بالفتح وصوباً دام، ووصب الدين وجب، وفي «القاموس»: ووصب بالفتح يصب بالكسر وصوباً دام وثبت كأوصب، وعلى الأمر.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط، وكل ما يتضرر به الإنسان، ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ من جأر يجأر جؤاراً، وأصل الجؤار صياح الوحش، ثم استعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، وفي «الفتوحات»: الجؤار بوزن زكام رفع الصوت بالدعاء في كشف المضار، وفي «القاموس»: جأر ـ كمنع ـ جأراً وجؤاراً بوزن غراب، رفع صوته بالدعاء، وتضرع واستغاث، والبقرة والثور صاحا، والنبات جؤاراً طال، والأرض طال نبتها اهـ.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾؛ أي: صار من الظلول بمعنى الصيرورة، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها، أو هو بمعناه يقال ظل يفعل كذا إذافعله نهاراً؛ أي: دام النهار كله مسودًّا، لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، ويتأخر إخبار المولود إلى النهار، وخصوصاً بالأنثى، فيظل نهاره مسودًّا، واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في «المصباح»: كظمت الغيظ كظماً ـ من باب ضرب ـ وكظوماً، إذا أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ، وفي التنزيل:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وربما قيل: كظمت على الغيظ، وكظمني الغيظ فأنا كظيم ومكظوم، وكظم البعير كظوماً لم يجتر، وقال الأخفش: الكظيم هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه من الغم، مأخوذ من الكظامة، وهو سد فم البئر، قاله عليٌّ بن عيسى.

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾؛ أي: يختفي ويتغيب، وقد كان من عادتهم في الجاهلية أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته، فإن أخبر بذكر.. ابتهج، وإن أخبر بأنثى.. حزن وبقي متوارياً أياماً يدبر فيها ما يصنع، ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾؛ أي: يحفظه ويحبسه، كقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، ﴿هُونٍ﴾ الهون الهوان والذل بلغة قريش، وحكي عن الكسائي: أنه البلاء والشدة، قالت الخنساء:

نُهِيْنُ ٱلنُّفُوْسَ وَهَوْنُ ٱلنُّفُوْسِ   يَوْمَ ٱلْكَرِيهَةِ أَبْقَىٰ لَهَا

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ يقال: دس الشيء في الشيء إذا أخفاه، ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الصفة السوىء، وهي احتياجهم إلى الولد وكراهتهم للبنات، خوف الفقر والعار، والمثل بمعنى الصفة، والسوء بمعنى السؤى، بوزن موسى، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الصفة العليا، وهي أنه لا إله إلا هو، وأن له جميع صفات الجلال والكمال، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ فاعل هنا بمعنى فعل الثلاثي؛ أي: أخذ، ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ أي: لا يتأخرون، وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له، ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: أقصر وقت، وهي مثل في قلة المدة كما مر، ﴿لَا جَرَمَ﴾: تركيب مزجي من ﴿لا﴾ و﴿جَرَم﴾، ومعناه الفعل؛ أي: حق وثبت، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: مقدمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطته إذا قدمته في طلب الماء، أو متروكون في النار، من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته خلفك، والفارط هو الذي يتقدم إلى الماء، والفُرَّاط المتقدمون في طلب الماء، والوُرَّاد المتأخرون، ومنه ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»؛ أي: متقدِّمكم، قال القطاميُّ:

فَٱسْتَعْجَلُوْنَا وَكَانُوْا مِنْ صَحَابَتِنَا   كَمَا تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ

وفي «المختار»: وفرط القوم سبقهم إلى الماء، فهو فارط، والجمع فراط بوزن كُتَّان، وبابه نصر، وأفرطه إذا تركه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: متروكون في النار منسيون، وأفرط في الأمر؛ أي: جاوز فيه الحدَّ. اهـ، وفي «القاموس»: وأفرط فلاناً تركه وتقدمه، وجاوز الحد، وأعجل بالأمر، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: منسيون متروكون في النار، أو مقدّمون معجلون إليها، وقرىء بكسر الراء؛ أي: مجاوزون لما حد لهم اهـ، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾؛ أي: ناصرهم ومساعدهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ وفي «الفتوحات»: لفظ اليوم المعرف بأل إنما يستعمل حقيقة في الزمان الحاضر المقارن للتكلم، كالآن وحينئذٍ، فلفظ اليوم في الآية يحتمل أنه إشارةٌ إلى وقت تزيين الشيطان الأعمال للأمم الماضية، فيحتاج لتأويل، بأن يقال: إنه على حكاية الحال الماضية، حيث عبر عن الزمان الماضي بلفظ اليوم الموضوع للزمن الحاضر، ويحتمل أنه إشارةٌ إلى يوم القيامة، فيحتاج إلى التأويل أيضاً، بأن يقال: إنه على حكاية الحال الآتية حيث عبر عن الزمان الذي سيحصل بما هو موضوع للحاضر المقارن، ويحتمل أن يشار إلى مدة الدنيا من حيث هي، وعلى هذا لا حاجة إلى تأويل أصلاً، لأنّ مدة الدنيا كالوقت الحاضر، بالنسبة للآخرة، فتلخص أن الاحتمالات ثلاثة، وأنه يحتاج إلى التأويل على الأول والثاني دون الثالث، وفي «أبي السعود»: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾؛ أي: قرينهم اليوم؛ أي: يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه، على طريقة حكاية الحال الماضية، أو في الدنيا، أو يوم القيامة على طريقة حكاية الحال الآتية، وهي حال كونهم معذّبين في النار اهـ. ومثله في «البيضاوي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير عن الماضي بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لاستحضار صورة توكلهم البديعة، وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن فعولاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾.

ومنها: قصر القلب أو الإفراد في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾؛ أي: له تعالى وحده لا لغيره استقلالاً واشتراكاً.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ زيادة في التعظيم والتبجيل للملائكة الأطهار.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر؛ أي: لا تخافوا غيري، لأنه أبلغ في الرغبة من قوله: فإيّاه فارهبوه، فإن الترهيب في التكلم المنتقل إليه أزيد، ثم التفت من التكلم إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ كما في «الكرخي».

ومنها: إيراد الصيغة الخاصة بالعقلاء في غيرهم في قوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لأن الدخور من خصائصهم تنزيلاً له منزلتهم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ و﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فلفظة سبحانه معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح.

ومنها: التهديد والوعيد في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ لأنه كناية عن كونها كاذبة، قال الشهاب: وهذا من بليغ الكلام وبديعه؛ أي: ألسنتهم كاذبة كقولهم: عينها تصف السحر؛ أي: ساحرة، وقدها يصف الهيف؛ أي: هيفاء.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ فإن لفظ اثنين تأكيد لما فهم من

إلهين من التثنية.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن لعل هنا مستعارٌ لمعنى الإرادة.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وفي قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾.

ومنها: الطباق بين النعمة والضر في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾.

ومنها: التأكيد بالقسم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ لأن اسوداد الوجه كناية عن شدة الاغتمام.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، لأن معناه الصفة السؤى.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إن أريد باليوم زمن تزيين الأعمال للأمم الماضية، حيث عبر عن الزمن الماضي بلفظ اليوم الموضوع للزمن الحاضر، ويمكن كونه من حكاية الحال الآتية كما مَرَّ في مبحث التصريف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وعد[1] المؤمنين بجنات تجري من تحتها

---

(١) المراغي.

الأنهار، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الإشراك بربهم، ونسبة البنات إليه، وافترائهم عليه ما لم ينزّل به سلطاناً.. عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحى في الدين الإسلامي، وفي كل دين سماوي؛ ويليه إثبات النبوّات والبعث والجزاء، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام، وثلث باتخاذ الخمر لخلٍّ، والدبس من الأعناب والنخيل، وربع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس، وقد بين ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فجٍّ.

وقال ابن عطية: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أمره بتبيين[1] ما اختلف فيه.. قص العبر المؤدية إلى بيان أمر الربوبية، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر، وهي ملاك الحياة، وهي في غاية الظهور، ولا يختلف فيها عاقل انتهى.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[2] إنزال الكتاب للتبيين كان القرآن حياة الأرواح وشفاء لما في الصدور من علل العقائد، ولذلك ختم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون، والتصديق محله القلب، فكذا إنزال المطر الذي هو حياة الأجسام وسببٌ لبقائها، ثم أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَهُ﴾ فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل، وكذلك ختم بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ هذا التشبيه المشار إليه والمعنى سماع إنصاف وتدبر، ولملاحظة هذا المعنى والله أعلم لم يختم بقوم يبصرون وإن كان إنزال المطر مما يبصر ويشاهد.

ولمَّا ذكر إحياء الأرض بعد موتها.. ذكر ما ينشأ عن المطر، وهو حياة الأنعام التي هي مألوف العرب بما يتناوله من النبات الناشىء عن المطر، ونبَّه على العبرة العظيمة، وهو خروج البن من بين فرث ودم.

---

(١) ابن عطية.　　(٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ. . .﴾ **الآيات**، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] عجائب أحوال الحيوان وما فيها من نعمةٍ للإنسان، كالأنعام التي يتخذ من ضرعها اللبن، والنحل التي يشتار منها العسل، ويؤخذ منها الشمع للإضاءة.. أردف ذلك بيان أحوال الناس، فذكر مراتب أعمارهم، وأن منهم من يموت وهو صغير، ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر، ويصير نسَّاء لا يحفظ شيئاً، وفي ذلك دليل على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم، وهي تفضيل بعضهم على بعض في الرزق، فقد يرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفني عمره في طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له، بينا يرى أقل الناس علماً وفهماً تتفتح له أبواب السماء، ويأتيه الرزق من كل صوب، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

ومِن الدَّليلِ على القَضَاءِ وكَوْنِه بُؤْسُ اللَّبِيب وطِيْبُ عَيْشِ الأحْمِق

ثم ثلث بذكر نعمةٍ ثالثةٍ عليهم إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم، وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة، ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات، كالثمار والحبوب والأشربة، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها، وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر تعالى تلك الآيات التي في الأنعام والثمرات والنحل.. ذكر ما نبَّهنا به على قدرته التّامة وعلمه الواسع ولذلك ختم بقوله: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لمَّا[2] بين دلائل التوحيد البيان الشافي فيما سلف.. أردف ذلك الرد على عابدي

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الأوثان والأصنام، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها:

أوَّلهما: العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والحر الكريم الغني الكثير الإنفاق سراً وجهراً، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان في نظر العقل سواء مع تساويهما في الخلق والصورة البشرية، وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغي أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال والأصنام التي لا تملك ولا تقدر على النفع والضر.

والثاني: مثل رجلين أحدهما: أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبءٌ ثقيلٌ على سيده، وثانيهما: حول قلب ناطق كامل القدرة، أيستويان لدى أرباب الفكر أو استوائهما في البشرية، وإذاً فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين في الألوهية والعبادة.

وقال أبو حيان: مناسبة ضرب هذا المثل[1]: أنه لما بين تعالى ضلالهم في إشراكهم بالله تعالى غيره، وهو لا يجلب نفعاً ولا ضراً لنفسه ولا لعابده.. ضرب لهم مثلاً قصة عبدٍ في ملك غيره عاجز عن التصرف، وحر غني متصرف فيما آتاه الله، فإذا كان هذان لا يستويان عندكم، مع كونهما من جنس واحد ومشتركين في الإنسانية، فكيف تشركون بالله وتسوون به من هو مخلوق له مقهور بقدرته من آدمي وغيره، مع تباين الأوصاف، وأن موجد الوجود لا يمكن أن يشبهه شيء من خلقه، ولا يمكن لعاقل أن يشبِّه به غيره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[2] سبحانه وتعالى لمَّا مثل نفسه عز وجل بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، ومستحيل أن يكون كذلك إلاّ إذا كان كامل العلم والقدرة.. أردف ذلك بما يدل على كمال علمه، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له، وبما يدل على كمال قدرته، فذكر أن قيام الساعة في السرعة كلمح البصر أو أقرب، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده، وأنه الفاعل المختار، فذكر منها خلق الإنسان في أطواره المختلفة، ثم الطير المسخّر بين

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

السماء والأرض، وكيف جعله يطير بجناحين في جو السماء، ما يمسكه إلاّ هو بكامل قدرته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا . . .﴾ الآية، أخرج[1] ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ قال: نزلت في عثمان ومولى له، كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: أنَّ كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ متى الساعة، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل، وقال ابن السائب: المراد بالغيب ها هنا قيام الساعة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى السحاب ومنه إلى الأرض ﴿مَآءً﴾ أي نوعاً خاصاً من الماء، وهو المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾؛ أي: بسبب المطر ﴿الأَرْضَ﴾ بأنوع النباتات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ويبسها؛ أي: بعد أن كانت يابسة لا حياة بها، وما تفيده[3] الفاء من التعقيب العادي لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهملة، لأن التعقيب في كل شيء بحسبه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض الميتة به ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعلامة دالة على وحدانيته تعالى، وعلمه وقدرته وحكمته، إذ الأصنام وغيرها لا تقدر على شيء ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر وإنصاف، فكأن من ليس كذلك أصم لا يسمع، فالمراد سمع القلوب

---

(١) لباب النقول.

(٢) زاد المسير.

(٣) روح البيان.

لا سمع الآذان.

وقال بعضهم: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: قرآناً وهو سبب حياة المؤمنين فأحيا به القلوب الميتة بالجهل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ القرآن بسمع يسمع به كلام الله من الله، فإن الله تعالى متكلم بكلام أزلي أبداً، ولا يسمع كلامه إلا من أكرمه الله بسمع يسمع كلامه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

وعلامة[1] السامعين لكلام الله تعالى المتحقِّقين في سماعهم انقيادهم إلى كل عمل مقرب إلى الله تعالى من جهة سماعه؛ أعني من التكليف المتوجه على الأذن من أمر أو نهي كسماعه للعلم، والذكر والثناء على الحق تعالى، والموعظة الحسنة والقول الحسن، ومن علامتهم أيضاً التصامم عن سماع الغيبة والبهتان، والسوء من القول، والخوض في آيات الله، والرفث والجدال، وسماع القينات والملاهي، وكل محرم حجر الشارع عليك سماعه، نسأل الله تعالى أن يحفظنا في أسماعنا وأبصارنا وجوارحنا من كل ما يبعدنا عن الله تعالى.

والحاصل[2]: أنَّ الله سبحانه وتعالى نبَّه عباده إلى الحجج الدالة على توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه، فبين أن ذلك المعبود هو الذي أنزل من السماء مطراً، فأنبت به أنواعاً مختلفة من النبات في أرض ميتة يابسة، لا زرع فيها ولا عشب، إن في ذلك الإحياء بعد الموت لدليلاً واضحاً وحجةً قاطعة على وحدانيته تعالى، وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع، إذ لا عبرة بسماع الآذان، فهو بسماع الحيوان أشبه.

وبعد ذكر نزول الماء من السماء.. ذكر خروج اللبن من الضرع، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾، أيها الناس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم بالتحريك، وهي الأنواع الأربعة التي هي الإبل والبقر والضأن والمعز، ﴿لَعِبْرَةً﴾؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أي: لعظةً عظيمة دالة على باهر قدرتنا، إذا تفكرتم فيها، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، ومنه: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، وجملة قوله: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان تلك العبرة؛ أي: وتلك العبرة أنَّنا نسقيكم ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾؛ أي: من بعض ما في بطون المذكور من الأنعام، فمن للتبعيض، لأن اللبن بعض ما في بطونه، والضمير يعود إلى المذكور؛ أي: في بطون ما ذكرنا من الأنعام، وفي سورة المؤمنين رجع إلى لفظ الأنعام، وهنا إلى المذكور، وقال المبرد[1]: هذا فاشٍ في القرآن كثيرٌ مثل قوله للشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ يعني هذا الشيء الطالع، وكقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾، وقال ابن العربي: يجوز التذكير في الأنعام باعتبار معنى الجمع، والتأنيث باعتبار معنى الجماعة، فذكر الضمير هنا نظراً إلى معنى الجمع، وأنثه في سورة المؤمنون نظراً إلى معنى الجماعة، وقيل غير ذلك.

وقرأ ابن مسعود[2] بخلاف عنه، والحسن وزيد بن علي وابن عامر وأبو بكر ونافع وأهل المدينة: ﴿نَسْقِيكم﴾ هنا وفي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ بفتح النون، مضارع سقى يسقي، وهي لغة قريش، وباقي السبعة بضمها، من أسقى يسقي وهي لغة حمير، وجميع القراء على هاتين القراءتين، وقرأ أبو جعفر: ﴿يُسْقِيكم﴾ بلياء مضمومة، والضمير عائد على الله، وقرأت فرقة بالتاء مفتوحة، منهم أبو جعفر، على أن الضمير راجع إلى الأنعام، وهاتان القراءتان ضعيفتان، وقال الزجاج[3]: سقيته وأسقيته بمعنى واحد، وفي «الأسئلة المقحمة»: يقال أسقيته إذا جعلت له سقياً دائماً، وسقيته إذا أعطيته شربةً، وقيل: إذا كان الشراب من يد الساقي إلى فم المسقي.. يقال سقيته، وإذا كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له.. قيل: أسقاه، وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ ﴿مِنۢ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿نُسقيكم﴾ لأن بين الفرث والدم مبدأ الإسقاء، والفرث وكذا الثفل بضم الثاء المثلثة وسكون الفاء فضالة العلف وروثه في الكرش، والكرش ـ وزان كبد ـ للحيوان بمنزلة

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

المعدة للإنسان، وقوله: ﴿لَّبَنًا﴾: مفعول ثان لـ ﴿نُّسْقِيكم﴾؛ أي: نسقيكم من بين فرثها ودمها لبناً، ﴿خَالِصًا﴾؛ أي: صافياً ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾؛أي: سهل المرور في حلوق الشاربين له، حالة كونه بعض ما في بطون الأنعام، وقرأت فرقة ﴿سَيِّغاً﴾ بوزن هين، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿سَيْغاً﴾ مخففاً من سيغ كهين المخفف من هين، ذكره في «البحر»، قيل: لم يُغَص أحدٌ باللبن قط وليس في الطعام والشراب أنفع منه، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «إذا أكل أحدكم طعاماً... فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا شرب لبناً.. فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإني لا أعلم شيئاً أنفع في الطعام والشراب منه».

قال في «الكواشي»[١]: المعنى خلق الله اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم، وذلك أن الكرش إذا طبخت العلف.. صار أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً خالصاً لا يشوبه شيء، وأعلاه دماً، وبينه وبينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى، لا يختلط أحدهما بالآخر بلون ولا طعم ولا رائحة، مع شدة الإتصال، ثم تسلط الكبد على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها: فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث في الكرش، ثم ينحدر.

فإن قلت[٢]: إن الدم واللبن لا يتولدان في الكرش، إذ البهائم إذا ذبحت لم يوجد في كرشها لبنٌ ولا دم.

قلتُ: المراد كان أسفله مادة الفرث، وأوسطه مادة اللبن، وأعلاه مادة الدم، فالمنحدر إلى الضروع مادة اللبن لا مادة الدم، وقول بعضهم: إن الدم ينحدر إلى الضروع فيصير لبناً ببرودة الضرع، بدليل أن الضرع إذا كانت فيه آفة.. يخرج منه الدم مكان اللبن، مدفوعٌ بأنه يجوز أن يتلون اللبن بلون الدم بسبب الآفة، وهو اللائح بالبال، ومن بلاغات الزمخشري:

كما يحدث بين الخبيثين ابنٌ لا يؤبن ... الفرث والدم يخرج منهما اللبن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

أي: كما أن اللبن الطيب الطاهر يخرج من بين الخبيثين اللذين هما الفرث والدم، بحيث لا يشوبه شيء من أوصافهما مع كمال الاتصال والاكتناف، كذلك يخرج الابن الطيب الطاهر الذي لا يعاب بشيء أصلاً من بين الأبوين الخبيثين، بحيث لا يوجد فيه شيء من أوصافهما الخبيثة، وسئل شقيق عن الإخلاص؟ فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم.

ومعنى الآية[1]: أي وإن لكم أيها الناس لعظةً في الأنعام دالة على باهر قدرتنا، وبديع صنعنا، وواسع فضلنا ورحمتنا بعبادنا، فإننا نسقيكم مما في بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة، السهل التناول اللذيذ الطعم، وهو متولد من بين فرث ودم.

فإنَّ الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأكل من نبات ولحوم ونحوهما، حتى إذا هضم المأكول.. تحول بإذنه تعالى عصارةً نافعةً للجسم، وفضلات تطرد إلى الخارج، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذي يسري في عروق الجسم لحفظ الحياة، وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التي في الضرع، فتحولها إلى لبن، وهكذا في الجسم غدداً أخرى كالغدد الأنفية للمخاط، والغدد المنوية التي تحول الدم إلى مادة التلقيح، والغدد العينية للدمع، والغدد الفموية للبصاق.

وبعد أن ذكر سبحانه اللبن، وبين أنه جعله شراباً سائغاً للناس، ثلث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ما قبله، ونسقيكم أيها الناس من ثمرات النخيل والأعناب؛ أي: من عصيرهما، ونطعمكم من ثمارهما، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان ذلك الإسقاء والإطعام، والتقدير: أي وذلك الإسقاء والإطعام أنكم تتخذون منه؛ أي: مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب، أو من عصيرهما سكراً؛ أي: خمراً وتكرير ﴿منه﴾ تأكيد للظرف الأول، وتذكير الضمير نظراً إلى كونه بمعنى المذكور، أو لكونه راجعاً إلى المضاف المحذوف، كما قدرناه، وقال في «القاموس»: السكر محركة الخمر،

---

(١) المراغي.

ونبيذ يتخذ من الخمر اهـ. فإن قلت[1]: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل في معرض الإنعام والامتنان؟

قلت: قال العلماء في الجواب عن هذا: إنَّ هذه السورة مكية وتحريم الخمر إنما نزل في سورة المائدة وهي مدنية، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة، وهذا الجواب أولى ما قيل في هذا المقام.

أي: وذلك الإسقاء والإطعام أنكم تتخذون وتجعلون مما ذكر سكراً وخمراً، ﴿و﴾ تتخذون من ثمارها ﴿رزقاً حسناً﴾؛ أي: طيباً كالتمر والزبيب والدبس والخل.

قال بعضهم[2]: انظر إلى الإخبار عن نعمة اللبن ونعمة السكر والرزق الحسن، لما كان اللبن لا يحتاج إلى معالجة الناس.. أخبر عن نفسه بقوله: ﴿نُّسْقِيكُم﴾، ولما كان السكر والزرق الحسن.. يحتاج إلى معالجة من الناس قال: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، فأخبر عنهم باتخاذهم منه السكر والرزق، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإسقاء والإطعام ﴿لَآيَةً﴾ باهرة على قدرته تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل، فيعلمون أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله تعالى، ولما كان مفتتح الكلام: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾.. ناسب الختم بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول، كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ذكره في «البحر».

ولمَّا ذكر[3] الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته، من إخراج اللبن من بين فرث ودم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب.. ذكر في هذه الآية إخراج العسل الذي جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهي النحلة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ أي: إلى ذباب العسل وزنبوره؛ أي: ألهمها وقذف في قلبها

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

وعلمها بوجه لا يعلمه إلا هو تعالى، نظير قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾.

والخطاب فيه للنبي ﷺ، والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر، يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته، وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته.

وأصل الوحي الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، ويقال الكلمة الإلهية التي يلقيها الله تعالى إلى أنبيائه وحيٌ، وإلى أوليائه إلهامٌ، وتسخير الطير لما خلق له وحي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ أي: أنه تعالى سخَّرها لما خلقها له، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة، التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وذلك أن النحل تبني بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال.. لكان فيما بينها خلل، ولما حصل المقصود، فألهمها الله سبحانه وتعالى أن تبنيها على هذا الشكل المسدس، الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة.

وألهمها الله تعالى أيضاً أن تجعل عليها أميراً كبيراً نافذ الحكم فيها، وهي تطيعه وتمتثل أمره، ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها خلقة، ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها، كذا حكاها الجوهري، وألهمها[1] الله سبحانه وتعالى أيضاً أن جعلت على باب كل خلية بواباً، لا يمكن غير أهلها من الدخول إليها، وألهمها الله تعالى أيضاً أنها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها ولا تضل عنها، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة.. دل ذلك على الإلهام الإلهي، فكان ذلك شبيهاً بالوحي، فلذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وقرأ ابن وثاب: ﴿النَّحل﴾

---

(١) الخازن.

بفتح الحاء ذكره في «البحر».

أي: وألهم[1] ربك النحل، وألقى في روعها وعلَّمها أعمالاً يتخيل منها أنها ذوات عقول، وقد تتبع علماء المواليد أحوالها، وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور:

١ ـ أنها تعيش جماعات كبيرة، قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية.

٢ ـ أن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو اليعسوب، وهي أكبرهم جثة، وأمرها نافذٌ فيهم، وعدد يتراوح بين أربع مئة نحلة وخمس مئة يسمى الذكور، وعدد آخر من خمسة عشر ألفاً إلى خمسين ألف نحلة، ويسمى الشغالات أو العاملات.

٣ ـ تعيش هذه الفصائل الثلاث في كل خلية عيشةً تعاونية على أدق ما يكون نظاماً، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذي يخرج منه نحل الخلية كلها، فهي أم النحل، وعلى الذكور تلقيح الملكات، وليس لها عمل آخر، وعلى الشغالة خدمة الخلية، وخدمة الملكات، وخدمة الذكور، فتنطلق في المزارع طول النهار لجمع رحيق الأزهار، ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغاراً وكباراً، وتفرز الشمع الذي تبني به بيوتاً سداسية الشكل، تخزن في بعضها العسل، وفي بعض آخر منها تربي صغار النحل، ولا يمكن المهندس الحاذق أن يبني مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار، قال الجوهري: ألهمها الله تعالى أن تبني بيوتها على شكل سداس حتى لا يحصل فيه خللٌ ولا فرجةٌ ضائعة، كما عليها أن تنظف الخلية، وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها، وعليها أيضاً الدفاع عن الملكة وحراستها من الأعداء، كالنمل والزنابير وبعض الطيور.

---

(١) المراغي.

ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾؛ أي: بأن اتخذي لنفسك، فأن مصدرية، وأتى[1] بصيغة التأنيث لأن النحل يذكر ويؤنث ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾؛ أي: أوكاراً ومساكن تأوي إليها، وتسمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان، لما في بيوته المسدسة المتساوية بلا بركارٍ ولا مسطر من الحذاقة وحسن الصنعة، التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة.

و﴿مِنَ﴾[2] للتبعيض، لأنها لا تبني في كل جبل، وكذا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ لأنها لا تبني في كل شجر، وكذا في قوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ لأنها لا تبني في كل ما يعرشه الناس؛ أي: يرفعه من الأماكن لتعسل فيها، وهذا إذا كان لملاكٍ، وقال بعضهم: ومما يعرشون من كرم أو سقفٍ أو جدران أو غير ذلك، والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ بمعنى في، إذ لا معنى لكونها تبني من بناء الناس، بل الظاهر أنها تبني في بنائهم، ويكون المراد من بنائهم الكوار، ومن بنائها بيتها الذي تمج فيه العسل، فإن المشاهد أنها تبني لها بيتاً داخل الخلية من الشمع، ثم تمج فيه العسل شيئاً فشيئاً.

والمعنى: أي اجعلي لك بيوتاً في الجبال تأوين إليها، أو في الشجر، أو فيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها، وقرأ السلمي وعبيد بن نضلة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: بضم الراء في ﴿يعرشون﴾، وباقي السبعة: بكسرها، وهما لغتان، يقال يعرش بالكسر، ويعرش بالضم، مثل يعكف ويعكف ذكره في «البحر».

ولما كان أهم شيء للحيوان بعد الراحة من هم المقيل الأكل ثنى به، ولما كان عاماً في كل ثمر.. ذكره بحرف التراخي، إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسره لها، فقال: ﴿ثُمَّ كُلِى﴾، وأشار إلى كثرة الرزق بقوله: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فيها للتكثير؛ أي: ثم كلي أيتها النحل من كل ثمرة تشتهينها حلوة أو حامضة أو مرة، أو غير ذلك، فهو عام مخصوص بالعادة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿فَاسْلُكِي﴾ جواب شرط محذوف؛ أي: فإذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك.. فاسلكي؛ أي: فادخلي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في الجبال وفي خلال الشجر؛ أي: طرق ربك التي ألهمك وعرفك الرجوع فيها إلى مكانك من الخلية بعد بعدك عنها، حال كون السبل ﴿ذُلُلًا﴾؛ أي: مسهلة لك، وإن كانت وعرة في نفسها، جمع ذلول؛ أي: موطأة للسلوك مسهلة لك، وذلك أنها إذا أجدب عليها ما حولها.. سافرت إلى المواضع البعيدة في طلب النجعة، ثم ترجع إلى بيوتها من غير التباس وانحراف، وأشار باسم الرب إلى أنه لولا عظيم إحسانه في تربيتها.. لما هدت إلى ذلك.

والمعنى[1]: أي فاسلكي الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلي فيها لطلب الثمار، ولا تعسر عليك، وإن توعرت، ولا تضلي عن العودة منها وإن بعدت.

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها، لأن النعمة لأجلهم، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾؛ أي: من بطون النحل بالقيء ﴿شَرَابٌ﴾؛ أي: عسلٌ لأنه مشروب، وذلك أن النحل تأكل الأجزاء اللطيفة الطلية الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة، ثم تقيء في بيوتها ادخاراً للشتاء، فينعقد عسلاً بإذن الله تعالى.

أي: يخرج من بطونها عسلٌ ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ من أبيض[2] وأخضر وأصفر وأسود، بسبب اختلاف سنِّ النحل، فالأبيض يلقيه شباب النحل، والأصفر كهولها، والأحمر شيبها، وقد يكون الاختلاف بسب اختلاف لون النور، قال حكيم يونان لتلامذته: كونوا كالنحل في الخلايا وهي بيوتها، قالوا: وكيف النحل في خلاياها؟ قال: إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأقصته عن الخلية، لأنه يضيق المكان ويفني العسل، وإنما يعمل النشيط لا الكسل، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: مثل المؤمن النحلة تأكل طيّبا وتصنع طيّباً، ووجه المشابهة

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بينهما حذق النحل وفطنته وقلة أذاه، ومنفعته وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، وطاعته لأميره، وأن للنحل آفات تقطه عن عمله، منها الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار، وكذلك المؤمن له آفاتٌ تغيره عن عمله، ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، وماء السفه، ونار الجوى.

وجمهور المفسرين[1] على أنَّ العسل يخرج من أفواه النحل، وقيل: من أسفلها، وقيل: لا يدرى من أين يخرج منها، ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل ﴿شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾؛ أي: شفاءٌ وعافيةٌ لهم من الأوجاع التي يعرف شفاؤها منه، يعني أنَّ العسل من جملة الأشفية المشهورة النافعة لأمراض الناس، وليس المراد أنه شفاء كل مرض، كما قال في «حياة الحيوان»: قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ لا يقتضي العموم لكل علة، وفي كل إنسان، لأنه نكرةٌ في سياق الإثبات، بل المراد أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في حال دون حال.

وللعسل أسماء كثيرة[2]، منها الحافظ الأمين، لأنه يحفظ ما يودع فيه، فيحفظ الميت أبداً، واللحم ثلاثة أشهر، والفاكهة ستة أشهر، وكل ما أسرع إليه الفساد إذا وضع في العسل.. طالت مدة مقامه، وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إخراج الله سبحانه وتعالى من بطون النحل الشراب المختلف الألوان، الذي فيه شفاء للناس ﴿لَأٓيَةً﴾؛ أي: لحجةً ظاهرة دالة على القدرة الربانية ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا؛ أي: لدلالةً واضحة على أن من سخّر النحل وهداها لأكل الثمرات التي تأكلها، واتخاذها البيوت في الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس، هو الواحد القهار، الذي ليس

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

كمثله شيء، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك، ولا تصح الألوهية إلاّ له.

فصل

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري: أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ أخي استطلق بطنه، فقال له رسول الله ﷺ: «اسْقِه عسلاً» فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهب اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرىء كأنما نُشِط من عقال.

وعلل[1] هذا بعض الأطباء الماضين، قال: كان لدى هذا الرجل فَضُلاتٌ في المعدة، فلما سقاه عسلاً.. تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أنّ هذا يضره، وهو فائدة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع، وكلما سقاه حدث مثل هذا، حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، فاستمسك بطنه، وصلح مزاجه، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام.

وروى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسلٍ، أوكيَّة بنار، وأنهى أمتي عن الكَيّ».

وروي عن[2] عوف بن مالك أنه مرض فقال ائتوني بماء فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ ثم قال ائتوني بعسل، وقرأ الآية، ثم قال ائتوني بزيت من شجرة مباركة، فخلط الجميع ثم شربه فشفي، وكان بعضهم يكتحل بالعسل، ويتداوىٰ به من كل سقم، وإذا خلط العسل الذي لم يصبه ماء ولا نار ولا دخان بشيء من المسك واكتحل به.. نفع من نزول الماء في العين،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والتلطخ به يقتل القمل، والمطبوخ منه نافع للسموم، ولعقه علاجٌ لعضة الكلب، وفي العسل ثلاثة أشياء: الشفاء والحلاوة واللين.

كيف يتكون العسل؟ تمتص[1] الشغالة رحيق الأزهار فينزل ويجتمع ِفي كيسٍ في بطنها، وهناك يمتزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل، ولله در أبي العلا إذ يقول:

وَٱلنَّحْلُ يَجْنِي ٱلْمُرَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبَا   فَيَعُودُ شَهْداً فِيْ طَرِيْقِ رُضَابِهِ

ثم تعود النحلة إلى الخلية، فتفرز العسل من فمها في البيوت الشمعية، التي خصصت بتخزين العسل، وكلما امتلأ بيت منها غطاه النحل بطبقة من الشمع، وانتقل إلى بيت آخر.

شمع النحل: تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع، تخرجها من بين حلقات بطنها، ثم تمضغها بفيها حتى تلين ويسهل تشكيلها بحسب ما تريد، فتستعملها في بناء بيوتها السداسية الشكل.

فوائد النحل:

١ ـ نأخذ منها العسل الذي هو غذاءٌ لذيذ الطعم، يحوي مقداراً كبيراً من المواد المفيدة للجسم.

٢ ـ نأخذ منها الشمع الذي تصنع منه شموع الإضاءة.

٣ ـ تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً في زيادة الثمار وجودة نوعها.

وقال الزجاج: سميت نحلاً لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج منها، إذ النحلة العطية، وكفاها شرفاً قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وكلُّ ذباب في النار إلا ذباب العسل.

---

(١) المراغي.

قال في «عجائب المخلوقات»: يقال ليوم عيد الفطر يوم الرحمة، وفيه أوحى ربك إلى النحل صنعة العسل، قال في «حياة الحيوان»: يحرم أكل النحل، وإن كان العسل حلالاً، كالآدمية لبنها حلال ولحمها حرام، ويكره قتلها، وأما بيعها في الكوارة فصحيح إن يشاهد جميعها، وإلا فهو بيع غائب، فإن باعها وهي ظاهرة ففي «التتمة»: يصح؛ وفي «التهذيب» عكسه، وقال أبو حنيفة: لا يصح بيع النحل كالزنبور وسائر الحشرات، ويجوز بيع دود القزّ من الذي يصنع به، وفي الحديث: «أول نعمة ترفع من الأرض العسل».

قال القشيري[1] ـ رحمه الله ـ: إنَّ الله تعالى أجرى سنته بأن يخفي كل عزيز في شيء حقير، جعل الإبريسم في الدود، وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسل في النحل وهو أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، وأودع الذهب والفضة والفيروزج في الحجر، وكذلك أودع المعرفة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفيهم من يخطىء، وفيهم من يعصي، ومنهم من يعرف، ومنهم من يجهل أمره اهـ.

وإنما[2] خص سبحانه وتعالى النحل بالوحي، وهو الإلهام والرشد من بين سائر الحيوانات، لأنها أشبه شيء بالإنسان، لا سيما بأهل الخلوة والاعتزال، فإن من دأبهم وهجيراهم أن يتخذوا من الجبال بيوتاً اعتزالاً عن الخلق وتبتلاً إلى الله تعالى، كما كان حال النبي ﷺ، كذلك حيث كان يتحنث إلى حراء أسبوعاً وأسبوعين وشهراً، وإن من شأنهم النظافة في الموضع والملبوس والمأكول، كذلك النحل من نظافتها تضع ما في بطنها على الحجر الصافي، أو على خشب نظيف، لئلا يخالطه طين أو تراب، ولا تقعد على جيفة ولا على نجاسة، احترازاً عن التلوث، كما يحترز الإنسان عنه، وثمرات البدن الأعمال الصالحة، وثمرات النفوس الرياضات والمجاهدات ومخالفة الهوى، وثمرات

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

القلوب ترك الدنيا وطلب العقبى، والتوجه إلى حضرة المولى إلى غير ذلك، فهذه كلها أغذية الأرواح، والله تعالى قال للنحل: ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقال مثله للسالكين: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

ولمَّا ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان، وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القاهرة.. أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: أوجدكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾؛ أي: يقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، على اختلاف الأعمار صبياناً وشباناً وكهولاً، فلا يقدر الصغير على أن يؤخر، ولا الكبير على أن يقدم، وقوله: ﴿وَمِنكُم﴾ معطوف على مقدر، تقديره: فمنكم من يموت حال قوته، ومنكم ﴿مَّن يُرَدُّ﴾ ويعاد قبل وفاته ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾؛ أي: إلى أخسه وأردئه وأحقره، وهو الهرم والخرف، الذي يعود فيه كهيئته الأولى في أوان طفوليته، ضعيف البنية ناقص القوة والعقل وقليل الفهم، وليس له حد معلوم في الحقيقة، لأنه رب ابن ستين انتهى إلى أرذل العمر، ورب ابن مئة لم يرد إليه، وقال قتادة: إذا بلغ تسعين سنة.. يتعطل عن العمل والتصرف والاكتساب والحج والغزو ونحوها، ولذا دعا محمد بن علي الواسطي لنفسه فقال:

يَا رَبِّ لاَ تُحْيِنِيْ إِلَىٰ زَمَنٍ ... أَكُوْنُ فِيْهِ كَلاًّ عَلَىٰ أَحَدِ

خُذْ بِيَدِيْ قَبْلَ أَنْ أَقُوْلَ لِمَنْ ... أَلْقَاهُ عِنْدَ ٱلْقِيَامِ خُذْ بِيَدِي

وسأل[1] الحجاج رجلاً شيخاً كيف طعمك؟ قال: إذا أكلت ثقلت، وإذا تركت ضعفت، فقال: كيف نومك؟ قال: أنام في المجمع، وأسهر في المهجع، فقال: كيف قيامك وقعودك؟ قال: إذا قعدت تباعدت عني الأرض، وإذا قمت لزمتني، فقال: كيف مشيك؟ فقال: تعقلني الشعرة، وتعثرني البعرة.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ

(١) روح البيان.

﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، واعلم[1] أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع: أولاها سن النشوّ، وثانيها سن الوقوف وهو سن الشباب، وثالثها سن الإنحطاط اليسير، وهو سن الكهولة، ورابعها سن الانحطاط الظاهر، وهو سن الشيخوخة.

والمعنى[2]: أي والله سبحانه وتعالى أوجدكم أيها الناس، ولم تكونوا شيئاً أنتم ولا آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تعالى، ثم وقت أعماركم بآجال مختلفة، فمنكم من تعجل وفاته، ومنكم من يهرم ويصير إلى أرذل العمر وأخسه، فتنقص قواه، وتفسد حواسه، ويكون في عقله وقوته كالطفل كما قال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾.

أخرج البخاري وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات».

وثبت أنه ﷺ كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر.

ثم علل سبحانه رد من يرده إلى أرذل العمر بقوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ﴾ ذلك المردود ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان قد حصل له ﴿شَيْـًٔا﴾ من العلم، لا كثيراً ولا قليلاً، أو شيئاً من المعلومات، إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم، وقيل: المراد بالعلم هنا العقل، وقيل: المراد لئلا يعلم زيادةً على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك، فاللام في لكيلا جارة للمصدر، دخلت على كي الناصبة، وهي متعلقة بيرد.

والمعنى[3]: أي ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان العقل وسوء الفهم، وفي النسيان؛ أي: وإنما[4] رده إلى أرذل العمر ليعود جاهلاً كما كان حين طفولته وصباه، لا يعلم شيئاً مما كان يعلمه في شبابه، لأن الكبر قد أضعف عقله وأنساه، فلا يعلم شيئاً مما كان يعلم، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنه يكون نسَّاء، فإذا كسب علماً في شيء.. لم يلبث أن ينساه، ويزول من ساعته، فيقول لك: من هذا فلانٌ، فلا يمكث إلا هنيهةً ثم يسألك عنه مرةً أخرى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾، بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، يميت الشاب النشيط، ويبقي الهرم الفاني.

والمعنى: أي إن الله[1] سبحانه عليم بكل شيء، فيعلم وجه الحكمة في الخلق والتوفي، والرد إلى أرذل العمر، ولا ينسى شيئا من ذلك، وهو قدير على كل شيء، فلا يعجزه شيء أراده.

ومجمل القول: أن ما يعرض في الهرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى سبحانه جلَّ شأنه، فهو كامل العلم، تامُّ القدرة، لا يتغير شيءٌ منهما بمرور الأزمنة، كما يتغير علم البشر وقدرتهم.

ولمَّا ذكر سبحانه تفاوت الناس في الأعمار.. ذكر تفاوتهم في الأرزاق فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وحده ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾؛ أي: فاوت بينكم في الرزق، كما فاوت بينكم في الذكاء والبلادة، والحسن والقبح، والصحة والسقم، وقوة البدن وضفعه، فجعلكم متفاوتين فيه، فوسع على بعض عباده، حتى جعل له من الرزق ما يكفي أُلوفاً مؤلفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده، حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها، والرزق[2] ما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان من المطعومات والمشروبات، وفيه تنبيه على أن غنى المكثر ليس من كياسته ووفور عقله وكثرة سعيه، ولا فقر المقل من بلادته نقصان عقله وقلة سعيه، بل من الله تعالى ليس إلا:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقاً

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وحاصل المعنى: أي[1] والله تعالى جعلكم متفاوتين في أرزاقكم، فمنكم الغنيُّ، ومنكم الفقير، ومنكم المملوك، ومنكم المالك، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى مماليككم، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل فحسب، فكثيراً ما نرى الحول القلب، لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهيد، بينما نرى الأحمق يتقلب في نعيم العيش وزخرف الدنيا، ولله در سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِيْ تَقَلُّبِهِ   مُهَذَّبُ ٱلرَّأْيِ عَنْهُ ٱلرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَمِنْ ضَعِيْفٍ ضَعِيفُ العَقْلِ مُخْتَلِطٌ   كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ ٱلْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾؛ أي: فليس[2] الموالي الذين فضلوا في الرزق على المماليك ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾؛ أي: بمعطي رزقهم الذي رزقهم إياه، أصله رادِّين، سقطت النون للإضافة، ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وأيديهم؛ أي: على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية، «فهم»؛ أي: الملاك والمماليك ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: مستوون، لا مزية لبعضهم على بعض، وفي الفاء دلالة على ترتب التساوي على الرد؛ أي: يردون عليهم ردًّا مستتبعاً للتساوي في التصرف، والتشارك في التدبير، وإنما يردون عليهم منه شيئاً يسيراً.

والحاصل: أنهم لا يجعلون ما رزقناهم من الأموال وغيرها شركةً بينهم وبين مماليكهم، بحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم، وهم أمثالهم في البشرية والمخلوقية، فما بالهم كيف جعلوا مماليكه تعالى ومخلوقاته شركاء له، مع كمال علوه، فأين التراب ورب الأرباب.

أي: فما الذين[3] فضلوا بالرزق وهم الموالي بجاعلي رزقهم من الأموال وغيرها شركةً بينهم وبين مماليكهم، بحيث يساوونهم في التصرف فيها، ويشاركونهم في تدبيرها.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

والخلاصة: أنَّ الله جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أكثر من ما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، وتتساووا وإياهم في الملبس والمطعم والمسكن، لكنكم لم ترضوا بهذه المساوة، مع أنهم أمثالكم في البشرية والمخلوقية لله عز وجل، فما بالكم تشركون بالله فيما لا يليق إلا به من الألوهية والمعبودية بعض عباده، بل أخس مخلوقاته، وهذا مثل ضربه سبحانه لبيان قبح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام والأوثان تقريعاً لهم، وكانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك.

ونحو الآية قوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي التقريعي المضمن للإنكار[1]، وداخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد علمهم بأن الرازق هو الله تعالى يشركون به، فيجحدون نعمته، حيث يتخذون له شركاء، فإن الإشراك يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحها، فالله تعالى يدعو عباده بهذه الآية إلى التوحيد، ونفي الشرك، حتى يتخلصوا من الشرك والظلمات، ويتشرفوا بالتوحيد والأنوار العاليات.

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ أبو[2] بكر عن عاصم وأبو عبد الرحمن والأعرج بخلاف عنه: ﴿تجحدون﴾ بالتاء على الخطاب، وقراءة الغيبة أولى لأنها ظاهر السّياق.

والمعنى على قراءة الخطاب: أنكم أيها المالكون لستم برادي رزقكم على مماليككم، بل أنا الذي أرزقكم وإياهم، فلا تظنوا أنكم تعطونهم شيئاً، وإنما هو رزقي أجريه على أيديكم، أنتم وهم جميعاً سواء لا مزية لكم على مماليككم.

---

(١) أبو السعود.
(٢) البحر المحيط.

ثم ذكر ضروباً أخرى من ضروب نعمه على عباده، تنبيهاً إلى جليل إنعامه بها، إذ هي زينة الحياة فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الرجال ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾؛ أي: نساء وزوجات، لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم، ويكون أولادكم أمثالكم، ومن هنا أخذ بعض العلماء أنه يمتنع أن يتزوج المرؤ امرأة من الجن، إذ لا مجانسة بينهما، فلا مناكحة، وأكثرهم على إمكانه، ويدل عليه أن أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا، قال ابن الكلبي: كان أبوها من عظماء الملوك، فتزوج امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكت، فولدت له بلقيس، وفيه حكايات أخر في «آكام المرجان»، فإن قيل[1]: غلبة عنصر النار في الجن تمنع من أن تتكون النطفة الإنسانية في رحم الجنية لما فيها من الرطوبات، فتضمحل ثمة لشدة الحرارة النيرانية، وقس عليه نكاح الجني الإنسية.

قلت: إنهم وإن خلقوا من نار.. فليسوا بباقين على عنصرهم الناري، بل قد استحالوا عنه بالأكل والشرب والتوالد والتناسل، كما استحال بنو آدم عن عنصرهم الترابي بذلك، على أن الذي خلق من نار هو أبو الجن، كما خلق آدم أبو الإنس من تراب، وأما كل واحد من الجن غير أبيهم فليس مخلوقاً من النار، كما أن كل واحد من بني آدم ليس مخلوقاً من تراب، وذكروا أيضاً جواز المناكحة بين الإنسان وإنسان البحر، كما قال في «حياة الحيوان» إن في بحر الشام في بعض الأوقات من شكله شكل إنسان، وله لحيةٌ بيضاء، يسمونه شيخ البحر، فإذا رآه الناس.. استبشروا بالخصب.

قال الأطباء[2]: والتفاوت بين الذكر والأنثى، أنَّ الذكر أسخن مزاجاً، والأنثى أكثر رطوبة، فالمني إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الرجل، ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم.. كان الولد ذكراً تامًّا في الذكورة، وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من

(١) روح البيان.
(٢) المراح.

الرحم. . كان الولد أنثى تامًّا في الأنوثة، وإن انصب إلى الخصية اليمنى، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم. . كان الولد ذكراً في طبيعة الإناث، وإن انصبَّ إلى الخصية اليسرى، ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم. . كان الولد أنثى في طبيعة الذكور والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾؛ أي: من نسائكم وزوجاتكم؛ أي: جعل لكم منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿بَنِينَ﴾ وبنات، ولم يذكر[1] البنات لكراهتهم لهن، فلم يمتن عليهم إلا بما يحبونه، ﴿وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد وحفيد، والحفيد ولد الابن ذكراً كان أو أنثى، وولد البنت كذلك، وتخصيصه بولد الذكر، وتخصيص ولد الأنثى بالسبط، عرف طارىءٌ على أصل اللغة، والمعنى؛ أي: جعل لكم من زوجاتكم بنين وحفدة؛ أي: أولاد البنين ذكرواً كانوا أو إناثاً، وأولاد البنات كذلك، فيعم كل من المضاف والمضاف إليه لما هو معلوم أنَّ لفظ الولد يعم الذكر والأنثى، بخلاف لفظ الابن اهـ. شيخنا، وسيأتي البسط في معنى الحفيد في مباحث التصريف.

والمعنى: أي والله سبحانه جعل لكم أزواجاً من جنسكم تأنسون بهن، وتقوم بهن جميع مصالحكم، وعليهن تدبير معايشكم، وجعل لكم منهن بنين وحفدةً؛ أي: أولاد أولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضراء، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من لذيذ المطاعم والمشارب، وجميل الملابس والمساكن ما تنتفعون به إلى أقصى الحدود وأبعد الغايات، كالعسل ونحوه، و﴿مِن﴾ للتبعيض، لأن كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكفرون بالله الذي شأنه ذلك المذكور، فيؤمنون بالباطل حيث حرموا على أنفسهم طيبات

---

(١) المراغي.

أحلها الله لهم، مثل البحيرة والسائبة والوصيلة، وأباحوا لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم، وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب؛ أي: لِمَ يحكمون بتلك الأحكام الباطلة؛ أي: أيكفرون بتوحيد الله تعالى، فيؤمنون بنفع الباطل الذي هو الأصنام، فإنهم يزعمون ذلك على ما حكي عنهم بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فالباطل[1] هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع، وقيل: الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وبإنعام الله عليهم بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: يجحدون، أو المراد[2] بالباطل الأصنام وما يفضي إلى الشرك، وبنعمة الله الإسلام والقرآن وما فيه من التوحيد والأحكام، وذكر الجملة الأخيرة هنا بزيادة[3] هم فيها، وفي العنكبوت بدونها، لأنَّ ما هنا اتصل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلخ، وهو بالخطاب، ثم انتقل إلى الغيبة فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فلو ترك هم لالتبست الغيبة بالخطاب، بأن تبدل الياء تاءً اهـ «كرخي».

وقرأ الجمهور[4]: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء، وهو توقيف للرسول ﷺ على إيمانهم بالباطل، ويندرج في التوقيف المعطوف بعدها، وقرأ السلمي: بالتاء ورويت عن عاصم، وهو خطاب إنكار وتقريع لهم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه تعالى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: أصناماً لا تقدر رزقاً لهم وإعطاءً شيئاً من خزائن السموات والأرض، فلا تقدر على إنزال القطر من السموات لإحياء الميت من الأرضين، ولا تملك لهم رزقاً منها، فلا تقدر على إخراج شيء من نباتها ولا ثمارها، ولا على شيء مما ذكر في سالف

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الفتوحات.
(٤) البحر المحيط.

الآيات، مما أنعم الله به على عباده، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ معطوف على صلة ﴿مَا﴾؛ أي: ويعبدون من دون الله ما لا يستطيعون، أي: أصناماً لا تستطيع ولا تقدر أن تتملك شيئاً من أرزاق السموات والأرض لنفسها، فضلاً عن الإعطاء لهم، لأنها جماد، وفائدة[1] قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن من لا يملك شيئاً قد يكون في استطاعته أن يتملكه بوجه من الوجوه، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا تملك، وليس في استطاعتها تحصيل الملك.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ عبارة[2] عن الأصنام، فهي مفردة لفظاً جمع معنىً، فقوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ فيه مراعاة لفظها، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيه مراعاة معناها، وهو معطوف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ فهو من الصلة، وجمع جمع العقلاء في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بناء على زعمهم الباطل، وقيل يجوز أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ للكفار؛ أي: لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياءً متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾، وهو اسم مصدر بمعنى الإعطاء، و﴿شَيْئًا﴾ مفعوله؛ أي: ما لا يملك ولا يقدر رزقاً وإعطاءً لهم شيئاً من أرزاق السموات والأرض، وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو النتيجة له فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: فلا[3] تجعلوا أيها المشركون لله سبحانه وتعالى الأمثال والأشباه، ولا تشبهوه بخلقه، فإنه لا مثيل له ولا شبيه، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في معنى الآية: أي لا تجعلوا معي إلهاً غيري فإنه لا إله غيري، ثم هددهم على عظيم جرمهم، وكبير ما اجترحوا من الكفر والمعاصي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ﴾ كنه ما تفعلون من الإجرام وعظيم الآثام، وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حقيقته ولا مقدار عقابه، ومن ثم صدر ذلك منكم، وتجاسرتم عليه، ونسبتم إلى الأصنام ما لا يصدر منها، ولا هي منه في قليل ولا كثير، وقال الزجاج[4]: لا تجعلوا لله

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

مثلاً لأنه واحدٌ لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك، فنهوا عن ذلك.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن الإشراك أعقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبوه من الحماقات والجهالات فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ وضرب المثل[1] تشبيه حال بحال، وقصةٍ بقصةٍ؛ أي: ذكر سبحانه وأورد شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكاً له من الأصنام، وليس المراد حكاية ضرب الماضي، بل المراد إنشاؤه بما ذكر عقيبه؛ أي: ذكر لكم شيئاً تميزون به بين الخالق والمخلوق الذي أشركتموه به من الأصنام، ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ بدل من مثلاً، وتفسيرٌ له، والمثل في الحقيقة حالة العبد العارضة له من المملوكية والعجز التام، وبحسبها جعل نفسه مثلاً، ووصفه بالمملوكية ليخرج عنه الحُرُّ لاشتراكهما في كونهما عبداً لله تعالى ﴿لَّا يَقْدِرُ﴾ ذلك العبد ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من التصرفات، وصفه بعدم القدرة ليميزه عن المكاتب والمأذون له، اللذين لهما التصرف في الجملة ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ ﴿مَن﴾ نكرةٌ موصوفةٌ أو موصولة معطوفة على ﴿عَبْدًا﴾، كأنه قيل وحرًّا رزقناه بطريق الملك ليطابق عبداً ﴿مِنَّا﴾؛ أي: من جانبنا الكبير المتعال وجهتنا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: حلالاً طيباً، أو مستحسناً عند الناس مرضياً، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة، تروق الناظرين إليها، والفاء في قوله: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ لترتيب[2] الإنفاق على الرزق؛ أي: فذلك الحر ينفق منه؛ أي: من ذلك الرزق الحسن ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾؛ أي: في حال السر وفي حال الجهر، والمراد بيان عموم الإنفاق للأوقات، وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وأن الثواب فيه أكثر، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ للإنكار، وجمع[3] الضمير للإيذان بأن المراد مما ذكر من اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين، لا فردان متعينان منهما؛

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات، مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله تعالى من جملة البشر، ومن المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه.

وحاصل المعنى[١]: أنه كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدر من أمره على شيء، ورجل حر قد رزقه الله تعالى رزقاً حسناً، فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته، والآخر هو المؤمن، والغرض أنهما لا يستويان في الرتبة والشرف، وقيل: العبد هو الصنم، والثاني عابد الصنم، والمراد: أنهما لا يستويان في القدرة والتصرف، لأن الأول جماد، والثاني إنسان.

والخلاصة: أي إنَّ مثلكم[٢] في إشراككم بالله الأوثان، مثل من سوى بين عبدٍ مملوك عاجز عن التصرف وحرٍ مالك مالاً ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كما يريد، والفطرة السليمة تشهد بأنهما ليسا مستوين في التبجيل والاحترام، مع استوائهما في الخلق والصورة، فكذلك لا ينبغي لعاقل أن يسوي بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء ألبتة.

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتراض[٣]؛ أي: كل الحمد لله سبحانه وتعالى وحده، لأنه معطي جميع النعم، لا يستحقه أحد غيره، فضلاً عن استحقاق العبادة، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً، ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط، وقيل: أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد، وقيل: أراد قُلْ الحمد لله، والخطاب لمحمد ﷺ، أو

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

لمن رزقه رزقاً حسناً، وقيل: أراد الحمد لله عل إقامة هذه الحجة، ذكره «الشوكاني» ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن كل الحمد لله وحده، فيسندون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونه لأجلها، وبعض الكفار يعلمون ذلك، وأما لا يعلمون سبب الحمد عناداً كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ونفي العلم[1] عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليها، أو يتركون الحق عناداً مع علمهم به، فكانوا كمن لا علم له، وخص الأكثر بنفي العلم إما لكونه يريد الخلق جميعاً وأكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل، أو المراد: أكثر المشركين لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم.

والمعنى: أي الحمد الكامل لله خالصاً دون ما تدعون من دونه من الأصنام، فإيَّاه فاحمدوا دونها، ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن الحمد لله وحده، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد.

ثم ضرب مثلاً أخر يدل على ما يدل عليه المثل الأول على وجه أظهر وأوضح، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على أوضح وجه وأظهره، و﴿رَّجُلَيْنِ﴾ بدل من مثلاً، ولكن على حذف مضاف؛ أي: مثل رجلين؛ أي: بين الله صفة رجلين ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ وهو من ولد أخرس، ولا بد أن يكون أصمَّ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الكلام؛ أي: لا يقدر[2] على شيء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، بحدس أو فراسة لقلة فهمه، وسوء إدركه، وعدم قدرته على النطق ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾؛ أي: ثقيل على وليه وقرابته، وعيال على من يلي أمره ويعوله، ووبالٌ على إخوانه، وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

على من يكفله، وهو بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه، بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلق ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾؛ أي: حيثما يرسله مولاه في أمره وكفاية مهم، وهو بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح مولاه، ولو كانت مصلحة يسيرة... ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: لا يأتي بنجح وفلاح ومطلوب، لأنه أخرس عاجز لا يحسن شيئاً، ولا يفهم ولا يفهم، والآخر ناطق[1] قادر خفيف على مولاه، أينما يوجهه يأت بخير، فحذف هذا الآخر المقابل المتصف بالصفات الأربع السابقة، للدلالة عليه بقوله: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلخ، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ للإنكار؛ أي: هل يستوي ويماثل هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع ﴿وَمَن يَأْمُرُ﴾ الناس ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ والخير؛ أي: هل يستوي هذا الموصوف بالصفات الأربع، ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة، يأمر الناس بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: على دين قويم وسيرة صالحة، فيجب[2] أن يكون الآمر بالعدل عالماً قادراً مستقيماً في نفسه، حتى يتمكن من الأمر بالعدل، وهذا مثلٌ ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده من إنعامه، ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه، وللأصنام التي هي أموات جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كل على عابديها، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة، وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، والمؤمن هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، والكافر هو الأبكم الثقيل الذي لا يأمر بخير، فعلى هذا القول تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر، وقيل: هي على الخصوص، فالذي يأمر بالعدل هو النبي ﷺ وهو على صراط مستقيم، والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل.

والمعنى: أي[3] ضرب الله سبحانه مثلاً لنفسه والآلهة التي يعبدونها من دونه، مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم، فلا يقدر على شيء

---

(١) الفتوحات.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

مما يتعلق بنفسه أو بغيره، وهو عيال على من يعوله ويلي أمره، حيثما يرسله مولاه في أمر لا يأت بنجح ولا كفاية مهم، وثانيهما رجل سليم الحواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره، ويأمر الناس بالعدل، وهو على سيرة صالحة ودين قويم، هل يستويان، كذلك الصنم لا يسمع شيئاً ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع، لا يقدر على نفع من خدمه، ولا دفع ضُرٍّ عنه، وهو كلٌّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه، وهو لا يعقل ما يقال له، فيأتمر بالأمر، ولا ينطق فيأمر وينهى، هل يستوي هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه.

وقرأ عبد الله وعلقمة وابن وثاب ومجاهد وطلحة[1]: ﴿يُوَجَّهْ﴾ بهاء واحدة ساكنة مبنياً للمفعول، ونائب فاعله ضمير يعود على الأبكم، وعن عبد الله أيضاً: ﴿تُوَجِّهْه﴾ بهائين بتاء الخطاب، والجمهور: بالياء والهائين، وعن علقمة وطلحة: ﴿يُوجِّهُ﴾ بكسر الجيم وهاءٍ واحدة مضمومة، قال صاحب «اللوامح»: فإن صح ذلك فإن الهاء التي هي لام الفعل محذوفة فراراً من التضعيف، لأن اللفظ به صعب مع التضعيف.

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر المثلين.. مدح نفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خاصة لا لأحد غيره استقلالاً ولا إشراكاً، وكان كفار قريش يستعجلون وقوع القيامة استهزاءً، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ أي: ولله سبحانه لا لغيره ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما، قال في «الإرشاد»: فيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري، فإن تحقق الغيوب في أنفسها علم بالنسبة إليه تعالى، ولذلك لم يقل: علم غيب السموات والأرض.

وقد أخبر[2] سبحانه وتعالى في هذه الآية عن كمال علمه، وأنه عالم بجميع الغيوب، فلا تخفى عليه خافية، ولا يخفى عليه شيء منها، وقيل: الغيب

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الخازن.

هنا علم قيام الساعة، ووجه[1] ارتباط هذه الآية بما قبلها: أنه تعالى مثل بالذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، ومعلوم أن أحداً لا يكون كذلك إلا إذا كان كاملاً في العلم والقدرة، فبين بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كونه كاملاً في العلم، وبين كمال قدرته بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وما أمر قيام الساعة وشأنه في سرعته وسهولته، والساعة؛ أي: القيامة هي[2] إماتة الأحياء، فيكون بالنفخة الأولى، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، وتبديل صور الأكوان أجمعين يكون بالنفخة الثانية، وقيل: الساعة[3] هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف الحساب، سمي بها لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم؛ أي: وما شأن قيام القيامة التي هي من الغيوب في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾؛ أي: إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ أي: بل أمر قيام الساعة أقرب من طرف العين في السرعة، بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدأ فيه الحركة، يعني أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، في أسرع من لمح البصر، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق، لأنه بعض المقدورات.

وحاصل معنى الآية: أي ولله سبحانه علم ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض، مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين، التي لا سبيل إلى إدركها حسًّا ولا إلى فهمها عقلاً ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وما شأنها في سرعة المجيء إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، أو هو أقرب من هذا وأسرع، لأنه إنما يكون بقول كن، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾؛ أي: فيكون ما يريد كطرف العين.

---

(١) زاده.
(٢) أبو السعود.
(٣) الخازن.

والخلاصة: أن قيام الساعة ومجيء القيامة، التي ينتشر فيها الخلق للوقوف في موقف الحساب كنظرة من البصر وطرفة من العين في السرعة، وخصَّ قيام الساعة من بين الغيوب لأنه قد كثرت فيه المماراة في جميع الأزمنة والعصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر، وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات، ثم ذكر ما هو كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: إن الله قادر على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر، ثم ذكر سبحانه منته على عباده بإخراجه إيَّاهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ حالة كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: حالة[1] كونكم غير عالمين شيئاً أصلاً من أمور الدنيا والآخرة، ولا مما كانت أرواحكم تعلم في عالم الأرواح، ولا مما كانت ذراتكم تعلم من فهم خطاب ربكم إذ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ولا مما علمت إذ قالت بالجواب بلى، ولا مما تعلم الحيوانات حين ولادتها من طلب غذائها، ومعرفة أمها، والرجوع إليها، والاهتداء إلى ضروعها، وطريق تحصيل اللبن منها، ومشيها خلفها، وغير ذلك مما تعلم الحيوانات، وتهتدي إليه، ولا يعلم الطفل منه شيئاً ولا يهتدي إليه، وهنا تم الكلام[2]، لأن الإنسان خلق في أول الفطرة ومبدئها خالياً عن العلم والمعرفة، لا يهتدي سبيلاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة، وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم، وقدم السمع على البصر لما أنه طريق تلقي الوحي، ولذا ابتلي بعض الأنبياء بالعمى دون الصمم، كشعيب عليه السلام، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر، ألا ترى أن الوليد يتأخر انفتاح عينيه عن السمع، وإفراده باعتبار كونه مصدراً في الأصل، ﴿وَ﴾ جعل لكم

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

﴿الأبصار﴾ لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على وحدانيته، جمع بصر، وهي محركة حسِّ العين، ﴿و﴾ جعل لكم ﴿الأفئدة﴾ لتعملوا بها، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته تعالى، جمع فؤاد، وهو[1] وسط القلب، وهو من القلب كالقلب من الصدر، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة.

قال في «بحر العلوم»: استعملت في هذه الآيات وفي سائر آيات وردت فيها في الكثرة، لأن الخطاب في جعل لكم، وأنشأ لكم عام، والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة، بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء، وتدركوها بأفئدتكم، فتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساس، فيحصل لكم علومٌ بديهية، تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل الكسبية.

واعلم: أن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ عطف على ﴿أَخْرَجَكُم﴾، وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الإخراج، لما أن مدلول الواو وهو الجمع مطلقاً لا الترتيب، على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج كما في «الإرشاد»، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا الله تعالى على نعمة هذه الآلات، وشكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، من استماع كلام الله تعالى، وأحاديث رسوله ﷺ، وحكم أوليائه، وما ليس فيه ارتكاب منهي، ومن النظر إلى آيات الله سبحانه، والاستدلال بها على وجوده ووحدته وعلمه وقدرته، فمن استعملها في غير ما خلقت لأجله.. فقد كفر جلائل نعم الله تعالى، وخان في أماناته.

وقرأ حمزة[2]: ﴿إمهاتِكم﴾ بكسر الهمزة والميم هنا، وفي النور والزمر والنجم، والكسائي: بكسر الهمزة فيهن، والأعمش: بحذف الهمزة وكسر الميم، وابن أبي ليلى: بحذفها وفتح الميم، قال أبو حاتم: حذف الهمزة رديء، ولكن قراءة ابن أبي ليلىٰ أصوب. انتهى، وإنما كانت أصوب لأن كسر الميم إنما هو لاتباعها حركة الهمزة، فإذا كانت الهمزة محذوفة.. زال الاتباع بخلاف قراءة

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ابن أبي ليلى، فإنه أقرَّ الميم على حركتها.

ومعنى الآية: أي والله[1] جعلكم تعلمون ما لا تعلمون، بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون الخير من الشر، والهدى من الضلال، والخطأ من الصواب، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به فيما بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص، فتتعارفون وتميزون بعضها من بعض، والأشياء التي تحتاجون إليها في هذه الحياة، فتعرفون السبل وتسلكونها للسعي على الأرزاق والسِّلع، لتختاروا الجيد، وتتركوا الردي، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: إرادة أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله، وتتمكنوا بها من عبادته تعالى، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ والاستفهام فيه تقرير[2] لمن ينظر إليهن، وتعجيب من شأنهن، والطير جمع طائر؛ أي: ألم ينظر هؤلاء المشركون من قومك بأبصارهم إلى الطير ليستدلوا بها على قدرة الله تعالى حالة كونها ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾؛ أي: مذللات للطيران بما خلق الله لهن من الأجنحة والأسباب المساعدة لهن، كرقة[3] قوام الهواء، وإلهامها بسط الجناح وقبضه، كما يفعل السابح في الماء ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: مذلَّلات للطيران في الهواء، بين السماء والأرض، وإضافته إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر، والجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض، وهو الهواء، قال كعب الأحبار: إن[4] الطير ترتفع في الجو مسافة اثني عشر ميلاً، ولا ترفع فوق ذلك ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عن السقوط ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عز وجل بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسادها مع رقة الهواء يقتضي سقوطها، إذ لا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها تمسكها، ولو سلبها ما أعطاها من قوة الطيران.. لم تقدر على النهوض

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) الخازن.

ارتفاعاً، وقد كان العلماء قديماً يعلمون تخلخل الهواء في الطبقات العالية في الجوّ، وهي نظرية لم تدرس في العلوم الطبيعية إلا حديثاً.

وقرأ ابن عامر وحمزة وطلحة والأعمش وابن هرمز[1]: ﴿ألم تروا﴾ بتاء الخطاب، وباقي السبعة: بالياء، قال ابن عطية: واختلف عن الحسن وعيسى الثقفي وعاصم وأبي عمرو.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير على تلك الصفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ظاهرات تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه، وبما جاءت به رسله من الشرائع، التي شرعها الله تعالى على ألسنتهم - عليهم الصلاة والسلام - أو لقوم يصدقون أنَّ إمساكهن من الله تعالى، فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويكسره مرةً أخرىٰ وأذناباً خفيفة، وخلق الهواء خلقة رقيقة، يسهل الطيران بسبب خرقه، ولولا ذلك لما أمكن الطيران.

والمعنى: أن في[2] ذلك التسخير في الجو والإمساك فيه لدلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه لا حظَّ للأوثان والأصنام في الألوهية لمن يؤمن بالله، ويقر بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسه حواسهم، وخصص هذه الآيات بالمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها، وإن كانت هي آيات لجميع العقلاء.

الإعراب

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿فَأَحْيَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿أحيا﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿أحيا﴾ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به لـ ﴿أحيا﴾ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أحيا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَآيَةً﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداءٍ، ﴿لِّقَوْمٍ﴾ صفة لـ ﴿لَآيَةً﴾، وجملة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إنّ﴾: حرف نصب، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، خبرها مقدم على اسمها، ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿لَعِبْرَةً﴾: اسمها مؤخر و﴿اللام﴾ فيه حرف ابتداء وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿نُّسْقِيكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، لأنها تفسيرٌ لـ ﴿لَعِبْرَةً﴾، كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم.. إلخ، ويجوز[1] أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة جواب لذلك السؤال؛ أي: هي؛ أي: العبرة نسقيكم، ويكون كقوله: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿لَّبَنًا﴾ الآتي، ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾، ﴿وَدَمٍ﴾: معطوف على ﴿فَرْثٍ﴾، ﴿لَّبَنًا﴾: مفعول ثان لـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾، ﴿خَالِصًا﴾: صفة أولى لـ ﴿لَّبَنًا﴾، ﴿سَآئِغًا﴾: صفة ثانية له، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: متعلق بـ ﴿سَآئِغًا﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف دل عليه السياق، تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل ونطعمكم منها، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَالْأَعْنَٰبِ﴾: معطوف على ﴿النَّخِيلِ﴾، ﴿تَتَّخِذُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة لبيان كيفية الاسقاء والإطعام ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿سَكَرًا﴾: مفعول ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، ﴿وَرِزْقًا﴾: معطوف على ﴿سَكَرًا﴾، ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿رزقا﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَآيَةً﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِقَوْمٍ﴾ صفة ﴿آية﴾، وجملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ صفة ﴿قوم﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾: متعلق به، ﴿أَنِ﴾: حرف مصدر أو تفسير، ﴿اتَّخِذِي﴾: فعل وفاعل، في محل النصب بـ ﴿أَنِ﴾ المصدرية، مبني على حذف النون، ﴿مِنَ الْجِبَالِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول لـ﴿اتَّخِذِي﴾، وجملة ﴿اتَّخِذِي﴾ مع ﴿أَنِ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأوحى ربك إلى النحل باتخاذها من الجبال بيوتاً، أو جملة مفسرة للإيحاء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾: معطوف على قوله: ﴿مِنَ الْجِبَالِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَمِمَّا﴾: معطوف عليه، ﴿يَعْرِشُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ومما يعرشونه. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿كُلِي﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿اتَّخِذِي﴾ ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: متعلق به، ﴿فَاسْلُكِي﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كُلِي﴾. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿اسلكي﴾، ﴿ذُلُلًا﴾: حال من السبل، أو من الضمير في ﴿اسلكي﴾؛ أي: حالة كون النحل منقادة لأربابها.

﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن بُطُونِهَا﴾: متعلق به، ﴿شَرَابٌ﴾ فاعل، ﴿مُّخْتَلِفٌ﴾ صفة أولى لـ ﴿شَرَابٌ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو حال

من فاعل ﴿اسلكي﴾ ولكن فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعل ﴿مُّخْتَلِفٌ﴾. ﴿فِيهِ﴾: خبر مقدم، ﴿شِفَآءٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق به، أو صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿شَرَابٌ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَةً﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِّقَوْمٍ﴾، صفة ﴿آية﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ صفة ﴿قوم﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَلَقَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ﴿وَمِنكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة محذوف، تقديرها: فمنكم من يبقى على قوة جسده وعقله حتى يموت ومنكم من يُرَد ﴿يُرَدُّ﴾ مضارع مغير الصيغة ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿لِكَىْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿كي﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَعْلَمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَعْلَمَ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به لـ ﴿يَعْلَمَ﴾ أو للمصدر على سبيل التنازع، والجملة الفعلية مع ﴿كي﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعدم علمه شيئاً، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ ﴿فَضَّلَ﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿فِى ٱلرِّزْقِ﴾،

والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع اسمها، وجملة ﴿فُضِّلُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾: خبرها ومضاف إليه، و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾، ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بِرَآدِّى﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: على ما ملكته أيمانهم، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿الفاء﴾ عاطفة، و﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿سَوَآءٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المنفية في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿بنعمة الله﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والتقدير: أيشركون به فيجحدون نعمته، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ في محل الرفع خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَكُم﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: حال من ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لَكُم﴾: في محل المفعول الثاني له، ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾: حال من ﴿بَنِينَ﴾، ﴿بَنِينَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾ ﴿وَحَفَدَةً﴾: معطوف عليه، ﴿وَرَزَقَكُم﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿بالباطل﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل

فاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَكْفُرُونَ﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خبره، والتقدير: وهم يكفرون بنعمة الله تعالى، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿يعبدون﴾؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يعبدون﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَمْلِكُ﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾، وجملة ﴿يَمْلِكُ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿رِزْقًا﴾ لأنه اسم مصدر بمعنى إعطاءً، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول ﴿رِزْقًا﴾ لأنه مصدر يعمل عمل الفعل، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم إنعام الله عليكم بهذه النعم المذكورة، وعجز الأصنام عنها، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم لا تضربوا لله الأمثال، ﴿لَا تَضْرِبُوا۟﴾: فعل وفاعل وجازم، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَأَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿عَبْدًا﴾: بدل من ﴿مَثَلًا﴾ بدل كل من كل، ﴿مَّمْلُوكًا﴾: صفة أولى لـ ﴿عَبْدًا﴾، وجملة ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿عَبْدًا﴾، ﴿وَمَن﴾: اسم موصول أو نكرة موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿عَبْدًا﴾، ﴿رَّزَقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة، أو صفة لها إن كانت موصوفة، ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿رِزْقًا﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول ثان، ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿رِزْقًا﴾، ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿يُنفِقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿يُنفِقُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾: إما منصوبان على المصدرية؛ أي: إنفاق سر وجهر، أو حالان من فاعل ﴿يُنفِقُ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب للإضراب الانتقالي ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ والجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضرب﴾ الأول، ﴿رَّجُلَيْنِ﴾: بدل من ﴿مَثَلًا﴾، ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب صفة ﴿رَّجُلَيْنِ﴾، ﴿لَا يَقْدِرُ﴾: فعل مضارع ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبْكَمُ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿أَبْكَمُ﴾، ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾: متعلق بـ ﴿كَلٌّ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقْدِرُ﴾ ﴿أَيْنَمَا﴾: اسم شرط جازم يجزم فعلين في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بفعل الشرط، ﴿يُوَجِّههُّ﴾: فعل مضارع ومفعول به، مجزوم بـ ﴿أَيْنَمَا﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الأبكم.

﴿لَا يَأْتِ﴾ مضارع مجزوم وهو جواب الشرط و﴿لَا﴾ نافية ﴿بِخَيْرٍ﴾: متعلق بـ ﴿يَأْتِ﴾، وجملة الشرط مع جوابه في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿أَبْكَمُ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يَسْتَوِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبْكَمُ﴾، ﴿هُوَ﴾: تأكيد للضمير المستتر في ﴿يَسْتَوِي﴾، وجملة ﴿يَسْتَوِي﴾ جملة إنشائية مستأنفة، ﴿وَمَن﴾ عطف على الفاعل المستتر في ﴿يَسْتَوِي﴾ والشرط موجود وهو العطف بالضمير المنفصل وهو لفظ ﴿هو﴾ ﴿يَأْمُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿بِالْعَدْلِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾: خبره، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَاطٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿يَأْمُرُ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿غَيْبُ السَّمَاوَاتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بإلا، ﴿أَمْرُ السَّاعَةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى بل الإضرابية، ﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بما بعده ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَخْرَجَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أخرج﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة عل جملة ﴿أخرج﴾. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾

فعل مضارع ومفعول به، والجملة في محل نصب حال من الكاف أي: غير عالمين شيئاً ﴿وَجَعَلَ﴾ عطف على ﴿أَخْرَجَكُم﴾ والفاعل تقديره هو. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾، وهو في محل المفعول الثاني له، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: معطوفان عليه، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التقريري التعجبي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾: متعلق به، عداه بإلى لتضمينه معنى النظر، والجملة جملة إنشائية مستأنفة، ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: حال من ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾. ﴿مَا﴾: نافية ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾: فعل ومفعول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثانية من ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ والمراد بحياة الأرض إنباتها الزرع والشجر، وإخراجها الثمر ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ قال الفراء والزجاج: النعم والأنعام واحد، يذكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب: هذه نعم وارد، ورجحه ابن العربي فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، وقد جاء بالوجهين هنا، وفي سورة النور.

ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان[1]:

---

(١) البحر المحيط.

أحدهما أن يكون تكسير نعم، كالأجبال في جبل.

والثاني: وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع، كنعم، فإذا ذكر فكما يذكر نعم في قوله:

فِـيْ كُـلِّ عَـامٍ نَـعَـمٌ تَـحْـوُوْنَـهُ   يُـلْـقِـحُـهُ قَـوْمٌ وَيُـنْـتِـجُـوْنَـهُ

وإذا أنث ففيه وجهان: أنه تكسير نعم، وإنه في معنى الجمع، وفي «البيضاوي»: الأنعام اسم جمع وقيل جمع نعم اهـ.

﴿لَعِبْرَةً﴾ والعبرة الاعتبار والعظة، وهو مصدر بمعنى العبور، أطلق على ما يعبر به إلى العلم مبالغة في كونه سبباً للعبور اهـ «زاده»، وفي «الشهاب»: وأصل[1] معنى العبر والعبور التجاوز من محل إلى آخر، فإطلاق العبرة على ما يعتبر به لما ذكر، لكنه صار حقيقة في عرف اللغة اهـ.

﴿نُّسْقِيكُم﴾ قال الزجاج: سقيته وأسقيته بمعنى واحد اهـ. كما مر ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ والفرث كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش اهـ. وإذا خرج من الكرش لا يسمى فرثاً اهـ. «خازن» بل يسمى روثاً، ﴿خَالِصًا﴾؛ أي: مصفى من كل ما يصحبه من مواد أخرى، ﴿سَآئِغًا﴾؛ أي: سهل المرور في الحلق، يقال: ساغ الشراب في الحلق وأساغه صاحبه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

﴿سَكَرًا﴾ والسَّكر بفتحتين فيه أقوال[2]:

أحدها: أنه من أسماء الخمر.

الثاني: أنه في الأصل مصدر، ثم سمي به الخمر، يقال سكر ـ من باب طرب وفرح ـ يسكر سكراً بفتحتين، وسكراً بضم فسكون.

الثالث: أنه اسمٌ للخلِّ بلغة الحبشة، قاله ابن عباس.

الرابع: أنه اسم للعصير ما دام حلواً، كأنه سمي بذلك لمآله لذلك لو ترك، وفي «القاموس»: السكر محركة: الخمر، ونبيذ يتخذ من التمر، وقال بعضهم: السكر الخمر، والرزق الحسن الخل، الرُّب الطلاء الخاشر، والتمر والزبيب ونحو ذلك.

---

(١) الشهاب.   (٢) الفتوحات.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ أي: ألهمها وعلمها وأرشدها، ﴿بُيُوتًا﴾؛ أي: أوكاراً، وأصل البيت مأوى الإنسان، واستعمل هنا في الوكر الذي تبنيه النحل لتعسل فيه، لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بكسر الراء وضمها من بابي ضرب ونصر، كما في «المختار»، وفي «القاموس»: وعرش يعرش بنى عريشاً، كأعرش وعرش بالتشديد اهـ. ويعرشون؛ أي: يرفعون من الكروم والسقوف، والسبل الطرق واحدها سبيل، والذلل جمع ذلول؛ أي: منقادة طائعة، والشراب العسل مختلف ألوانه؛ أي: من أبيض إلى أصفر إلى أسود بحسب اختلاف المرعى، ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أردؤه وأخسه، يقال رذل الشيء يرذل رذالةً، وأرذله غيره، قال تعالى حكاية عما قاله قوم شعيب له: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، والحفدة: أولاد الأولاد، على ما روي عن الحسن والأزهري جمع حافد، ككتبةٍ وكاتب، من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل، يقال منه حفد يحفد من باب ضرب حفداً وحفوداً وحفداناً إذا أسرع، كما جاء في القُنوت: «وإليك نسعى ونحفد».

﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رزق السماء المطر، ورزق الأرض النبات والثمار التي تخرج منها، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: لا تجعلوا له الأنداد والنظراء، فهو كقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وضرب[1] المثل للشيء ذكر الشبيه له، ليوضح حاله المبهمة، ويزيل ما عرض من الشك في أمره، ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ والبكم محركاً الخرس، وهو إمَّا ناشيءٌ من صمم خلقي، وإما لسبب عارض، ولا علة في أذنيه فهو يسمع لكن لسانه معتقل لا يطيق الكلام، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم، لأن الكلام بعد السماع، ولا سماع له، وليس كل أبكم يكون أصم صمماً طبيعياً، فإن بعض البكم لا يكونون صماً، وفي «القاموس»[2]: البكم محركاً الخرس كالبكامة، أو مع عيٍّ وبله، أو أن يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكم كفرح فهو أبكم وبكيمٌ، والجمع بكم، وبكم ككرم امتنع عن الكلام تعمدا اهـ. والكل الغليظ الثقيل، من قولهم: من كَلَّتِ

---

(١) المراغي. (٢) القاموس.

السكين، إذا غلظت شفرتها فلم تقطع، وكل عن الأمر ثقل عليه فلم يستطع عمله.

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾؛ أي: يرسله في وجهٍ معين من الطريق، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: طريق عادل غير جائرٍ، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة مَّا، فيموت الخلق بصيحة واحدة، ولمح البصر: رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، وفي «الخازن»: لمح البصر انطباق جفن العين وفتحه، والجفن طرف العين اهـ. وفي «البيضاوي»: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾؛ أي: إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها اهـ. وهذا يقتضي أنَّ اللمح معناه إغماض العين، والذي في كتب اللغة أنَّ معناه فتح العين والإبصار بها، ففي «المصباح»: لمحت الشيء لمحاً من باب نفع نظرت إليه باختلاس البصر، وألمحته بالألف لغةٌ، ولمحته بالبصر صوبته إليه، ولمح البصر امتد إلى الشيء اهـ.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ واحدها فؤاد، وهي القلوب التي هيأها الله تعالى للفهم وإصلاح البدن، والجو: الفضاء بين السماء والأرض.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ حيث[1] شبه تهييج القوى النامية في الأرض وإحداث نضارتها بالنباتات بالإحياء، وهو إعطاء الحياة، وهي صفةٌ تقتضي الحس والحركة، وشبه يبوستها بعد نضارتها بالموت بعد الحياة، فاشتق منه أحيا بمعنى أحدث نضارتها على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الطباق في هذه الآية بين: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وبين ﴿مَوْتِهَآ﴾.

(١) روح البيان.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ لأن العبرة حقيقةٌ في العبور الذي هو التجاوز من محل إلى آخر، فإطلاقه على ما يعتبر به مجازٌ، لكونه سبباً في العبور من الجهل إلى العلم، لكنه صار حقيقةً في عرف اللغة كما في «الجمل».

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ حيث[1] شبه ما تبنيه لتعسل فيه ببناء الإنسان بجامع الحفظ في كل، فاستعار لفظ بيت على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿كُلِى﴾ و﴿كُلِّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ إشارةٌ إلى كمال عنايته وعظيم إحسانه في تربيتها وإرشادها.

ومنها: الالتفات[2] من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ ولو جاء على الكلام الأول لقيل من بطونك.

ومنها: مجاز الأول في قوله: ﴿شَرَابٌ﴾؛ أي: عسل يؤول إلى كونه مشروباً للناس.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿شِفَآءٌ﴾ إشعاراً بالتبعيض، لأنه إنما يكون شفاءً لبعض الأمراض كالأمراض البلغمية، ويجوز أن يكون للتعظيم كما في «البيضاوي».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ في مواضع عديدة اعتناءً بمقتضى السياق.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي التقريعي في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) الجمل.

ومنها: تقديم الصلة على الفعل في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ إمّا[1] للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغة أو للمحافظة على الفواصل.

ومنها: الطباق بين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾ في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ فالآية تمثيل للصنم بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيء أصلاً مع القادر السميع البصير، فشتان ما بين الرب والصنم.

ومنها: الطباق بين ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾.

ومنها: الإتيان بضمير الجمع في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ نظراً إلى تعدد أفراد كل فريق، لأن مقتضى السياق أن يقال: هل يستويان بضمير التثنية.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ قال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في لمح البصر، أو في زمن أقرب منه، بل المراد بيان سرعة تأثير القدرة متى تعلقت الإرادة بشيء اهـ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا أقام[1] الأدلة على توحيده.. أردف ذلك بذكر ما أنعم به على عباده، فجعل لهم بيوتاً يَأْوُوْن إليها، وتكون سكناً لهم، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها في أسفارهم ويجعلونها خياماً في السفر والحضر، وجعل لهم في الجبال الحصون والمعاقل، وجعل لهم الثياب التي تقيهم الحر، والدروع والجواشن من الحديد لتقي بعضهم أذى بعض في الحرب.

وقصارى هذا: أنه امتن على عباده فبدأ بما يخص المقيمين بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم إلا الظلال بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ...﴾ إلخ، ثم بما لا غنى عنه في الحروب بقوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما مَنَّ به عليهم من خلقهم، وما خلق لهم من مدارك العلم.. ذكر هنا ما امتن به عليهم مما ينتفعون به في حياتهم من الأمور الخارجة عن دوابهم، من البيوت التي يسكنونها، من الحجر والمدر والأخشاب وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[3] حال هؤلاء المشركين، وأنهم عرفوا نعمة الله، ثم أنكروها.. قفىٰ على ذلك بوعيدهم، فذكر حالهم يوم القيامة، وأنهم يكونون أذلاء لا يؤذن لهم في الكلام لتبرئة أنفسهم، ولا يمهلون، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير، وإذا رأوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين.. قالوا: هؤلاء معبوداتنا، فكذبتهم تلك المعبودات، واستسلموا لربهم، وانقادوا له، وبطل ما كانوا يفترونه، ثم ذكر ذلك اليوم،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

وهوله وما منح نبيه من الشرف العظيم، وأنه أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما أشكل عليهم من مصالح دينهم ودنياهم، ويهديهم سواء السبيل، وفيه البشرى للمؤمنين بجنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما بالغ في الوعد للمتقين والوعيد للكافرين، وعاد وكرر في الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية.. أردف ذلك ذكر هذه الأوامر التي جمعت فضائل الأخلاق والآداب، وضروب التكاليف التي رسمها الدين، وحث عليها، لما فيها من إصلاح حال النفوس، وصلاح حال الأمم والشعوب، ثم ضرب الأمثال لمن يحيد عنها وينفر من فعلها، ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيده، وأنه قد قدَّر بحسب استعداد النفوس للصلاح والغواية، وأنه سيجازي يوم القيامة كل نفس بما كسبت: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حذر من نقض العهود والأيمان على الإطلاق.. حذر في هذه الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، وهي نقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به واتباع شرائعه جرياً وراء خيرات الدنيا وزخارفها، وأبان لهم أنَّ كل ذلك زائلٌ، وما عند الله باقٍ لا ينفد، ثم هو بعد يجزيهم الجزاء الأوفى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال:

---

(١) لباب النقول.

نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولّى الأعرابيُّ فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن بريدة قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال: كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدر، وهو تبيين لذلك المجعول المبهم في الجملة ﴿سَكَنًا﴾ فعل[١] بمعنى مفعول، كالقبض والنقض بمعنى المقبوض والمنقوض؛ أي: موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم؛ أي: والله سبحانه وتعالى هو الإله الذي جعل لكم أيها الناس من بيوتكم التي هي من الحجر والمدر مسكناً تقيمون فيه، وأنتم في الحضر، ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم بالفتح، وهو مخصوص بالأنواع الأربعة التي هي الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿بُيُوتًا﴾ أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة، وهي الخيام والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم.

واعلم[٢]: أنَّ المساكن على قسمين:

أحدهما: ما لا يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما.

والقسم الثاني: ما يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي الخيام

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام، وإليها الإشارة بقوله: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أي: تجدونها خفيفة، يخف عليكم نقضها وحملها ونقلها، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾؛ أي: وقت ترحلكم وسفركم، وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عَمرو[1]: ﴿ظعنكم﴾ بفتح العين، وباقي السبعة: بسكونها، وهما لغتان، وليس السكون بتخفيف كما جاء في نحو الشَّعْر والشَّعَر لمكان حرف الحلق.

﴿و﴾ تستخفونها ﴿يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾؛ أي: وقت نزولكم في الضرب والبناء؛ أي: وجعل لكم قباباً وفساطيط من جلود الأنعام وأشعارها وأصوافها وأوبارها، تستخفون حملها يوم ترحالكم من دوركم وبلادكم، وحين إقامتكم بها، وذلك[2] أن بعض الناس كالسودان يتخذون خيامهم من الجلود، اهـ شيخنا. وفي «البيضاوي»: ويجوز أن يتناول المتخذة من الصوف والوبر والشعر، فإنها من حيث إنها نابتةٌ على جلودها، يصدق عليها أنها من جلودها اهـ.

﴿و﴾ جعل لكم ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ جمع صوف ووبر وشعر، والكنايات راجعة إلى الأنعام، وإنما[3] ذكر الأصواف والأوبار والأشعار، ولم يذكر القطن والكتان، لأنهما لم يكونا ببلاد العرب اهـ «كرخي»؛ أي: وجعل سبحانه لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿أَثَٰثًا﴾؛ أي: ما يتمتع به في البيت خاصةً من الفرش والبسط والغطاء والوطاء، ﴿وَمَتَٰعًا﴾؛ أي: جميع ما تتمتعون به في البيت وخارجه من الفرش والأكسية واللباس والحبال والدلاء والإناء، فعطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص، وقيل[4]: إن الأثاث ما يكتسي به الإنسان، ويستعمله من الغطاء والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به، وفي «السمين»: وقال الخليل: الأثاث والمتاع واحد، وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما اهـ. ومعنى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى الموت أو إلى القيامة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.
(٣) الفتوحات.
(٤) الشوكاني.

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيامٌ أو أبنية يستظل بها، لفقر أو لعارض آخر، فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جبال مثلاً.. نبَّه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾؛ أي: من غير صنع من جهتكم ﴿ظِلَٰلًا﴾، أي: تستظلون به من شدة الحر، كالغمام والجبال والأشجار وغيرها، امتنَّ سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة، ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد.. نبَّه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾؛ أي: أماكن تستكنون وتستترون فيها من الحر والبرد والمطر، من الكهوف والغيران والسروب، جمع كِنٍّ، وهو ما يستكن به من المطر ونحوه، فقد جعلها الله سبحانه عُدَّةً للخلق يأوون إليها، ويتحصنون بها، ويعتزلون عن الخلق فيها. قال عطاء[1]: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وما جعل من السهول أعظم منه، ولكنهم كانوا أصحاب جبال، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾، جمع سربال، وهو كل ما يلبس؛ أي: وجعل لك ثياباً من القطن والكتان والصوف وغيرها، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ في الصيف، والبرد في الشتاء؛ أي: تدفع عنكم ضرر الحر والبرد، وخص الحر بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر، لعلمه منه لأن ما يقي من الحر.. يقي من البرد، أو لأن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد، لغلبة الحر في بلادهم، أو لتقدمه في قوله تعالى: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿سرابيل﴾؛ أي: دروعاً وجواشن من حديد ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾؛ أي: تدفع عنكم ضرر السلاح في الحروب الواقعة بينكم؛ أي: تقيكم وتحفظكم من بأس السلاح وأذاه حين الحرب، وحين يتقدم القرن إلى قرنه للمصاولة والطعن والضرب، والرمي بالنِّبال؛ أي: تدفع البأس الذي يصل من بعضكم إلى بعض في الحرب، والبأس[2] الشدة في الحرب والقتل والجراحة كما في «التبيان»، وأوَّل من عمل الدرع داود ـ عليه السلام ـ فإن الله تعالى ألان له الحديد كالشمع كما

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وصحب لقمان داود شهوراً، وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، وقال: نعم لبس الحرب أنت.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: إتماماً مثل إتمامنا عليكم هذه النعم التي تقدمت ﴿يُتِمُّ﴾ سبحانه وتعالى ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾ الظاهرة والباطنة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تتفكرون فيها وتنظرون إليها، و﴿تُسْلِمُونَ﴾؛ أي: تستسلمون لأوامرنا، وتنقادون لرسولنا فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ أي: أتمها عليكم، وأعطاها لكم تامة، إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، والأنفسية والآفاقية، فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده، وتذروا ما كنتم به تشركون، وتنقادوا لأمره.

والمعنى: أي كما[1] خلق هذه الأشياء لكم، وأنعم بها عليكم، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم، ويجعلكم ملوكاً وأمراء فيما تفتحون من البلاد والأصقاع، ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله، وإصلاح الأمم والشعوب كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾؛ أي: توقعاً للنظر فيما أسبغ عليكم من النعم، فتعرفون حق المنعم بها، فتؤمنون به وحده، وتذرون ما أنتم به مشركون، فتسلمون من عذابه، فإن العاقل إذا أسدي إليه المعروف.. شكر من أنعم به عليه.

وقرأ ابن عباس[2]: ﴿تتم﴾ بتاء مفتوحة ﴿نعمته﴾ بالرفع، أسند التمام إليها اتّساعاً، وعنه ﴿نِعَمُه﴾ جمعاً، وقرأ ﴿لعلكم تسلمون﴾ بفتح التاء واللام، من السلامة والخلاص، فكأنه تعليل لوقاية السرابيل من أذى الحرب، أو تسلمون من الشرك وأما ﴿تسلمون﴾ في قراءة الجمهور فمعناه: تؤمنون، أو تنقادون إلى النظر في نعم الله تعالى المفضي إلى الإيمان والانقياد.

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم.. ذكر ما يتبع معهم إذا هم أصرُّوا على عنادهم واستكبارهم، ولم تنفعهم الذكرى فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، فعل

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

ماض أو مضارع حذفت منه إحدى التائين، وفي صيغة[1] التفعل إشارة إلى أن الفطرة الأولى داعية إلى الإقبال على الله، والإعراض لا يكون إلا بنوع تكلف ومعالجة؛ أي: فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما جئتهم به من التوحيد، واستمروا على تكذيبك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾؛ أي: فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هي البلاغ ﴿الْمُبِينُ﴾؛ أي: الموضح أو الواضح، وقد فعلته بما لا مزيد عليه، وليس عليك غير ذلك.

والمعنى: أي فإن[2] استمروا على إعراضهم ولم يقبلوا ما أُلْقِي إليهم من البينات.. فلا يضيرك ذلك، ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة، وما هي إلا البلاغ الموضِّح لمقاصد الدين، وبيان أسراره وحكمه، وقد فعلته بما لا مزيد عليه، وجملة القول: إنهم إن أعرضوا وتولوا.. فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، فإنما عليك البلاغ فحسب، وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلية له، ثم بين أن سبب هذا التولي والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم، بل كان العتو والاستكبار والإنكار لها، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ﴾؛ أي: يعرف بعض المشركين ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ المعدودة في هذه السورة، ويعترفون ويقرون بأن هذه النعم كلها من الله تعالى ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم، حيث يعبدون غير منعمها، أو بقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، والمعنى[3]: ثم استبعاد الإنكار بعد حصول المعرفة.

أي: إنهم يعرفون أنَّ هذه النعم كلها من الله تعالى، ثم هم ينكرونها بأفعالهم، إذ لم يخصوا المنعم بها بالعبادة والشكر، بل شكروا غيره معه، إذ قالوا: إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعة هذه الأصنام، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ أي؛ المنكرون بقلوبهم، غير المعترفين بما ذكر من النعم، أو الكافرون بالله، وأقلهم الجاهلون، وعبر[4] هنا بالأكثر عن الكل، أو أراد بالأكثر العقلاء دون

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

الأطفال ونحوهم، أو أراد كفر الجحود، ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهلٍ، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ، مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

والمعنى: أي إن[1] أكثرهم جاحدٌ معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به، عتواً واستكباراً، وقليل منهم كان يجهل صدقه، ولم يظهر له كونه نبياً حقاً من عند الله، لأنه لم ينظر في الأدلة النظر الصحيح، الذي يؤدي إلى الغاية، أو لم يعرف الحق لنقص في العقل، فهو لا يسلك سبيله، أو لم يصل إلى حد التكليف، فلا تقوم عليه حجة.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وإنكارهم لها، وذكر أن أكثرهم كافرون.. أتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾؛ أي: نحيي ونخرج من القبور، ويرجع إلى معنى نجيء ونأتي كما سيأتي، وهو يوم القيامة؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة يوم نحشر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: قصة يوم نأتي من كل أمة من الأمم بشهيد ورسول، يشهد لهم بالإيمان لمن آمن منهم، ويشهد عليهم بالكفر والمعاصي على من كفر، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم من الاعتذار، وفي كثرة الكلام، ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمته تعالى، إذ لا عذر لهم، و﴿ثم﴾ هنا[2] للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع من الاعتذار المنبيء عن الإقناط الكلي، وهو عندما يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء - عليهم السلام - فهي للتراخي الرتبي، والعذر في الأصل تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه، بأن يقول: لم أفعل،أو فعلت لأجل كذا، أو فعلت ولا أعود، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا الكفار يسترضون فيه؛ أي: لا يطلب منهم إرضاء ربهم بالتوبة والطاعة؛ أي: لا يطلب منهم العتبى؛ أي: الرجوع إلى طاعة الله تعالى؛ أي: لا يقال لهم أرضوا

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ربكم، ولا يطلب منهم ما يوجب العتبى، وهي الرضا، وذلك[1] لأن الرضا إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح، والآخرة دار الجزاء لا دار العمل والتكليف، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل بذر فسد في الأرض، وبطل استعداده لقبول التربية، ولم يتم أمر نباته إذا حصد وحصل في البيدر، لا يفيده أسباب التربية، لتغيير أحواله، فالأرواح بذور في أرض الأشباح، ومربيها ومنبتها وثمرها أعمال الشريعة بشرط الإيمان، ومفسدها ومبطلها ومغيرها عن أحوالها الكفر وأعمال الطبيعة، والموت حصادها، والقيامة بيدرها.

وحاصل المعنى: أي وخوِّف أيها الرسول هؤلاء المشركين، يوم نبعث من كل أمةٍ شاهداً عليها بما أجابت داعي الله، وهو رسولها الذي أرسل إليها، إما بالإيمان وطاعة الله، وإما بالكفر والعصيان.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم، ولا يلتفت إليه، إذ في تلك الشهادة ما يكفي للفصل في أمرهم والقضاء عليهم، والله عليم بما كانوا يفعلون، ولكن في تلك الشهادة تأنيبٌ لهم، وتوبيخ على ما اجترحوا من الفسوق والعصيان والكفر بربهم الذي أنعم عليهم، ونحو الآية قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم؛ أي: غضبه بالتوبة وصالح العمل، فالآخرة دار جزاءٍ لا دار عملٍ، والرجوع إلى الدنيا ما لا يكون بحال.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر ﴿ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: العذاب الذي يستوجبونه بظلمهم، وهو عذاب جهنم بعد شهادة الشهداء عليهم.. صاحوا وطلبوا من مالك الخازن تخفيف العذاب، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون قبله ليستريحوا، فعذابهم يكون دائماً لأن التوبة هناك غير موجودة.

---

(١) روح البيان.

أي: وإذا عاين هؤلاء الذين كذّبوا وجحدوا نبوة الأنبياء ـ وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين ـ عذاب الله.. فلا ينجيهم منه شيء، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون، فيخفف عنهم بهذا العذر الذي يدعون، ولا يرجؤون بالعقاب، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات، وإنما ذلك وقت الجزاء على الأعمال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

ونحو الآية قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ الثبور: الهلاك.

ثم أخبر سبحانه عن إلقاء المشركين تبعة أعمالهم على معبوداتهم فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ أي: إذا أبصروا يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام التي يسمونها شركاء الله تعالى، وأوثانهم التي عبدوها.. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المشركون يا ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾؛ أي: آلهتنا التي جعلناها شركاء لك في الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟﴾ هم ونعبدهم ﴿مِن دُونِكَ﴾؛ أي: متجاوزين عبادتك؛ أي: هؤلاء الذين كنا نقول: إنهم شركاء الله في المعبودية، وهذا[1] اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، والتماس بتوزيع العذاب بينهم.

أي: وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دونه من الأوثان والآلهة التي عبدوها.. قالوا: هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، والذين كنا ندعوهم آلهةً من دونك، وربما يكونون قد قالوا هذه المقالة طمعاً في توزيع العذاب بينهم، أو إحالة الذنب عليهم، تعللاً بذلك واسترواحاً، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه.

---

(١) روح البيان.

ثم ذكر تبرء آلهتهم منهم، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم، لو كانوا ينصرون ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي: شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ﴾؛ أي: إلى المشركين ﴿الْقَوْلَ﴾ والجواب، يقال: ألقيت إلى فلان كذا؛ أي: قلت؛ أي: أنطقهم الله تعالى فأجابوهم بالتكذيب، وقالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ في إدّعائكم أننا شركاء لله، إذ ما أمرناكم بعبادتنا، وكنا مشغولين بتسبيح الله وطاعته، فارغين عنكم وعن أحوالكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

أي: فبادر[1] شركاؤهم بالجواب إلى المشركين بقولهم: إنكم لكاذبون في قولكم إنا نستحق العبادة، وإنكم عبدتمونا حقيقةً، بل إنما عبدتم أهواءكم.

والمعنى: أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتى تقول هذا القول، والمقصود[2] من إعادتها وبعثها أن تكذب الكفار، ويراها الكفار، وهي في غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غمًّا وحسرةً.

ونحو الآية قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَلْقَوْا﴾ أي: المشركون ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾؛ أي: الاستسلام والانقياد لحكمه بعد الاستكبار عنه في الدنيا؛ أي: أسرع[3] المشركون إلى الله يومئذٍ؛ أي يوم إذ تخاصموا مع آلهتهم، وهو يوم القيمة؛ أي: أسرعوا إلى الله بالانقياد والاستسلام لحكمه، فأقروا بالبراءة عن الشركاء، وبربوبية الله، بعد أن كانوا في الدنيا متكبرين عنه، لما عجزوا عن الجواب، لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم، لانقطاع التكليف.

وروى يعقوب عن أبي عمرو: ﴿السلم﴾ بسكون اللام، وقرأ مجاهد: بضم

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) المراح.

السين واللام. فإن قلت: كيف[1] أثبت للأصنام نطقا هنا، ونفاه عنها في قوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾؟

فالجواب: أن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها، والمنفي عنهم في الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم، ودفع العذاب عنهم، فلا تنافي اهـ «كرخي».

﴿وَضَلَّ﴾؛ أي: ضاع وبطل وذهب وزال ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: افتراؤهم من أنَّ لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم، وذلك حين كذَّبوهم وتبرؤوا منهم، أو ذهب[2] وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا شفيع، ولا ولي مما كانوا يزعمونه في الدنيا، كما قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾.

وبعد أن ذكر عذاب المضادِّين.. بيّن عذاب الضالين المضلين فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا﴾؛ أي: منعوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن طريق الحق، وهي طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها، وحملوهم على الكفر ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ بحيَّاتٍ[3] وعقارب وجوع وعطش وزمهرير وغير ذلك ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ بالنار، فيخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة البرد إلى النار.

أي[4]: زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم، فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم، وقيل: زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم؛ أي: أشد منه، وقيل: إن هذه الزيادة هي إخراجهم من النار إلى الزمهرير، وقيل غير ذلك، ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾؛ أي: بسبب إفسادهم بذلك الصد.

والمعنى: أي[5] الذين جحدوا نبوتك، وكذبوك فيما جئتهم به من عند

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.

ربك، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله من أراده.. زدناهم عذاباً فوق عذابهم الذي يستحقونه بكفرهم، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله.

وخلاصة ذلك: أنهم يعذبون عذابين، عذاباً على الكفر، وعذاباً على الإضلال وصد الناس عن اتباع الحق، وفي الآية دليلٌ على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم فيها.

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمداً ﷺ فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة يوم نبعث ونحشر ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: نبياً يشهد ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من[1] جنسهم، إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة، لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم، ولوط ـ عليه السلام ـ لمَّا تأهل فيهم وسكن فيما بينهم.. كان منهم، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إشعارٌ بأن شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمحضرٍ منهم، وهذا تكرير لما سبق لزيادة التهديد اهـ «أبو السعود»، وعبارة «الخطيب»: ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجهٍ يزيد على ما أفهمته الآية السابقة، وهو أن الشهادة تقع على الأمم لا لهم، وتكون بحضرتهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ إلخ اهـ، وقيل معنى: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: أعضاؤهم[2] فالله تعالى ينطق عشرةً من أعضاء الإنسان حتى إنها تشهد عليه، وهي العينان والأذنان والرجلان واليدان والجلد واللسان.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ معطوفٌ على ﴿نبعث﴾: أي: واذكر يوم جئنا بك يا محمد، وهو يوم القيامة؛ أي: يوم نأتي بك حالة كونك ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: على قومك وأمتك، بما أجابوك وبما عملوا فيما أرسلناك به إليهم. وعبر بالماضي إشارةً إلى تحقق وقوعه، وتم الكلام هنا، ثم استأنف بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ الكامل في الكتابية، الحقيق بأن يخص به اسم الجنس، وهو القرآن الكريم؛ أي: نزلناه عليك في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع، كما يفيده صيغة التفعيل، حالة كونه: ﴿تِبْيَانًا﴾؛ أي: بياناً بليغاً،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

فالتّبيان[1] أخص من مطلق البيان، على القاعدة: أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً، ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق[2] بأمور الدين، ومن ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، أو لكل[3] شيء يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة، إما بتبيينه في نفس الكتاب، أو بإحالته على السنة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أو بإحالته على الإجماع كما قال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، أو على القياس كما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن بقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فاندفع ما قيل كيف قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ونحن نجد كثيراً من أحكام الشريعة لم يعلم بالقرآن نصًا، كعدد ركعات الصلاة، ومدة المسح، والحيض، ومقدار حد الشرب، ونصاب السرقة وغير ذلك، ومن ثم اختلفت الأئمة في كثير من الأحكام. اهـ «كرخي».

﴿و﴾ حالة كونه ﴿هدى﴾ للعباد؛ أي: هادياً لهم من طريق الضلال إلى طريق الرشاد، ﴿و﴾ حالة كونه ﴿رحمة﴾ للعالمين إنسهم وجنهم، فإنَّ حرمان الكفرة من مغانم آثار الكتاب من تفريطهم، لا من جهة الكتاب، ﴿وَبُشْرَىٰ﴾؛ أي: بشارةً بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة، لأنهم المنتفعون بذلك، فهو متعلق بالبشرى، وهو متعلق من حيث المعنى بهدىً ورحمةً أيضاً.

والمعنى[4]: أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبياناً لكل ما بالناس إليه حاجةٌ، من معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، والهدىٰ من الضلالة، ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه، فأحل حلاله وحرم حرامه، وبشرى لمن أطاع الله وأناب إليه بجزيل الثواب في الآخرة وعظيم الكرامة.

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الفتوحات.
(٤) المراغي.

ووجه[1] ارتباط هذا بما قبله بيان أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك يوم القيامة عن ذلك، كما قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادُّك إليه وسائلك عن أداء ما فرض، وتبيان[2] القرآن لأمور الدين إما مباشرة، وإما ببيان الرسول، وقد أمرنا سبحانه باتباع هذا البيان في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية، وقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ولقوله ﷺ: «إني أوتيت القرآن ومثله معه»، وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وقد كان كما قال الرسول ﷺ، فاجتهد الأئمة، ووطَّئوا طرق البحث في أمور الدين لمن بعدهم، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء في العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض، ودونوا تشريعاً ينهل منه المسلمون في كل جيل، ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل، وكان أجلَّ تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أرباب الديانات الأخرى، وكذلك من لم يتدين منهم بدين.

ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء.. ذكر عقبه آيةً جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَأْمُرُ﴾كُمْ في هذا الكتاب الكريم الذي أنزله إليك أيها الرسول ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: بالإنصاف، وهو قبول الحق والعمل به، ولا إنصاف أعظم وأجمل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه، والشكر له على إفضاله، وحمده وهو أهل للحمد، ومنع ذلك عمن ليس له بأهل، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئاً منه، فمن الجهل عبادتها وحمدها، وهي لا تنعم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، ومن ثم وجب أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صف لي العدل، فقلت: بخٍ سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسامهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين.

﴿و﴾ يأمركم بـ ﴿الإحسان﴾ إلى من أساء إليكم، وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسيء، وقد أمر به النبي ﷺ، وروي عن الشعبي أنه قال: قال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، وقد صح من حديث ابن عمر في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «الإحسان أن تبعد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وفي «الشوكاني»: وقد اختلف[1] أهل العلم في تفسير العدل والإحسان، فقيل العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء العلانية والسريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية، وقيل: العدل الإنصاف والإحسان التفضل، والأول تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط، وهو الغلو المذموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط، وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين، وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب، كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه اللَّه تعالى في العبادات وغيرها وقد صح عن النبي ﷺ أنه فسَّر الإحسان بأن يعبد اللَّهَ العبدُ حتى كأنه يراه، كما مر آنفاً من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهذا هو معنى الإحسان شرعاً انتهى.

---

(١) الشوكاني.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والقربى مصدر بمعنى القرابة؛ أي: صاحب القرابة لكم؛ أي: ويأمركم الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب المنزل عليك بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه من المال والدعاء بالخير، وهو داخل في الإحسان، وإنما أفرده بالذكر اهتماماً بشأنه، وإظهاراً لجلالة صلة الرحم، وتنبيهاً على فضيلتها، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام، وترغيب في التصدق عليهم، والرحم(1) عام في كل رحم محرماً كان أو غير محرم، وارثاً كان أو غير وارث، من أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات وغير ذلك، وقطع الرحم حرام موجب لسخط الله، وانقطاع ملائكة الرحمة عن بيت القاطع، والصلة واجبةٌ باعثةٌ على كثرة الرزق وزيادة العمر، سريعة التأثير، ومعناها التفقد بالزيادة والإهداء والإعانة بالقول والفعل، وعدم النسيان، وأقله التسليم وإرسال السلام أو المكتوب، ولا توقيت فيها في الشرع، بل العبرة بالعرف والعادة.

﴿وَيَنْهَىٰ﴾ كم سبحانه وتعالى ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: عن الذنوب المفرطة في القبح، قولاً أو فعلاً، كالكذب والبهتان، والاستهانة بالشريعة، والزنى واللواطة ونحوها، وقيل: الفحشاء هي الغلو في الميل إلى القوة الشهوانية، كالزنا وشرب الخمر والسرقة والطمع في مال الناس، ﴿و﴾ عن ﴿المنكر﴾؛ أي: وعما تنكره النفوس الزاكية والعقول الكاملة السليمة، ولا ترتضيه من المساوىء الناشئة من الغضب، كالضرب والقتل والتطاول على الناس، وفي «التأويلات»: المنكر كل ما ينكر به عليك، من إضلال أهل الحق وإغوائهم، وإحداث البدع وإثارة الفتن، كما في أهالي هذا الزمان خصوصاً أصحاب الملاهي، ﴿و﴾ عن ﴿البغي﴾ والظلم والاستيلاء على الناس، والتعدي على حقوقهم، والتطاول عليهم بلا سبب، وتجسس عيوبهم، وغيبتهم، والطعن عليهم، والتجاوز من الحق إلى الباطل ونحو ذلك.

---

(1) روح البيان.

وخلاصة ما سلف[1]: أن الله سبحانه يأمر بالعدل، وهو أداء القدر الواجب من الخير، والإحسان وهو الزيادة في الطاعة، والتعظيم لأمر الله، والشفقة على خلقه، ومن أشرف ذلك صلة الرحم، وينهى عن التغالي في تحصيل اللذات الشهوانية التي يأباها الشرع والعقل، وعن الإفراط في اتباع دواعي الغضب، بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم، وتوجيه البلاء إليهم، وعن التكبر على الناس، والترفع عليهم، وتصعير الخد لهم.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، يذكركم بما ذكره في هذه الآية من الأوامر الثلاثة والنواهي الثلاثة، فإنها كافيةٌ في باب الوعظ والتذكير، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لإرادة أن تتعظوا، فتأتمروا بالأوامر، وتنتهوا عن المناهي، فتعملوا بما فيه رضاه سبحانه وتعالى، وما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم.

وقد أمر[2] الله سبحانه في هذه بثلاثة أشياء، ونهى عن ثلاثة أشياء، وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين، وجميع الخصال المحمودة والمذمومة، ولذلك قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولذا يقرؤها كل خطيب على المنبر في آخر كل خطبة، لتكون عظةً جامعة لكل مأمور ومنهي، كما في «المدارك»، وقال السيوطي في «كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل»: أول من قرأ في آخر الخطبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلخ عمر بن عبد العزيز، ولزمها الخطباء إلى عصرنا هذا، وكان النبي ﷺ يقرأ: يقرأ في آخر الخطبة، وكان عمر بن الخطاب يقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾ إلى قوله: ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾، وكان عثمان بن عفان يقرأ آخر سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الآية، وكان علي بن أبي طالب يقرأ: الكافرون والإخلاص، ذكر ذلك ابن الصلاح، وأول من قرأ في الخطبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية المهديُّ العباسيُّ، وعليه العمل في هذا الزمان؛ أي: في الخطب المطولة.

وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال في الآية الأولى.. ذكر

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بعضها على سبيل التخصيص فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استمروا[١] على الإيفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، وعهد الله هو البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام، فإنها مبايعة لله تعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ والمبايعة من جهة الرسول هو الوعد بالثواب، ومن جهة الآخر التزام طاعته، وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية، ثم هو عام لكل عهد يلتزمه الإنسان باختياره، لأن خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم، ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: إذا عاقدتم بيعة الله وعهده مع الرسول ﷺ، وواثقتموه باليمين، والعهد: العقد والميثاق، ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: ولا تحنثوا الأيمان التي تحلفون بها عند المعاهدة؛ أي: لا تحنثوا في الحلف ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: بعد توثيقها وتشديدها وتغليظها بذكر اسمه تعالى، كما في «بحر العلوم»، وهذا القيد لموافقة الواقع، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم في المعاهدة بما ذكر حينئذٍ، فلا مفهوم له، فلا يختص النهي عن النقض بحالة التوكيد، بل نقض اليمين منهي عنه مطلقاً اهـ «أبو السعود»، أو يراد بالتوكيد القصد، ويكون احترازاً عن لغو اليمين، وهي الصادرة من غير قصد للحلف، وقال القرطبي: وإنما قال بعد توكيدها فرقاً بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لَغو اليمين اهـ.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ أي: والحال أنكم قد جعلتم الله سبحانه وتعالى شاهداً ورقيباً عليكم، لأن[٢] الكفيل مراعٍ لحال المكفول به مهيمن عليه، فإن[٣] حلف بالله فقد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف؛ أي: لا تنقضوا الأيمان وقد قلتم الله شاهدٌ علينا بالوفاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من النقض والوفاء، فيجازيكم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي هذا ترغيب وترهيب، والمعنى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: وأوفوا[٤] بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقاً لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه، ويدخل في ذلك كل

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

عهد يلتزمه الإنسان باختياره، والوعد من العهد، ومن ثم قال ميمون بن مهران: من عاهدته وفِّ بعهده مسلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله تعالى.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ أي: ولا تخالفوا ما عاقدتم فيه الأيمان، وشددتم فيه على أنفسكم، فتحنثوا فيه وتكذبوا، وتنقضوه بعد إبرامه، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعياً يرعى الموفي منكم بالعهد، والناقض له بالجزاء عليه، ثم وعد وأوعد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في العهود التي تعاهدون الله الوفاء بها، والأيمان التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبُرُّون فيها، أم تنقضونها، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، وسائلكم عنه، وعما عملتم فيه، فاحذروا أن تلقوه وقد خالفتم أمره ونهيه، فتستوجبوا منه ما لا قبل لكم به من أليم عقابه.

أخرج ابن جرير عن مزيدة بن جابر[1]: أنَّ الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم يبايع على الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه، وكثرة المشركين، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة.

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ أيها المؤمنون في نقض العهد ﴿كَٱلَّتِى﴾؛ أي: كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ﴾؛ أي: حلت وفكت، والنقض في البناء والحبل وغيره ضد الإبرام، كما في «القاموس» ﴿غَزْلَهَا﴾؛ أي: مغزولها؛ أي: ما غزلته وفتلته من صوف وقطن وغيرهما، ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بنقض؛ أي: حلته وفكته من بعد إبرام ذلك الغزل وإحكامه، فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ حال من غزلها، جمع نكث بمعنى منكوث، كحمل وأحمال؛ أي: منكوثاً، وهو كل ما ينكث فتله؛ أي: يحل غزلاً كان أو حبلاً، والمعنى جعلته طاقات نكثت فتلها؛ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون في نقضكم أيمانكم

(١) المراغي.

بعد توكيدها وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزلها بعد إبرامه، وتنفشه بعد أن جعلته طاقات، حماقةً منها وجهلاً.

قال السُّدِّي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت غزلاً.. نقضته بعد إبرامه، وقال الكلبي ومقاتل: هي ريطة[1] - بفتح الراء والطاء المهملتين بينهما تحتية ساكنة - بنت عمرو بن سعد القرشية المكية، وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسةٌ، وكانت قد اتخذت مغزلاً قدر ذراع، وسنارةً مثل الأصبع، وهي بكسر السين الحديدة في رأس المغزل، وفلكةً عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر، وتأمر جواريها بالغزل، فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار.. أمرتهن بنقض جميع ما غزلت، فكان هذا دأبها، والمعنى: إن هذه المرأة لم تكف عن العمل، ولا حين عملت كفت عن النقض، فكذلك من نقض العهد، لا تركه ولا حين عاهد وفى.

والخلاصة[2]: أنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزلها بعد فتله وإبرامه، تحذيراً للمخاطبين وتنبيهاً إلى أنَّ هذا ليس من فعل العقلاء، وصاحبه في زمرة الحمق من النساء، وجملة قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من[3] الضمير في: ﴿لا تكونوا﴾؛ أي: لا تكونوا مشابهين بامرأةٍ شأنها هذا، حال كونكم متخذين أيمانكم دخلا ومفسدةً وخديعة بينكم، بسبب ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة قريش ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾؛ أي: أزيد عَدداً وعُدداً وأوفر مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: من جماعة المؤمنين.

أي: ولا تكونوا[4] كالتي نقضت غزلها، حالة كونكم تجعلون أيمانكم - التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتم - خديعةً وغروراً، ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر، وترك الوفاء بالعهد، والنقلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عَدداً وعُدداً وأعز نفراً، بل عليكم بالوفاء بالعهود والمحافظة

---

(1) الخازن.
(2) المراغي.
(3) روح البيان.
(4) المراغي.

عليها في كل حال.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز نفراً، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفراً، فنهوا عن ذلك، وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم، فينقضوا بيعة النبي ﷺ، والظبي وإن كان واحداً فهو خير من قطيع الخنزير.

ومحل ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ نصب على كونه خبر كان، وفي «المدارك»: ﴿هِيَ أَرْبَىٰ﴾ مبتدأو خبر في موضع الرفع صفة لأمة، و﴿أُمَّةٌ﴾: فاعل ﴿تكون﴾ وهي تامة، كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ﴾؛ أي: بأن تكون أمة هي أربى من أمة؛ أي: يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم، وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال، والضمير في ﴿بِهِ﴾ إما عائد على المصدر المنسبك من ﴿أَن تَكُونَ﴾ أو على الوفاء بالعهد.

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليبينن لكم ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه، لمجازاة كل فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من إقرار المؤمن بوحدانية ربه، ونبوة نبيه، والوحي إلى أنبيائه، وتكذيب الكافر بذلك كله، وهذا إنذار وتخويف من مخالفة ملة الإسلام ودين الحق، فإنها مؤدية إلى العذاب الأبدي.

وبعد أن أبان أنه كلَّفهم بوفاء العهد، وتحريم نقضه.. أتبعه ببيان أنه قادر على جمعهم على هذا الوفاء، وعلى سائر أبواب الإيمان فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى مشيئة قسر وإلجاء، ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك لكونه مزاحماً للحكمة الإلهية، بل شاء اختلافكم لحكمة لا يعلمها إلا هو، ولذلك ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله بخذلانه إياه عدلاً منه، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه إياه فضلاً منه، وذلك مما

اقتضته الحكمة الإلهية، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

والمعنى: أي[1] ولو شاء الله سبحانه وتعالى لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة، ولم يجعل لهم اختياراً فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبه بالملائكة، مفطورين على طاعة الله، واعتقاد الحق، وعدم الميل إلى الزّيغ والجور، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين، وعاملين بالاختيار لا مفطورين، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم، فللإنسان اختيار أوتيه بحسب استعداده الأزلي، وهو مجبور فيه، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار، الذي يشاهد، وتكون عاقبته الجنة أو النار.

﴿و﴾ عزتي وجلالي ﴿لتسألن﴾ جميعا أيها الناس يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة، لا سؤال استفهام واستفسار ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الوفاء والنقض ونحوهما، فتجزون به، فيجازى المحسن بإحسانه، ويعقاب المسيء بإساءته، أو يغفر له، ثم لما نهاهم[2] سبحانه عن نقض مطلق الأيمان.. نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: ولا تجعلوا أيمانكم أيها المؤمنون ﴿دَخَلَۢا﴾؛ أي: مكراً وخديعة وغدراً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فتغروا بها الناس، فيسكنوا إلى أيمانكم ويأمنوا إليكم، ثم تنقضونها، وإنما كرر[3] هذا المعنى تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظم أمر نقض العهد.

قال المفسرون: وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، نهاهم عن نقض عهده، لأن الوعيد الذي بعده، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض عهد غيره، إنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به وبشريعته ﴿فَتَزِلَّ﴾ نصب في جواب النهي؛ أي: فتسقط ﴿قَدَمُۢ﴾؛ أي: أقدامكم أيها المؤمنون عن محجة الحق ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها، ورسوخها فيها بالإيمان، وإفراد[4] القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أي قدم كانت

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الخازن.

عزت أو هانت محذورٌ عظيمٌ، فكيف بأقدامٍ كثيرةٍ؛ أي: فتزلوا عن طاعة الله، فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقط عن الدرجات العالية، ووقع في الضلالة.

﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: العذاب السيء في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾؛ أي: بصدودكم وخروجكم أو بصدكم ومنعكم غيركم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظم بالوفاء بالعهود والإيمان، فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنةً لغيره، ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد بنقضكم العهد.

ومعنى الآية: أي[1] ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تغرون بها الناس، والمراد نهي المخاطبين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، ذلك أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام.

وحلفوا على ذلك أوكد الأيمان، ثم نقضوا ما فعلوا لقلة أهله وكثرة أهل الشرك، فنهوا عن ذلك.

قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ الآية؛ أي: إنكم بعملكم هذا النقض تكونون قد وقعتم في محظورات ثلاثة:

١ ـ أنكم تضلون وتبعدون عن محجة الحق والهدى بعد أن رسخت أقدامكم فيها.

٢ ـ أنكم تكونوا قدوة لسواكم، وتستنون سنةً لغيركم فيها صد عن سبيل الحق، ويكون لكم بها سوء العذاب في الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلاء عن الديار.

٣ ـ أنكم ستعاقبون في الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مجانفة الحق والإعراض عن أهله، والدخول في زمرة أهل الشقاء والضلال.

ثم أكد هذا التحذير بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا؛ أي: لا تستبدلوا بها عوضاً يسيراً؛ أي: لا تأخذوا في مقابلة نقضه عوضاً حقيراً، وهو ما كانت قريش يعدون

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ضعفة المسلمين، ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا، ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تفاوت ما بين العوضين أوفوا بعهدكم واحذروا عن نقضه.

والمعنى: أي ولا تأخذوا في مقابلة نقض العهد عوضاً يسيراً من الدنيا، وقد كان هذا حال قوم ممن أسلموا بمكة، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله ﷺ، جزعاً مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم للمؤمنين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم، فنبههم الله تعالى بهذه الآية، ونهاهم عن أن يتبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم في الآخرة بما وعدوهم به من عرض الدنيا وزينتها.

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا وعظيم ما تركوا بقوله: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: إن ما خبأه الله لكم وادخره من جزيل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل في الدنيا، إن كنتم من ذوي العقول الراجحة والأفكار الثاقبة، التي تزن الأمور بميزان الفائدة، وتقدر الفرق بين العوضين.

ثم بين وجه خيريته ورجاحة شأنه بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ أيها الناس من أعراض الدنيا وإن كثرت ﴿يَنفَدُ﴾؛ أي: يفنى وينقضي ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من خزائن رحمته الدنيوية والآخروية ﴿بَاقٍ﴾ لا نفاد له ولا انتهاء ولا انقضاء، وهو حجة على الجهمية القائلين بأن نعيم الجنة يتناهى: ينقطع، ويصح الوقف عليه بثبوت الياء وبحذفها مع سكون القاف، وهما سبعيتان؛ أي: إن ما تتمتعون به من نعيم الدنيا بل الدنيا وما فيها تنفد وتنقضي، وإن طال الأمد وجل العدد، وما في خزائن الله باق لا نفاد له، فلما عنده تعالى فاعملوا، وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا.

ثم رغب سبحانه المؤمنين في الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لنعطينَّ ولنثيبن ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على إذاية المشركين، وعلى مشاق التزام تكاليف الإسلام التي من جملتها الوفاء

بالعهود والمواثيق ﴿أَجْرَهُم﴾ الخاص بهم بمقابلة صبرهم على الأمور المذكورة، وهو مفعول ثان لنجزين ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي[1]: لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين، والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء، بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات، قيل: وإنما خصّ أحسن أعمالهم لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى ولنجزينهم بجزاءٍ أشرف وأوفر من عملهم، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها، من الجزاء الجزيل لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن، بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن كذا قيل، قال أبو حيان: والذي[2] يظهر أن المراد بالأحسن هنا الصبر؛ أي: ولنجزين الذين صبروا بصبرهم؛ أي: بجزاء صبرهم، وجعل الصبر أحسن الأعمال، لاحتياج جميع التكاليف إليه، وهو أس الأعمال الصالحة ورأسها، فكان الأحسن لذلك، وقرأ عاصم وابن كثير: ﴿ولنجزين﴾ بالنون وباقي السبعة بالياء.

وفي الآية[3]: عدةٌ جميلةٌ باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعتريهم بحسب الطبيعة البشرية.

ثم رغبهم في المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ أيَّ عمل كان قولياً أو فعلياً، وهو ما كان لوجه الله تعالى ورضاه، ليس فيه هوى ولا رياء، والفرق بينهما أن الهوى بالنسبة إلى النفس والرياء بالنسبة إلى الخلق، حال كون ذلك العامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ أي: من رجل أو امرأة، بينه[4] بالنوعين ليعمُّهما الوعد الآتي، ولا يتوهم التخصيص بالذكور بناء على كثرة استعمال لفظ ﴿مَنْ﴾ فيهم، وأن الإناث لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

يدخلن في أكثر الأحكام والمحاورات إلا بطريق التغليب أو التبعية ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن ذلك العامل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ مخلص، قيده به إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ في الدنيا ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فيعيش عيشاً طيباً لأنه إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فلا يدعه الحرص وخوف القوت أن يتهنأ بعيشه، واللام في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ لام قسم، وكذا في قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ونعطين أولئك العاملين في الآخرة ﴿أَجْرَهُم﴾ الخاص بهم وثوابهم الجزيل ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يعملون من الصالحات، وإنما أضيف[1] إليه الأحسن للإشعار بكمال حسنه، وقد قدَّمْنا قريباً تفسير الجزاء بالأحسن في حق الصابرين فراجعه، ووحَّد[2] الضمير في ﴿لنحيينه﴾ وجمعه في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ حملاً على لفظ ﴿مَن﴾ وعلى معناه، وروي[3] عن نافع: ﴿وليجزينهم﴾ بالياء بدل النون التفت من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة.

والمعنى: أي[4] من عمل صالح الأعمال، وأدى فرائض الله التي أوجبها عليه، وهو مصدق بثوابه الذي وعد به أهل طاعته، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم.. فلنحيينه حياة طيبة تصحبها القناعة بما قسم الله له، والرضا بما قدره وقضاه، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره، والله محسن كريم لا يفعل إلاّ ما فيه المصلحة، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال فلا يقيم لها في نفسه وزناً، فلا يعظم فرحه بوجدانها، ولا غمه بفقدانها، ثم هو بعد ذلك يجزى في الآخرة أحسن الجزاء، ويثاب أجمل الثواب، جزاء ما قدم من عمل صالح، وتحلى به من إيمان صادق، أما من أعرض عن ذكر الله تعالى، فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً.. فهو في عناء ونكد، إذ يكون شديد الحرص والطمع في الحصول على

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

لذات الدنيا، فإن أصابته محنة أو بلاءٌ.. استعظم أمره، وعظمت أحزانه، وكثر غمه وكدره، وإذا فاته شيء من خيراتها.. عبس وبسر، وامتلأ قلبه أسى وحسرةً، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة في الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها، فإذا هو لم ينل منه ما يريد.. فقد حرم كل ما يحلم به ويقدِّره من وافر السعادة وعظيم الخير، والإنسان بطبعه جزوعٌ هلوع منوعٌ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢)﴾.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير».

وأخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به».

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإعراب

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به أيضاً، وهو في محل المفعول الثاني، أو حال من ﴿سَكَنًا﴾، لأنه صفة نكرةٍ قدمت عليه ﴿سَكَنًا﴾: مفعول أول وفي «الفتوحات»: قوله ﴿سَكَنًا﴾ يجوز[1] أن يكون مفعولاً أول على أن الجعل بمعنى التصيير، والمفعول الثاني أحد الجارين قبله، ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق فيتعدى لواحد انتهى، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض

(١) الفتوحات.

معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: متعلق به أيضاً، ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول أول، أو مفعول به إن كان ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خلق، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿بُيُوتًا﴾، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تستخفون﴾، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ المقدر ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ معطوف على ﴿أَصْوَافِهَا﴾، ﴿أَثَٰثًا﴾ معطوف على ﴿سَكَنًا﴾، وقد فصل[1] بينه وبين حرف العطف بالجار والمجرور وهو قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾، وليس بفصل مستقبح كما زعم في «الإيضاح» لأنَّ الجار والمجرور مفعول، وتقديم مفعول على مفعول قياسي، ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوف على ﴿أَثَٰثًا﴾ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا﴾؛ أي؛ منتفعين بهما إلى حين انقضاء الحاجة إليهما.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿جعل﴾، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما خلقه، ﴿ظِلَٰلًا﴾: مفعول ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ قبله، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ﴾: متعلق به أيضاً، وهو في محل المفعول الثاني لجعل، ﴿أَكْنَٰنًا﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ أيضاً، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَرَٰبِيلَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿سَرَٰبِيلَ﴾، والجملة صفة لـ﴿سَرَٰبِيلَ﴾، ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ معطوف على ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ الأولى، ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿سَرَٰبِيلَ﴾، والجملة صفة لـ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾.

---

(١) العكبري.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، والتقدير: يتم نعمته عليكم إتماماً مثل إتمامه عليكم النعمة المذكورة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُسْلِمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ مستأنفةٌ مسوقةً لتعليل ما قبلها.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا بلَّغتهم ما أرسلت به إليهم، وأردت بيان حكم ما إذا أعرضوا عنه.. فأقول لك ﴿إن تولوا﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فلا تَبْخَع نَفَسَك حسراتٍ عليهم، والجملة الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ ﴿البلاغ﴾، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية، والتقدير: فإن تولوا فلا قصور عليك في حقهم لعدم كون غير البلاغ عليك؛ أي: ليست هدايتهم عليك. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿يَعْرِفُونَ﴾، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف، تقديره: واذْكُر يوم نبعث،

﴿نَبۡعَثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾ ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نَبۡعَثُ﴾، ﴿شَهِيدًا﴾: مفعول به، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُؤۡذَنُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُؤۡذَنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على ﴿نَبۡعَثُ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤۡذَنُ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رَءَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ مفعول به ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُخَفَّفُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا هُمۡ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لا يُنظَرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لا يخفف﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿رَءَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿إذا﴾ ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿شُرَكَآءَهُمۡ﴾: مفعول به لـ ﴿رأى﴾ لأنها بصرية، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى. ﴿رَبَّنَا﴾: إلى قوله: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾،

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَدْعُواْ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، ﴿مِن دُونِكَ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿نَدْعُواْ﴾؛ أي: حالة كوننا متجاوزين بعبادتنا إلى غيرك، ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألقوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿إِلَيْهِمُ﴾: متعلق بـ ﴿ألقوا﴾ ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: مفعول به، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وقالوا إنكم لكاذبون.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَأَلْقَوْاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به الظرف في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به، ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماض، ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿مَّا﴾ المصدرية، ﴿مَّا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير: وضل عنهم افتراؤهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلته، ﴿وَصَدُّواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿صَدُّوا﴾، ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُفْسِدُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إفسادهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿زِدْنَا﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم، ﴿نَبْعَثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾، ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نَبْعَثُ﴾، ﴿شَهِيدًا﴾: مفعول به، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: صفة ﴿شَهِيدًا﴾، ﴿وَجِئْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿نَبْعَثُ﴾، ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿جِئْنَا﴾، ﴿شَهِيدًا﴾: حال من ضمير ﴿بِكَ﴾، ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾. ﴿وَنَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿تِبْيَٰنًا﴾: حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أو مفعول لأجله، ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿تِبْيَٰنًا﴾، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾: معطوفات على ﴿تِبْيَٰنًا﴾ ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بشرى﴾، وهو متعلق من حيث المعنى بهدى ورحمة أيضاً اهـ «سمين».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَأْمُرُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلق بـ﴿يَأْمُرُ﴾. ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: معطوفان عليه، ﴿وَيَنْهَىٰ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَأْمُرُ﴾، ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: متعلق به، ﴿وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾، ﴿يَعِظُكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَأْمُرُ﴾ ﴿وَيَنْهَىٰ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَأَوۡفُواْ﴾: فعل وفاعل، مستأنف، ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل مجرد من معنى الشرط متعلق بـ ﴿أوفوا﴾، ﴿عَٰهَدتُّمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾، ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أوفوا﴾، ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَنقُضُواْ﴾، ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به، ﴿كَفِيلًاۚ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَنقُضُواْ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾، وجملة ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تفعلونه.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، ﴿كَٱلَّتِي﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿تَكُونُواْ﴾ معطوفة على جملة ﴿تَنقُضُواْ﴾، ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نَقَضَتۡ﴾ ﴿أَنكَٰثٗا﴾: حال من ﴿غَزۡلَهَا﴾، أو مفعول ثان لـ﴿نَقَضَتۡ﴾ إذا كان بمعنى صَيَّرَتْ، أو منصوب على المفعولية المطلقة لأنه موافق لعامله في المعنى، ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿دَخَلَۢا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من واو ﴿تَكُونُواْ﴾؛ أي: حالة كونكم متخذين أيمانكم دخلاً بينكم، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾: ناصب وفعل ناقص واسمه، ﴿هِيَ﴾: مبتدأ، ﴿أَرۡبَىٰ﴾: خبره، ﴿مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾: متعلق بـ ﴿أَرۡبَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام المقدرة؛ أي: لأجل كون أمة أربى

وأكثر من أمة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تتخذون﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿يبينن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، وكذا يتعلق به ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول لـ ﴿يبين﴾. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلةٌ لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿جعلكم أمة﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة لـ ﴿أُمَّةً﴾، والجملة الفعلية جواب لـ ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَـٰكِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدارك، ﴿يُضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إضلاله، وجملة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿تسألن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، مرفوع بثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، وهو المفعول الأول لِسَأل، لأنَّ أصله لَتُسْأَلُونَنَّ، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تسألن﴾ وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿سأل﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص

واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عمّا كنتم تعملونه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿دَخَلًۢا﴾، والجملة مستأنفة، ﴿فَتَزِلَّ﴾ ﴿الفاء﴾) عاطفة سببية ﴿تَزِلّ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، ﴿قَدَمٌۢ﴾: فاعل، ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَزِلّ﴾ ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿تزل﴾، وجملة ﴿تزل﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر مُتصيِّد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، والتقدير: لا يكن اتخاذكم أيمانكم دخلاً بينكم فزلة قدم بعد ثبوتها وذوقكم السوء، ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿ما﴾: مصدرية ﴿صَدَدتُّمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿ما﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: بسبب صدكم عن سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تذوقوا﴾، ﴿وَلَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تذوقوا﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾، ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تشتروا﴾، ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة ﴿ثَمَنًا﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب اسمها، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما

قبلها، وفي رسم ﴿إنَّ﴾ هذه اختلاف بين المصاحف العثمانية، ففي بعضها وصلها بـ ﴿ما﴾، وفي بعضها فصلها عنها، كما ذكره ابن الجزري بقوله:

وخُلْفُ الأنفالِ ونَحْلٍ وَقَعا

﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون تفاوت ما بين العوضين فأوفوا بعهد الله واحذروا نقضه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿مَا﴾: مبتدأ، ﴿عِندَكُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿يَنفَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، وجملة ﴿يَنفَدُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ مبتدأ وصلته، ﴿بَاقٍ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نجزين﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿صَبَرُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَجْرَهُم﴾: مفعول ﴿نجزين﴾، ﴿بِأَحْسَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نجزين﴾ و﴿الباء﴾ بمعنى على، ﴿أحسن﴾ مضاف، ﴿مَا﴾: موصولة في محل الجر مضاف إليه، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿عَمِلَ﴾: فعل ماض، وفاعله

ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾ أيضاً، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿نحيين﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، و﴿الهاء﴾ مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿حَيَوٰةً﴾: مفعول مطلق، ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة لـ﴿حَيَوٰةً﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نجزينهم أجرهم﴾ فعل ومفعولان ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأول، على كونها جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿بِأَحْسَنِ﴾: متعلق بـ ﴿نجزين﴾، و﴿الباء﴾ بمعنى على، ﴿أحسن﴾ مضاف، ﴿مَا﴾: في محل الجر مضاف إليه، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها نظير ما تقدم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَكَنًا﴾؛ أي: مسكناً، وقال أهل اللغة: السكن فَعَلٌ بمعنى مفعول، كالقبض والنفض بمعنى المقبوض والمنفوض اهـ «سمين»؛ أي: موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ والظَّعْنُ بسكون العين وفتحها: السَّيْرُ في البادية لِنُجْعَةٍ أو طلب ماءٍ أو مَرْتَعٍ، والأصواف للضأن، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز، والأثاث متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها، ولا واحد له من لفظه، والمتاع ما يستمتع وينتفع به في المتجر والمعاش، وقال في «القاموس»: الأثاث متاع البيت بلا واحد، أو المال أجمع، والواحدة أثاثة، والمتاع ما تمتعت به من الحوائج، والجمع أمتعة اهـ.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى مدة من الزمان، فإنها لصلابتها تبقى مدةً مديدةً، أو إلى انقضاء آجالكم، ﴿ظِلَٰلًا﴾ جمع ظل، وهو ما يستظل به؛ أي: أشياء تستظلون بها من الحر، كالغمام والشجر والجبل وغيرها، ﴿أَكْنَٰنًا﴾، جمع كن، وهو ما يستكن به؛ أي: مواضع تستكنون فيها من الكهوف والغِيران والسُّروب في الجبل، وفي «المختار»: الكن: السترة، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ والأكنة الأغطية، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الواحد كنان، وقال الكسائي: كن الشيء ستره وبابه ردَّ اهـ، وفي «القاموس»: الكِن بالكسر وقاء كل شيء وستره، كالكنة والكنان بكسرهما، والكن البيت جمعه كنان وأكنة، وكنه كنا وكنوناً، وأكنه وكننه واكتنه ستره، واستكن: استتر كاكتن، والكنة جناح يخرج من حائط، أو سقيفة فوق باب الدار، أو ظلة هنالك أو مخدع اهـ.

﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ جمع سربال، وهو القميص من القطن والكتَّان والصوف وغيرها، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وسرابيل الحرب الجواشن والدروع، والبأس الشدة في الحرب والقتل والجراحة كما في «التبيان» ويراد به هنا الحرب.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فعل ماض من باب تفعل، أو مضارع حذفت منه إحدى التاءين، وفي صيغة التفعل إشارةٌ إلى أن الفطرة الأولى داعية إلى الإقبال على الله، والإعراض لا يكون إلا بنوع تكلفٍ ومعالجةٍ، ذكره في «روح البيان».

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ البلاغ اسم مصدر لبلغ بمعنى التبليغ، الذي هو مصدر بلغ المضعف، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ الأمة الجيل من الناس، وشهيد كل أمة نبيها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقال استعتبه وأعتبه إذا رضي عنه، واستعتبت فلاناً يعني أعتبته؛ أي: أزلت عتباه، واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر، قالوا: استدنيت فلاناً وأدنيته بمعنى واحد، وقيل: السين على بابها من الطلب بمعنى لا يطلبون عتباهم؛ أي: رجوعهم إلى الدنيا، وفي «المختار»: عتب عليه وجد ـ وبابه ضرب ونصر ـ

ومعتباً أيضاً بفتح التاء، والتعتب كالعتب، والاسم المعتبة بفتح التاء وكسرها، قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة، وعاتبه معاتبة وعتاباً، وأعتبه سره بعد ما ساءه، والاسم منه العتبى، ويقال استعتبه فأعتبه؛ أي: استرضاه فأرضاه انتهى.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ والشركاء الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة، ﴿نَدْعُوا۟﴾ نعبد، ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أصله فألقيوا، لأنه من ألقى تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فالتقى ساكنان الألف والواو ثم حذفت الألف فصار فألقوا، و﴿ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد، ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع وبطل، والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل، ومن بعدهم إلى يوم القيامة.

﴿تِبْيَـٰنًا﴾؛ أي: بياناً لأمور الدين إمَّا نصًّا فيها، أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين في كل عصر، وهو مصدر بين بياناً وتبييناً وتبياناً، زيدت التاء للمبالغة، ولم يجيء من المصدر على هذه الزنة إلاَّ لفظان هذا والتلقاء، وفي الأسماء كثير نحو التمساح والتمثال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ و﴿العدل﴾ لغة المساواة في كل شيء بلا زيادة ولا نقصان فيه، والمراد به هنا المكافأة في الخير والشر، ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بالعفو عنه، ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر، ﴿والفحشاء﴾ ما قبح من القول والفعل، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره العقول من دواعي القوة الغضبية، كالضرب الشديد والقتل، والتطاول على الناس، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الاستعلاء على الناس، والتجبر عليهم بالظلم والعدوان، والوعظ: التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد، والعهد: كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد، ونقض اليمين: الحنث فيها، وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض، و﴿تَوْكِيدِهَا﴾ توثيقها، والتشديد فيها بزيادة الأسماء والصفات فيها، والتوكيد مصدر وكد يوكد

بالواو، وفيه لغة أخرى: أكد يؤكد بالهمزة، ومعناه التقوية، وهذا كقولهم: ورخت الكتاب وأرخته، وليست الهمزة بدلاً من واو كما زعم أبو إسحاق، لأن الاستعمالين في المادتين متساويان، فليس ادعاء كون أحدهما أصلاً أولى من الآخر، وتبع مكيٌّ الزجاج في ذلك ثم قال: ولا يحسن أن يقال الواو بدل من الهمزة، كما لا يحسن أن يقال في أحد إنَّ أصله وحدٌ، فالهمزة بدل من الواو، يعني أنه لا قائل بذلك، وتبعه الزمخشري أيضاً، وتوكيدها مصدر مضاف لمفعوله اهـ «سمين»؛ أي: بعد توكيدكم لها.

﴿كَفِيلًاۚ﴾؛ أي: شاهداً ورقيباً، و﴿الغزل﴾ ما غزل من صوف وقطن ونحوهما، ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ القوة هنا الإبرام والإحكام، ﴿أَنكَٰثٗا﴾ والأنكاث جمع نكث بكسر النون، كأحمال وحمل، وهو ما ينكث فتله وينقض بعد غزله، وفي «المصباح»: نكث الرجل العهد نكثاً ـ من باب قتل نقضه ونبذه ـ فانتكث مثل نقضه فانتقض، ونكث الكساء وغيره نقضه أيضاً، والنكث بالكسر ما نقض ليغزل ثانياً، والجمع أنكاث مثل حمل وأحمال اهـ.

﴿دَخَلَۢا﴾ والدَّخل بفتحتين المكر والخديعة والفساد، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل، والدخل ما يدخل في الشيء وليس منه، وأصل الدخل العيب. والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه اهـ شيخنا، ويراد به هنا أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ﴾؛ أي: أكثر وأوفر عدادا وعدداً، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ زلَّة القدم بعد ثبوتها: مثلٌ يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة، وبلاءٍ بعد عافية، ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ إما من صدَّ اللازم؛ أي: بامتناعكم منها، أو من صَدْ المتعدي؛ أي: بمنعكم غيركم، وفي «المصباح»: صددته عن كذا صدًّا، من باب قتل، منعته وصرفته، وصددت عنه أعرضت، وصد من كذا يصد من باب ضرب وضحك اهـ.

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ﴾ والنفاد الفناء والذهاب، يقال: نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفاداً ونفوداً، وأما نفذاً بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح، ينفذ بالضم، ويقال:

أنفذ القوم، إذا فني زادهم اهـ «سمين»، والحياة الطيبة: هي القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا لما في ذلك من الكد والعناء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إن قلنا: إن المراد بالبيوت المتخذة من جلودها الخيام المتخذة من الصوف والوبر والشعر.. فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال، من حيث إنها نابتة على جلودها، فيصدق عليها أنها من جلودها، كما أشار إليه في «الجَمَل».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَعْرِفُونَ﴾، وقوله: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾، وفي قوله: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ و﴿إِقَامَتِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، والاكتفاء عندهم ذكر أحد متقابلين وحذف الآخر لعلمه من المذكور.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ لزيادة التهديد.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ إن قلنا: إنه ماض مسند إلى ضمير الغائب، ويصح أن يكون مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين، وأصله تتولوا، فهو حينئذٍ على الظاهر، فلا التفات فيه.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه في قوله: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام فيه وفي غيره.

ومنها: إيثار صيغة الاستقبال في قوله: ﴿يَأْمُرُ﴾ ﴿وَيَنْهَىٰ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار كما ذكره «أبو السعود».

ومنها: حذف متعلقات العدل والإحسان والبغي؛ ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به إليه ويُبغى فيه.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأن الترجّي والتمني ليس مراداً من لعل، لأن ذلك محالٌ على الله سبحانه وتعالى، فوجب أن يكون معناه: أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تذكروا طاعته اهـ «كرخي».

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ الآية، شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه، في القبح وعدم النفع بعمله.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين، والتمكن فيه، لأن أصل الثبات يكون بالقدم، ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عن محلها.. عبر عنه بالإنزلاق الحسي على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: إفراد القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أيَّ قدم كانت عزت أو هانت محذورٌ عظيم، فكيف بأقدام كثيرة اهـ «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه يجزي المؤمنين بأحسن أعمالهم.. أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان.

وعبارة أبي حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وذكر أشياء مما بيّن في الكتاب، ثم ذكر قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ذكر ما يصون به القارىء قراءته من وسوسة الشيطان ونزغه، فخاطب السامع بالاستعاذة منه إذا أخذ في القراءة، فإن كان الخطاب للرسول الله ﷺ لفظاً فالمراد أُمته، إذ كانت قراءة القرآن من أجل الأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث: «إنَّ ثواب قراءة كل حرف عشر حسنات».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[3] بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن.. أردف ذلك بذكر باب من أبواب فتنته ووسوسته، بإلقاء الشبهات والشكوك لدى منكري نبوة محمد ﷺ، وقد ذكر منها شبهتين:

١ ـ أنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعةً ماضية، فيعيرون محمداً بذلك.

٢ ـ أنهم قالوا: إنَّ ما جاء به إنما هو تعليم من البشر، من بعض أهل الكتاب، لا من الله، فأبطل هذه الشبهات بأنه كلام عربي مبين، وما نسبتم إليه تعليمه أعجمي، فكيف يعلمه الكلام العربي الفصيح، الذي أعجز العرب قاطبةً أن يأتوا بمثله.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[4] في الآيات

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

السالفة أن قريشاً كفروا برسول الله ﷺ، وتقولوا عليه الأقاويل، فوصفوه بأنه مفتر، وأن الكتاب الذي جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله، ثم هدّدهم على ذلك أعظم تهديد.. أردف ذلك ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه مليء بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه مليءٌ بالإيمان.. أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم، فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين أبائهم وأجدادهم، ثم فروا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه، وانتظموا في سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين فحكم ربهم بقبول توبتهم، ودخولهم في زمرة الصالحين، وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما هدد الكافرين بالعذاب الشديد في الآخرة.. أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد، بعد أمن واطمئنان وعيش رغد.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[2] حال من كفروا بأنعم الله، وكذبوا رسوله، وأنه قد حل بهم العذاب من جوع وخوف، بسبب ظلمهم لأنفسهم، وصدهم عن سبيل الله.. قفى على ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب، وشكرهم لنعمة الله عليهم، وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى، كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم، ثم بين ما حرمه من المآكل، وأنَّ التحليل والتحريم لا يكونان إلا بنص من الدين، لا بالهوى

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

والتشهي، لأن ذلك افتراء على الله، ومن يفتر عليه لا يفلح، وأنَّ ما حرم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل في سورة الأنعام، وأنَّ من يعمل السوء لعدم تدبره في العواقب كغلبة الشهوة عليه، ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله فإن الله غفور لزلاته رحيم له، فيثيبه على طاعته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما[1] أخرجه ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قَيناً بمكة اسمه بَلْعَام، وكان نصرانياً أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ...﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، أحدهما يقال له يسارٌ والآخر جبرٌ، وكانا صيقليين، فكانا يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا: إنما يتعلم منهما، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة.. أخذ المشركون بلالاً وخباباً وعمار بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ.. حدثه، فقال: «كيف كان قلبك حين قلت، أكان منشرحاً بالذي قلت»، قال: لا، فأنزل الله سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ...﴾.

وأخرج[2] عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة: أن هاجروا، فخرجوا يريدون المدينة،

---

(١) لباب النقول. (٢) لباب النقول.

فأدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم، فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ إلى آخر الآية، قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية، لا عذرلهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ فكتبوا إليهم بذلك، إن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فأدركهم المشركون، فقاتلوهم، ثم نجا من نجا، وقتل من قتل الحديث. قال الهيمثي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة.

وأخرج[1] ابن سعد في «الطبقات» عن عمر بن الحكم قال: كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: فإذا أردت قراءة القرآن. عبّر[2] عن الإرادة بالقراءة على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب، إيذاناً بأنَّ المراد هي الإرادة المتصلة بالقراءة، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاسأل الله سبحانه وتعالى أن

---

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.

يُعيذك ويحفظك ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ أي: البعيد عن الخير ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾؛ أي: المرجوم بالطرد واللعين؛ أي: من وساوسه وخطراته، كيلا يوسوسك عند القراءة، فإن ناصية كل مخلوق بيده سبحانه، أو قل: أعوذ بالله من الشيطان، وهو المختار من الروايات الأربع عشرة الواردة في ألفاظ الاستعاذة.

والخطاب فيه للنبي ﷺ، والمراد به الأمة، لأنه ﷺ معصوم من الشيطان، وإنما خُصَّ النبي ﷺ به لتعتبر الأمة، وتنتبه إلى أن النبي ﷺ إذا أمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم فغيره أولى بها وأحق، ولمَّا[1] كان الشيطان ساعياً في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، وكانت الاستعاذة بالله مانعةً من ذلك.. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة، حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان.

وعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة: «قال: الله أكبر كبيراً ثلاثاً والحمد لله ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثه وهمزته، قال: نفخته الكبر، ونفثه السحر، وهمزته الموتة» أخرجه أبو داود، الموتة الجنون.

والفاء في قوله[2]: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ للتعقيب، فظاهر لفظ الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وهو قول أبي هريرة، وإليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري، قالوا: لأن قارىء القرآن يستحق ثواباً عظيماً، وربما حصلت الوساوس في قلب القارىء هل حصل له ذلك الثواب أم لا، فإذا استعاذ بعد القراءة.. اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصاً، فأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، قالوا: ومعنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن.. فاستعذ بالله، ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ إلخ، لأن الوسوسة إنما تحصل

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

في أثناء القراءة، فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب عنه الوسوسة أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها.

ومذهب عطاء أن الاستعاذة تجب عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها، لأن الأمر للوجوب واتفق سائر الفقهاء على أنَّ الاستعاذة سنةٌ في الصلاة وغيرها، وقد تقدمت هذه المسألة والخلاف فيها في أوائل سورة الفاتحة.

والاستعاذة[1]: الاعتصام بالله والالتجاء إليه من شر الشيطان ووسوسته، والمراد من الشيطان إبليس، وقيل: هو اسم جنس يطلق على جميع المَرَدةِ من الشياطين، لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم بإقدار الله إيَّاهم على ذلك.

والمعنى[2]: إذا قصدت الشروع في قراءة القرآن.. فاسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيذك فيها من وساوس الشيطان الرجيم، لئلا يلبس عليك قراءتك، ويمنعك من التدبر التفكر فيها، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ وإذا أمر النبي ﷺ بالاستعاذة مع عصمته منه، فما بالك بسائر أمته.

ثم بين أن الناس فريقان:

فريق لا تسلط له عليهم، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشيطان أو الشأن ﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾؛ أي: تسلط وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بربهم، وصدقوا بوحدانيته وقدرته ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون، وإليه يفوضون أمورهم ديناً ودنيا؛ أي: إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بلقاء الله تعالى، ويفوضون أمورهم إليه، وبه يعوذون، وإليه يلتجئون، فلا يقبلون ما يوسوس به، ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته، وعن سفيان الثوري أنه قال: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم، يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه ليحفظهم الله تعالى من

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

وساوسه، التي ربما جرتهم إلى الوقوع في صغائر الآثام إذا وقعت على سبيل الندرة أو الغفلة.

ولما أمر[1] القارىء بأن يسأل الله تعالى أن يعيذه من وساوسه، وتوهم منه أن له تسلطاً وولايةً على إغواء بني آدم كلهم.. بيَّن الله تعالى أن لا تسلط له على المؤمنين المتوكلين، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلخ في معرض التعليل للأمر بالاستعاذة، وإشارةٌ إلى أن مجرد القول لا ينفع، بل لا بد لمن أراد أن لا يكون للشيطان سبيل عليه أن يجمع بين الإيمان والتوكل.

والفريق الثاني الذين عناهم بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾؛ أي: تسلطه بالغواية والضلالة، وغلبته بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانه بالقسر والإلجاء، فإنه مُنْتَفٍ عن الفريقين، لقوله تعالى حكايةً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ وقد أفصح عنه قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ أي: إنما تسلطه وغلبته على الذين يتخذونه وليًّا، ويجعلونه ناصراً لهم، فيحبونه ويطيعونه، ويستجيبون دعوته، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب إغوائه وإضلاله ﴿مُشْرِكُونَ﴾؛ أي: يشركون بربهم غيره في العبادة والطاعة، وقيل: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى الله؛ أي: والذين هم مشركون به تعالى غيره من الأصنام وسائر معبوداتهم.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾؛ أي: وإذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من[2] التغليظ والتخفيف في مصالح العباد، وما الشرائع إلا مصالح للعباد في المعاش والمعاد، فالمصالح تدور وهذه الجملة معترضة، لاعتراضها بين الشرط، وهو ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ وجوابه وهو ﴿قَالُوٓاْ﴾ لتوبيخ الكفرة على كونهم ينسبون رسول الله ﷺ إلى الافتراء في التبديل، وللتنبيه على فساد رأيهم؛ أي: والله أعلم بما ينزل أولاً وآخراً من الأحكام والشرائع، التي هي مصالح، ورب شيء يكون مصلحةً في وقت يكون مفسدةً في وقت آخر، فينسخه ويثبت مكانه ما يكون مصلحة لخلقه؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

أي: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الكفار من أهل مكة للنبي ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفۡتَرِۭ﴾؛ أي: مختلقٌ من عند نفسك، كاذب على الله، متقول عليه بما لم يقل، حيث تزعم أنه أمرك بشيء، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم أصلاً، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ، فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحةٌ مؤقتة بوقتٍ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب، ومنهج العدل والرفق واللطف، وأقلهم يعلم الحكمة في النسخ، ولكن ينكر عناداً، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها.. تقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر، وغداً ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومعنى الآية: أي[1] وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ـ والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل من أحكامه ـ قال المشركون المكذبون لرسوله ﷺ: إنما أنت يا محمد متقوِّل على الله، تأمر بشيء، ثم تنهى عنه، وأكثرهم لا يعلمون ما في التبديل من حكم بالغة، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عناداً واستكباراً.

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ توبيخ لهم، وإيماءٌ إلى أن التبديل لم يكن عن الهوى، بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ثم إذا أعاده مرةً أخرى.. نهاه عن ذلك الدواء، وأمره بضده، أو بما لا يقرب منه بحسب ما يرى من حال المريض.

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان، والأحوال الملابسة،

---

(١) المراغي.

وقد يطرأ ما يغيِّرها ويستدعي وضع تشريع آخر، يكون أصلح للأحوال المفاجئة، والمشاهدة تدل على صدق هذا فإنا نرى القوانين الوضعية تغير آناً بعد آن، إذا جد ما يستدعي ذلك.

ثم بين لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله، وأن رسوله ﷺ قد افتراه فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿نَزَّلَهُ﴾؛ أي: نزل هذا القرآن المدلول عليه بذكر آية، وفي ﴿ينزل﴾[1] و﴿نزَّل﴾ تنبيه على أن إنزاله كان مدرجاً بحسب الوقائع ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾؛ أي: الروح المطهر من الأدناس البشرية، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كحاتم الجود، وطلحة الخير، وقرأ ابن كثير: ﴿نزله روح القدس﴾ بالتخفيف كما في «البيضاوي»، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه و﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال؛ أي: نزله حالة كونه متلبساً بكونه حقاً ثابتاً موافقاً للحكمة البالغة المقتضية له، بحيث لا يفارقها إنشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق.

﴿لِيُثَبِّتَ﴾ الله سبحانه وتعالى، أو[2] جبريل مجازاً ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمان، بأن القرآن كلام الله، فإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال.. رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم، على أن الله تعالى حكيم، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه تعالى، وهما معطوفان على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ فهما منصوبان باعتبار لفظه المقدّر عليه الإعراب، ومجروران باعتبار المصدر المؤول، والتقدير: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، أو لتثبيت الذين آمنوا وهدايتهم وبشارتهم، وفيه تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سواهم من الكفار، وقرىء[3]: ﴿لِيُثْبِتَ﴾ مخففاً من أثبت الرباعي.

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

وحاصل معنى الآية: أي قل لهم[1] يا محمد قد جاء جبريل من عند ربي بما أتلوه عليكم، واقتضته الحكمة البالغة من تثبيت المؤمنين، وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلةٍ قاطعةٍ، وبراهين ساطعةٍ على وحدانية خالق الكون، وباهر قدرته، وواسع علمه، وحث على النظر في ملكوت السموات والأرض، وتشريع يرقى بالأمم في أخلاقها وآدابها ومعارفها إلى مستوى لا تدانيها فيه أمةٌ أخرى.

والخلاصة: أنه نافع كل النفع لهم في دينهم ودنياهم، فإذا هم رأوا ذلك.. رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم، كما أن فيه هداية لهم من الزيغ والضلالات، ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماع الطغيان، ويرد الظالم عن ظلمه، ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض، وفيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم وكدهم ونصبهم إرضاء لربهم، وفي هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا كما مر، فهم متزلزلون ضالون، لهم خزيٌ ونكالٌ في الدنيا والآخرة.

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد نعلم علماً مستمراً نحن أن كفار مكة يقولون جهلاً منهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾؛ أي: إنما يعلم محمداً ﷺ هذا الذي يتلوه علينا بشرٌ من بني آدم، وليس بالوحي من عند الله تعالى كما يدَّعي، وكلمة إنما أداة حصر؛ أي: لا يعلم محمداً القرآن إلا بشرٌ، لا جبريل كما يدَّعي، وأدخل[2] قد على الجملة القسمية توكيداً لعلمه بما يقولون، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعد والوعيد لهم، وذكر ابن الحاجب أنهم نقلوا قد إذا دخلت على المضارع من التقليل إلى التحقيق، كما أن ربما في المضارع نقلت من التقليل إلى التحقيق.

قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: عنوا عبدين لنا، أحدهما يقال له يسارٌ، والآخر جبرٌ، وكانا يصنعان السيف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان رسول الله ﷺ يمر عليهما، ويسمع ما يقرآنه، فالمراد بالبشر هنا ذانك الغلامان،

(١) روح البيان.

فرد الله تعالى عليهم وكذبهم في قيلهم، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ مبتدأ وخبر، وكذا ما بعده، والإلحاد الإمالة عن الصواب، من ألحد فلان إذا مال في قوله عن الصواب، والأعجمي هو الذي لا يفصح، وإن كان عربياً، والعجمي هو المنسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً كما سيأتي، والمعنى لغة البشر والرجل الذي يميلون إليه القول عن الاستقامة، ويشيرون إليه أنه يعلم محمداً أعجمية غير بينة، ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن الكريم ﴿لِسَانٌ عَـرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: لغةٌ عربيةٌ ذات بيان وفصاحة، فكيف يصدر تعليم محمد عن أعجم، يعني أن القرآن معجز بنظمه، كما أنه معجز بمعناه، لاشتماله على الإخبار عن الغيب، فإن زعمتم أن بشراً يعلمه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا، لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل.

وخلاصة هذا[1]: أن ما يسمعه محمد من ذالك البشر كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون هو ما تلقفه منه، هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه، فهو لم يلقف منه اللفظ، لأنَّ ذلك أعجمي وهذا عربي، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى، هو معجز من حيث اللفظ، إلا أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس، والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مدداً متطاولة، فليس من الميسور ولا مما يجد العقل اطمئناناً إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سوقي، سمع منه أخباراً بلغة أعجمية، لعله لم يكن يعرف معناها، وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم أنتم أفصح الناس بياناً، وأقواهم حجة وبرهاناً، وأقدرهم على الكلام نظماً ونثراً، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله، فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكن؟ وفي التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ونهاية السخف:

فدعهم يزعمون الصبح ليلاً أيعمى الناظرون عن الضياء

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ الحسن[1]: ﴿اللسان الذي﴾ بتعريف اللسان بأل، والذي صفتُه، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَلْحَدُون﴾ بفتح الياء والحاء من لحد ثلاثياً، وهي قراءة عبد الله بن طلحة والسلمي والأعمش ومجاهد، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وابن القعقاع: ﴿يُلْحِدون﴾ بضم الياء وكسر الحاء من ألحد رباعياً، وهما بمعنى واحد.

ثم توعدهم على ما قالوا بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا يصدقون بأن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى، بل يقولون فيها ما يقولون، فيقولون تارة إنها مفتريات، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، سبحانه وتعالى ولا يرشدهم إلى معرفة الحق الذي ينجيهم من عذاب النار، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترحوا من السيئات، ودنسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة إذا وردوا إلى ربهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجع، كفاء ما نصبوا له أنفسهم من العداء لرسوله ﷺ، والتكذيب لآيات الكتاب، ولما نسبوا إلى رسول الله ﷺ الإفتراء بقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ ويختلقه، والتصريح[2] بالكذب للمبالغة في بيان قبحه، والفرق بين الافتراء والكذب أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه، وفاعل يفتري هو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه، وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء ألبتة؛ أي: إنما يتخرص الكذب، ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآيته، التي نصبها في الكون، وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته، لأنهم لا يرجون على الصدق ثواباً، ولا يخشون على الكذب عقاباً، وهذه صفاتكم أيها المشركون، لا صفات النبي ﷺ والمؤمنين.

---

(١) روح البيان.

ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكماً صريحاً فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصفون بما ذكر من عدم الإيمان بآيات الله، وهم رجال قريش القائلون لك أيها الرسول إنما أنت مفتر ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، لا أنت، أو الكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيته، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل، فاللام للجنس والحقيقة، ويدَّعي قصر الجنس في المشار إليهم مبالغة في كمالهم في الكذب، وعدم الاعتداد بكذب غيرهم، وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض، ليكون ميسم خزي وعارٍ لهم.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: من تلفظ بكلمة الكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ به تعالى، كابن حنظلٍ وطعمة بن أبيرق وأمثالهما، فعليه غضب من الله، فمن موصولة مبتدأ وخبره محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ وأجبر على التلفظ بكلمة الكفر بأمر لا طاقة له به[1]، كالتخويف بالقتل والضرب الشديد، والإيلامات القوية، كالتحريق بالنار، مما يخاف منه على نفسه، أو على عضو من أعضائه فتلفظ بها ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: والحال أن قلبه مطمئن مليءٌ بالإيمان، لم تتغير عقيدته، فليس على هذا المكره غضب من الله، لأنه لم يكفر وفي هذا دليل على أن الإيمان المنجي المعتبر عند الله تعالى هو التصديق بالقلب.

فإن قلت:[2] المكره على الكفر ليس بكافر، فلا يصح استثنائه من الكافر، فما معنى هذا الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾؟

قلت: المكره لما ظهر منه بعد الإيمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعاً.. صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة. والله أعلم.

﴿وَلَٰكِن مَّن﴾ لم يك كذلك بل ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾؛ أي: انشرح به قلباً، وطاب به نفساً، واعتقده ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى وعقوبة شديدة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: عذاب شديد، والعذاب والعقاب الإيجاع الشديد،

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

وتقديم الظرف فيهما للاختصاص، كما سيأتي في مبحث البلاغة، وللدلالة على أنهم أحقاء بغضب الله وعذابه العظيم، لاختصاصهم بعظيم الجرم وهو الارتداد.

ومعنى الآية: أي إنَّ من[1] كفر بالله بعد الإيمان والتبصر.. فعليه غضب من الله، إلا إذا أكره على ذلك وقلبه مليءٌ بالإيمان بالله، والتصديق برسوله، فلا تثريب عليه، كما فعل عمار بن ياسر.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر، واعتقدوه طائعين مختارين، لعظيم جرمهم وكبير إثمهم.

ثم بين سبب هذا الغضب فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضب من الله والعذاب العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: سبب أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة، ﴿و﴾ بسبب ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر وإلجاء ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علمه المحيط، فلا يعصمهم[2] من الزيغ وما يؤدِّي إليه من الغضب والعذاب العظيم، ولولا أحد الأمرين: إما إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وإمَّا عدم هداية الله تعالى للكافرين هداية قسر، بأن آثروا الآخرة على الدنيا، أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر.. لما كان لذلك الغضب العظيم، والعذاب الشديد، لكن الثاني مخالف للحكمة، والأول مما لا يدخل تحت الوقوع.

أي: وبسبب أنَّ الله لا يوفق من يجحد آياته، ويصر على إنكارها، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير، بما زينت له نفسه، وسولت له من عظيم الجرم وكبير الإثم، فأصبح قلبه مليئاً بما يشغله عن دواعي الإيمان بما يمليه عليه الشيطان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح هم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وختمها بخاتم الرين والضلال، فلا يؤمنون ولا يهتدون ﴿و﴾ طبع على ﴿سمعهم﴾ وأصمه، فلا يسمعون داعي الله إلى الهدى، ﴿و﴾ على ﴿أبصارهم﴾

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وأعماها، فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر متعظ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ أي: الساهون عما أعد لأمثالهم من أهل الكفر، ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حق حقاً وثبت ثبوتاً ﴿أَنَّهُمۡ﴾؛ أي: أنَّ هؤلاء الموصوفين بالصفات السابقة ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الهالكون الذين غبنوا أنفسهم حظوظها، وضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلد، ولله در من قال:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس ... عليه من الإنفاق في غير واجب

فما المرء في هذه الحياة إلا كالتاجر يشتري بطاعة ربه سعادة الآخرة، فإذا لم يفعل من ذلك شيئاً.. خسرت تجارته، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال في جهنم وبئس القرار، وقد حكم[1] الله تعالى على هؤلاء الكافرين بستة أشياء:

١ ـ استوجبوا غضب الله.

٢ ـ استحقوا عقابه العظيم.

٣ ـ أنهم استحبوا الحياة الدنيا.

٤ ـ أن الله حرمهم من الهداية للطريق القويم.

٥ ـ أنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

٦ ـ أنه جعلهم سبحانه من الغافلين.

قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار وسمية، أما الرسول فحماه أبو طالب، وأما أبو بكر فحماه قومه، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ثم أجلسوا في الشمس، فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم، ويشتم سمية، ثم طعنها بحربة في ملمس العفة، وقال الآخرون: ما أرادوا به منهم إلا بلالاً، فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول: أحد أحد، حتى ملوا فكتفوه، فجعلوا في عنقه حبلاً من ليف، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه

---

(١) المراغي.

فتركوه، وقال عمار: كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال، فإن نفسه هانت عليه فتركوه وقال خباب: لقد أوقدوا لي ناراً ما أطفأها إلاّ ودك دهن ظهري.

وكلمة ثم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ للدلالة[1] على تباعد حال هؤلاء - يعني الذين نزلت الآية فيهم - عن حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ متعلق بخبر إنَّ الآتي، والتقدير: ثم إن ربك يا محمد لغفور رحيم للذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وهم عمار وصهيب وخباب وسالم وبلال وغيرهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾؛ أي: عذبوا على الارتداد، وأكرهوا على تلفظ كلمة الكفر، فتلفظوا بما يرضيهم؛ أي: الكفرة مع اطمئنان قلوبهم، ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوا﴾ على مشاق الجهاد، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد المهاجرة والجهاد والصبر تأكيد لـ ﴿إِنَّ﴾ الأولى واسمها ومتعلقها، وقوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾ بما فعلوا من قبل، خبر لـ ﴿إِنَّ﴾ الأولى؛ أي: لستور عليهم، محاءٌ لما صدر منهم، ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم من بعد بالجنة، جزاء على تلك الأفعال الحميدة والخصال المرضية، واعلم[2] أن المهاجرة مفاعلة من الهجرة، وهي الانتقال من أرض إلى أرض، والمجاهدة مفاعلة من الجهد، وهو استفراغ الوسع، وبذل المجهود في طلب المقصود، قال في «التعريفات»: المجاهدة في اللغة المحاربة، وفي الشرع: محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها مما هو مطلوب في الشرع انتهى.

وحاصل معنى الآية: أي إن ربك[3] أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم، وتركوا مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك، وانتقلوا عنهم إلى ديار الإسلام من بعد ما فتنهم المشركون، الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف، وبألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم، إنَّ ربك من بعد أفعالهم هذه لذو

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ستر على ما كان منهم، من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بهم أي: يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه وجميل صنعهم من بعد.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فتنوا﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: بالعذاب والإكراه على كلمة الكفر، وقرأ ابن عامر: ﴿فَتَنوا﴾ مبنياً للفاعل، والظاهر أن الضمير عائد على الذين هاجروا، فالمعنى: فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول، كما فعل عمار.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب على الظرفية برحيم، والمعنى: إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتي كل نفس تخاصم عن نفسها، وتحاج عنها إلخ، أو على المفعول به، وناصبه اذكر محذوفاً؛ أي: اذكر يا محمد قصة يوم تأتي كل نفس، وهو يوم القيامة، حالة كونها ﴿تُجَٰدِلُ﴾ وتخاصم وتدافع ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾؛ أي: عن ذاتها، فالنفس[2] الأولى بمعنى الجملة، والثانية بمعنى العين والذات، والمعنى: اذكر يا محمد أو يا كل من يصلح للخطاب يوم[3] يأتي كل إنسان حالة كونه يجادل ويخاصم عن ذاته، يسعى في خلاصها بالاعتذار عما أسلفت في الدنيا من عمل، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، لا يهمه شأن غيرها من ولد ووالد وقريب، فيقول: نفسي نفسي، وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، حتى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وقال: رب نفسي؛ أي: أريد نجاة نفسي.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ برةٍ أو فاجرةٍ؛ أي: تعطى كل نفس وافياً كاملاً ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: جزاء ما عملت، بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب إشعاراً بكمال الاتصال بين الأجزية والأعمال، وإيثار الإظهار على الإضمار للإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية، وإن كانتا في يوم واحد ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

أن كل الخلائق ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ في جزاء أعمالهم؛ أي: لا ينقصون أجورهم، ولا يعاقبون بغير موجب، ولا يزاد في عقابهم على ذنوبهم.

أي وتعطى[1] كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا من طاعة أو معصية، فيجزى المحسن بما قدَّم من إحسان، والمسيء بما أسلف من إساءة، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء.

والخلاصة: أن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره، كما قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، وعن ابن عباس[2] ـ رضي الله عنهما ـ: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد، يقول الروح: يا رب لم يكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، ويقول الجسد خلقتني كالخشب، ليست لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لساني وأبصرت عيني ومشت رجلي، قال: فيضرب لهما مثلاً، مثل أعمى ومقعد دخلا حائطاً وفيه ثمارٌ، فالأعمى لا يبصر الثمار، والمقعد لا ينالها، فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر، فعليهما العذاب، كذا في «تفسير السمرقندي».

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ ضرب إما مضمن[3] معنى جعل، فتكون ﴿قَرْيَةً﴾ مفعوله الأول و﴿مَثَلًا﴾ مفعوله الثاني، وإنما تأخرت قرية لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها، ويجوز أن يكون ﴿ضَرَبَ﴾ على بابه غير مضمن، ويكون ﴿مَثَلًا﴾ مفعوله، و﴿قَرْيَةً﴾ بدلاً منه، وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، كما قيل إنها أيلة: بلدة بين ينبع ومصر كما في «الكواشي»، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

كسني يوسف»، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أولياً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها عن مثل عاقبتها.

أي: وجعل الله سبحانه وتعالى قرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾؛ أي: ذات[1] أمن من كل مخوف ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾؛ أي: متوطنة، لا ينتقلون عنها إلى غيرها لحسنها وبهائها، وجملة ﴿كَانَتْ﴾ صفة أولى لقرية؛ أي: جعل سبحانه أهل هذه القرية مثلاً لأهل مكة خاصةً، أو لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، ففعلوا ما فعلوا، فبدل بنعمتهم نقمةً، ودخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً، وجملة قوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ صفة ثانية لقرية، وتغير سبكها عن الصفة الأولى لما أن إتيان رزقها متجدد، وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمرٌ؛ أي: يأتيها زرق أهلها وأقواتهم حالة كونه: ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها من البر والبحر متعلق بيأتي، ﴿فَكَفَرَتْ﴾؛ أي: كفر أهل تلك القرية ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: بنعمه جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع وأدرع، والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر، وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة، روي أن أهل أيلة كانوا يستنجون بالخبز كما في «الكواشي»، قال بعضهم: الخبز هو الأصل بين النعم الإلهية، ولذا أمر آدم عليه السلام الذي هو أصل البشر بالحراثة، فمن كفر به.. فقد كفر بجميع النعم وتعرض لزوالها.

﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: أذاق أهلها، وأصل الذوق بالفم ثم استعير فوضع موضع الابتلاء والاختبار كما في «تفسير أبي الليث» ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾؛ أي: أذاقها الجوع والخوف، المشبهين باللباس بجامع الاشتمال في كل، حتى أكلوا ما تغوطوه، لأن الجزاء من جنس العمل، قال في «الأسئلة

---

(١) روح البيان.

المقحمة»: كيف سمى الجوع لباساً؟ قيل: لأنه يظهر من الهزال وشحوب اللون وضيق الحال ما هو كاللباس، وقال في «الإرشاد»: شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشي للابس، فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدة الإصابة ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ فيما قبل من الكفران، والضمير فيه عائد على المحذوف في قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾؛ أي: قصة أهل قرية، أعاد الضمير أولاً على لفظ قرية، ثم على المضاف المحذوف كقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ذكره في «البحر».

وقرأ الجمهور[1] ﴿والخوف﴾ بالجر عطفاً على الجوع، وروى العباس عن أبي عمرو ﴿والخوف﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لباس﴾، قال صاحب «اللوامح»: ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله: ولباس الخوف، وقرأ عبد الله: ﴿فأذاقها الله الخوف والجوع﴾ ولا يذكر لباس، والذي أقوله: أن هذا تفسير المعنى، لأن المنقول منه مستفيضاً مثل ما في سواد المصحف، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لباس لخوف والجوع﴾ بدأ بمقابل ما بدأ به في قوله: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾، وهذا عندي إنما كان في مصحفه قبل أن يجمعوا ما في سواد المصحف الموجود الآن شرقاً وغرباً، ولذلك المستفيض من أبي في القراءة إنما هو كقراءة الجماعة.

والظاهر أن الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ عائد على ما عاد عليه في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: ولقد جاء أهل تلك القرية وهي مكة أو غيرها على الخلاف المذكور أولاً ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من جنسهم، يعرفونه بأصله ونسبه، فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة الكفران، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المستأصل غبَّ ما ذاقوا نبذة من ذلك

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم ظالمون بالكفران والتكذيب، حيث جعلوا الأول موضع الشكر والثاني موضع التصديق، وفي هذا إيماء[1] إلى تماديهم في الكفر والعناد، وإلى أن ترتب العذاب على التكذيب جري على سنة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وهكذا حال أهل مكة فإنهم كانوا في حرم آمن يتخطف الناس من حولهم، ولا يمر بهم طيف من الخوف، ولا يزعج قلوبهم مزعج، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء، من جميع الأقطار من بر وبحر، فلا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب ضيق الرزق، قال بعضهم من بحر الرجز:

ثَلاَثَةٌ لَيْسَ لَهَا نِهَايَه الأَمْنُ والصِحَّةُ والكِفَايَة

وقد جاءهم رسول من أنفسهم، فأنذرهم وحذَّرهم، فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله ﷺ إذ قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فاضطروا إلى أكل الجيف، والكلاب الميتة، والعظام المحرقة، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، من سرايا رسول الله ﷺ، حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب، وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط ضررهما أجسامهم لباساً لهم لأن أثرهما وضررهما قد أحاط بهم من كل جانب، فأشبها اللباس الذي يغطي الجسم ويحيط به، وجعل إصابتهم بهما إذاقة دلالة على شدة تأثيرهما الشديد الذي حدث فيهم، كما يكون ذلك حين ذوق شيء مر بشع كريه، إذ يجد الذائق تقززاً واشمئزازاً.

ثم لمَّا[2] وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة.. أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم وغيرها، وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبِّب عن ترك الكفر، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة، والخطاب للمؤمنين على الراجح؛ أي: إذا عرفتم أيها المؤمنين ما حلَّ

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

بأهل تلك القرية من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم، وأردتم بيان ما هو الأصلح واللازم لكم.. فأقول لكم: كلوا واشربوا يا معشر المؤمنين ما رزقكم الله تعالى وأعطاكموه حالة كونه ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ أي: لذيذاً تستطيبه النفوس السليمة من بهائم الأنعام التي أحلها لكم، وذروا الخبائث من الميتة والدم، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واشكروه على ما أنعم به عليكم، بتحليله ما أحل لكم، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ لا غيره ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: تخصونه بالعبادة، فتطيعونه فيما يأمركم به، وتنتهون عما ينهاكم عنه، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها.

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات.. بين لهم ما حرَّم عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ ربكم ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾؛ أي: أكلها، وهي كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية إلا السمك والجراد، ﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح؛ أي: المصبوب من العروق، فيجمدونه ويأكلونه، وأما المختلط باللحم فمعفو عنه، والأولى غسله، ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ أي: أكل لحمها، وجميع أجزائها، ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾ ورفع الصوت ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: باسم غير الله كالصنم والولي ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: عند ذبحه، كقول أهل الجاهلية باللات والعزى، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته.

والخلاصة[1]: أنَّ ما سمي عليه غير الله تعالى عند الذبح سواء كان صنماً أو وثناً أو روحاً خبيثاً من جنٍّ، أو روحاً طيباً من إنس كالنبي والولي حياً أو ميتاً، فأكله حرام لما جاء في الحديث: «ملعونٌ مَنْ ذبح لغير الله» سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسم، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى، فمن ذبح للسيد البدوي، أو لإبراهيم الدسوقي، أو للسيدة زينب، أو للحسين العروسيِّ، أو للأبادر الهرري مثلاً لا يجوز أكل هذا الذبيح، فهذه[2] الآية دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع، فالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع داخلة في الميتة، وما ذبح على النصب داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

ثم ذكر الحال التي يسوغ فيها تناول شيء من هذه المحرمات فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾؛ أي: فمن احتاج حاجةً شديدةً إلى تناول شيء من هذه المحرمات، لمجاعة حلت به، وضرورة دعته إلى أخذ شيء منها حالة كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: ولا متعد قدر الضرورة وسد الرمق، وقيل[١]: معناه غير باغ على الوالي، ولا متعد على الناس، بالخروج لقطع الطريق، فعلىٰ هذا لا يباح تناول شيء من المحرمات في سفر المعصية، وجواب من الشرطية محذوف، تقديره: فالله لا يؤاخذه على ذلك، وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لذلك المحذوف؛ أي: لأن الله سبحانه وتعالى غفور له، يستر له ما صدر منه من الهفوات، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك.

أمَّا ما حرَّموه من غير ذلك من البحائر والسوائب والوصائل ونحوه، مما تقدم في سورة الأنعام، فهو محض افتراءٍ على الله، وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة والمائدة والأنعام، وفيها حصر المحرمات في هذه الأربع فحسب.

ثم أكد حصر المحرمات في هذه الأربع، ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ يا أهل مكة ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾؛ أي: في شأن[٢] ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة، في قولكم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ من غير ترتيب ذلك الوصف على ملاحظةٍ وفكرٍ، فضلاً عن استناده إلى وحي أو قياس مبني عليه، فاللام بمعنى في متعلقة بتقولوا وما موصولة، وقوله: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ مفعول به لتقولوا، لأنه بمعنى تذكروا، وقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل منه، فالمعنى: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام في شأن ما تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة من غير استناد إلى دليل، فقدم عليه كونه كذباً، وأبدل منه هذا حلال وهذا حرام مبالغةً في كذبهم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ذلك مجرَّد وصف باللسان؛ لا حكم عليه، وفي الآية تنبيهٌ للقضاة

---

(١) زاده. (٢) روح البيان.

والمفتين كيلا يقولوا قولاً بغير حجة وبرهان.

وقال الكسائي والزجاج[1]: ﴿ما﴾ هنا مصدريةٌ، وانتصاب الكذب بلا تقولوا؛ أي: لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم، ومعناه لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجةٍ ولا بينةٍ، وقرأ الحسن[2] وابن عمر وطلحة والأعرج وابن أبي إسحاق وابن عبيد ونعيم بن ميسرة: ﴿الكذبِ﴾ بكسر الباء، وخرج على أن يكون بدلاً مِنْ ﴿ما﴾ والمعنى الذي تصفه ألسنتكم الكذب، وأجاز الزمخشري وغير أن يكون ﴿الكذب﴾ بالجر صفةً لما المصدرية، قال الزمخشري: كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب، وقرأ معاذ وابن أبي عبلة وبعض أهل الشام: ﴿الكُذُبُ﴾ بضم الثلاثة صفة للألسنة، جمع كذوب، قال صاحب «اللوامح»: أو جمع كاذب أو كذاب انتهى، وقال ابن عطية: وقرأ مسلمة بن محارب ﴿الكُذُبَ﴾ بفتح الباء على أنه جمع كذاب، ككتب في جمع كتاب، وقال صاحب «اللوامح»: وجاء عن يعقوب الكُذُب بضمتين والنصب، فأما الضمتان فلأنه جمع كذاب وهو مصدر ومثله كتابٌ وكتبٌ.

والمعنى: أي[3] ولا تقولوا هذا حلالٌ، وهذا حرام بالرأي والهوى، فلا تقولوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرمٌ على أزواجنا، ولا تحللوا الميتة والدم ولحم الخنزير إلخ.

وخلاصة ذلك: لا تحللوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب، وتصويرها له دون استناد إلى دليل، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخصٌ عالمٌ بحقيقته ومحيط بكنهه، يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح، واللام في قوله: ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ﴾ لام العاقبة، لا لام الغرض والعلة، لأن الافتراء لم يكن غرضاً، متعلقة بتقولوا؛ أي: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذباً، من غير أن يكون

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

ذلك منه، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون، ولا أحل كثيراً مما تحللون، وإجمال ذلك: لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله ورسوله حلالاً وحراماً فتكونوا كاذبين عليه، لأن مدار الحل والحرمة عليه ليس إلا حكمه تعالى.

عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا، وقد صدق، فكل من أفتى بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله ـ لجهله بما فيهما ـ فقد ضل وأضل من يفتيهم، ولله در القائل:

كَبَهِيْمَةٍ عَمْيَاءَ قَادَ زِمَامَهَا أَعْمَى على عِوَجِ الطَّرِيقِ الحَائِرِ

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: عسى رجلٌ يقول: إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله عز وجل: كذبت، أو يقول إن الله حرَّم كذا أو أحل، فيقول الله له: كذبت.

ثم أوعد المفترين وهدَّدهم أشد التهديد فقال[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يتخرصون ويتقولون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في أمورهم صغيرها وكبيرها ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يفوزون بخير في المطالب التي لأجلها كذبوا على ربهم، إذ هم متى عرفوا بالكذب. . مَجَّهُمُ الناس، وانصرفوا عنهم، وعاشوا أذلة بينهم ممقوتين، ويكونون مضرب الأمثال في الهوان والصغار، إلى ما يصيبهم من الخزي والوبال يوم القيامة.

ثم بين أن ما يحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئاً مذكوراً إذا قيس بالمضارِّ التي تستجم منه فقال: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة، تنقطع عن قريب ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يردون إليه في الآخرة.

والمعنى: أي إنَّ المنافع التي قد تحصل لهم على ذلك في الدنيا لا يُعْتَدُّ بها في نظر العقلاء، إذا وزن بينها وبين المضار التي في الآخرة، فما متاع الدنيا

---

(١) المراغي.

إلا ظلٌّ زائلٌ، ثم يفنى، ويبقى لهم العذاب الأليم، حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات، ودنسوا به أنفسهم من أوضار الإثم والفجور والكذب على بارئهم، الذي خلقهم وصورهم فأحسن صورهم، ونحو الآية قوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام، أتبعه ببيان ما خصَّ به اليهود من المحرمات فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: وعلى[1] اليهود خاصة، دون غيرهم من الأولين والآخرين ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد بقولنا: ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الآية، و﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بقصصنا؛ أي: من قبل نزول هذه الآية، أو بحرمنا؛ أي: من قبل التحريم على هذه الأمة؛ أي: وحرمنا من قبلك أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام، بقولنا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

ثم بين السبب في ذلك التحريم عليهم فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم، بل جزيناهم ببغيهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ولكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم، وتجاوزهم حدوده التي حدها لهم، وانتهاك حرماته، فعوقبوا بهذا التحريم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية، وفي هذا إيماءٌ[2] إلى أنَّ ذلك التحريم إنما كان للظلم والبغي عقوبة وتشديداً، وبه يعلم الفرق في التحريم بينهم وبين غيرهم، فإنه لهم عقوبةٌ، ولنا للمضرَّة فحسب.

ثم بين سبحانه أن الافتراء على الله وانتهاك حرماته لا يمنع من التوبة التي يتقبلها الله منهم، ويغفر زلاَّتهم رحمةً منه وفضلاً فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ وارتكبوا السيئات من الكفر والمعاصي، متعلق بخبر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إن المذكور في آخر الآية، وهو ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإن الثانية تكرير[1] على سبيل التأكيد لطول الكلام ووقوع الفصل، كما مر نظيره في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآية، وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ حال من فاعل عملوا؛ أي: حالة كونهم متلبسين بجهالة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ من يرتكب الذنوب قلَّما يفكِّر في العاقبة، لغلبة الشهوة عليه، أو لجهالة الشباب والطيش التي تحمله على انتهاك حرمات الله تعالى، كالقتل للغيرة أو للعصبية، كما جاء في الخبر: «اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل، أو يجهل عليَّ»، وقال عمرو بن كلثوم:

أَلاَ لاَ يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا فَـنَـجْـهَـلَ فَـوْقَ جَـهْـلِ الـجَـاهِـلِـيـنـا

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما عملوا السوء، والتصريح به مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه للتأكيد والمبالغة، ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ أعمالهم، أو دخلوا في الصلاح بأن آمنوا وأطاعوا الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾؛ أي: من بعد التوبة كقوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ في أنَّ الضمير عائد إلى مصدر الفعل، ﴿لَغَفُورٌ﴾ ذلك السوء؛ أي: ستورٌ له محاءٌ ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على طاعته تركاً وفعلاً، وتكرير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ لتأكيد الوعد، وإظهار كمال العناية بإنجازه كما مرَّ، وتقدير الكلام: ثم إن ربك لغفور رحيم للذين عملوا السوءَ بجهالة، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا؛ أي: لما[2] بالغ الله سبحانه وتعالى في تهديد المشركين على أنواع قبائحهم من إنكار البعث والنبوة، وكون القرآن من عند الله تعالى، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرَّمه.. بيَّن سبحانه أنَّ أمثال تلك القبائح لا تمنعهم من قبول التوبة، وحصول المغفرة والرحمة إذا ندموا على ما فعلوا، وآمنوا بالله، فالله يخلصهم من العذاب.

فعلى العاقل[3] أن يرجع عن الإعراض عن الله، ويقبل عليه بصدق الطلب، وإخلاص العمل، والتوبة بمنزلة الصابون، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

الظاهرة، فكذلك التوبة تزيل الأوساخ الباطنة؛ أعني: الذنوب.

والمقصود من هذه الآية: بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته، لأن السوء لفظٌ جامع لكل فعل قبيح، فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي، وكل ما لا ينبغي، وكل من عمل السوء فإنما يفعله بالجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح، فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية فإنما يصدر عنه بسبب جهله، إما لجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب، أو لجهله بقدر من يعصيه، فثبت بهذا أنَّ فعل السوء إنما يصدر بجهالة.

الإعراب

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية، ﴿استعذ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جاران ومجروران، متعلقان به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: صفة للشيطان، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، والضمير للشأن، أو للشيطان كما مرَّ، ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهُۥ﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدمٌ، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: اسمه مؤخر، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ لأنه مصدر بمعنى التَّسلُّط، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جملة محذوفة هي جواب الأمر، تقديره: فإن استعذت كفيت شره اهـ شيخنا، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار

---

(١) الخازن.

ومجرور، متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوفة على جملة الصلة، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿سُلْطَانُهُ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول، ﴿وَالَّذِينَ﴾: في محل الجر معطوف على الموصول الأول، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿بِهِ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُشْرِكُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَدَّلْنَا آيَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿مَكَانَ آيَةٍ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿بَدَّلْنَا﴾ والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية معترضة، لاعتراضها بين الشرط وجوابه، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يُنَزِّلُ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما ينزله، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية جملة إضرابية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿نَزَّلَهُ﴾: فعل ومفعول، ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: فاعل مرفوع، ومضاف إليه، ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾:

متعلق به، وكذا يتعلق به قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أو حال من مفعول ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لِتَثْبِيتِه الذين آمنوا، الجار والمجرور متعلّق بـ ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾: معطوفان على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾؛ أي: تثبيتاً وهدايةً وبشارةً، أو معطوفان على لفظه باعتبار المؤول؛ أي: لتثبيتهم وهدايتهم وبشارتهم، ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بشرى﴾ أو تنازع فيه هو و﴿هُدًى﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادٌّ مسدَّ مفعولي علم، ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾: فعل ومفعول أول، ﴿بَشَرٌ﴾: فاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إنما يعلمه هذا القرآن بشر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿يُلْحِدُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿عَرَبِىٌّ﴾: صفة ﴿لِسَانٌ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿عَرَبِىٌّ﴾ أو صفة ثانية لِـ ﴿لِسَانٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ

﴿ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَهْدِيهِمُ﴾، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ فعل ومفعول، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل والجملة مستأنفة، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، أو الخبر جملة الجواب أو الشرط أو هما، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كَفَرَ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فعليه غضب من الله، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من الجواب المحذوف، ﴿أُكْرِهَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: متعلق بـ ﴿مُطْمَئِنٌّۢ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل، ﴿أُكْرِهَ﴾.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿مَن﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب أو الشرط، ﴿شَرَحَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾: متعلق به، ﴿صَدْرًا﴾: مفعول به، ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية، ﴿عليهم﴾ جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿غَضَبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ ﴿غَضَبٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، ويجوز أن

تكون ﴿مَن﴾ موصولة، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية جملة استدراكية مستأنفة ﴿وَلَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمُ﴾: جارٌ وناصب واسمه، الجار والمجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾: فعل ومفعول، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾ الأولى.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق به، ﴿وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾: معطوفان على ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: فعل ماض بمعنى حقَّ، مركَّبٌ من حرف وفعل تركيباً مزجياً مبنيٌّ على الفتح، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل؛ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لجرم، والتقدير: حق خسرانهم في الآخرة، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب الذكري، وبمعنى واو الاستئناف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بخبر ﴿إِنَّ﴾ الآتي في آخر الآية، وهو قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿هَاجَرُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿هَاجَرُواْ﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿فُتِنُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد فتنتهم، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾، ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَٰهَدُواْ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصبٌ واسمه، ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ الثانية، تقديره: إنَّ ربك لغفور رحيم ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ أعني هذه الثانية مؤكدة لجملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿لَغَفُورٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿غفور﴾ خبر أول لـ﴿إنَّ﴾ الأولى، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، أو صفة لـ﴿غفور﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ الأولى معطوفة على جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أو مستأنفة.

﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾.

﴿يَوۡمَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر يوم تأتي، أو ظرف متعلق بـ﴿رَّحِيمٌ﴾ في قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾، ﴿تُجَٰدِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾، ﴿عَن نَّفۡسِهَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿تَأۡتِي﴾؛ أي: ويوم توفَّى كل نفس، ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿توفَّى﴾، ﴿عَمِلَتۡ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾، والجملة صلةٌ لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما عملته، ﴿وَهُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حالٌ من ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ضرب﴾، لأنه بمعنى جَعَل، ﴿قَرْيَةً﴾ مفعول أول لِـ ﴿ضَرَب﴾، وأُخِّرت لتتصل بصفاتها، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾: فعل ناقص وخبره، واسمه ضميرٌ يعود على ﴿قَرْيَةً﴾ ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾: خبر ثان لـ ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب صفة لـ﴿قَرْيَةً﴾، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾: فعلٌ ومفولٌ به وفاعلٌ ﴿رَغَدًا﴾: حال من الرزق، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ثانية لـ ﴿قَرْيَةً﴾. ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يأتي﴾، ﴿فَكَفَرَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿كفرت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَرْيَةً﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يأتي﴾، ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كفرت﴾ ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾: مفعول ثان لـ ﴿أذاق﴾، ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجُوعِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿كفرت﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أذاق﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَصْنَعُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلةٌ لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يصنعونه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كذَّبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاء﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كذبوه﴾، ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أخذهم﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أيها المؤمنون حال أهل هذه القرية، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول لكم: كُلُوا مما رزقكم الله، ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلّق بـ ﴿كُلُوا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والجملة صلةٌ لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما رزقكموه الله، وهو المفعول الثاني لـ ﴿رزق﴾ ﴿حَلَٰلًا﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿طَيِّبًا﴾: صفة ﴿حَلَٰلًا﴾. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿كلوا﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿إِيَّاهُ﴾: مفعول مقدم لما بعده، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم إياه تعبدون فاشكروا له سبحانه، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَيْكُمُ﴾، متعلق بـ﴿حَرَّمَ﴾، ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: مفعول به لـ ﴿حَرَّمَ﴾، ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾، ﴿وَمَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوفة على ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ أيضاً، ﴿أُهِلَّ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿أُهِلَّ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، و﴿الباء﴾ بمعنى عند؛ أي: عند ذبحه، ﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم تحريم ما ذكر عليكم وأردتم بيان حكم ما إذا اضطررتم إليه.. فأقول

لكم: من اضطر ﴿مَنِ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعل ماض مغير الصغية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾، والجملة في محل الجزم بـ ﴿مَنِ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿ٱضْطُرَّ﴾، ﴿وَلَا عَادٍ﴾: معطوف على ﴿بَاغٍ﴾، وجواب ﴿مَنِ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فالله لا يؤاخذه بذلك، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية للجواب المحذوف ﴿إن الله غفور﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِمَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر بمعنى في، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر باللام، ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: لما تصفه وتذكره ألسنتكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقُولُوا۟﴾. ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعولٌ به لـ﴿تَقُولُوا۟﴾ لأنه بمعنى تذكروا، ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب بدل من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ ﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾، والتقدير: ولا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم الكذب هذا حلال وهذا حرام، ﴿لِّتَفْتَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام العاقبة، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول ﴿تفتروا﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لافترائكم الكذب على الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَقُولُوا۟﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، وجملة ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿مَتَٰعٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: منفعتهم

في الدنيا متاعٌ، ﴿قَلِيلٌ﴾: صفة ﴿مَتَٰعٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، ، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ الآتي، وجملة ﴿هَادُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿حَرَّمْنَا مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿قَصَصْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق به، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿حَرَّمْنَا﴾ أو بقصصنا، وجملة ﴿قَصَصْنَا﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما قصصناه عليك، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾: نافٍ وفعل وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به لما بعده، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوٓا۟﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب الذكري، أو بمعنى واو الاستئناف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بخبر ﴿إِنَّ﴾ الآتي في آخر الآية، وهو قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والتقدير: ثم إن ربك لغفور رحيم للذين عملوا، ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة الصلة، ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿وَأَصْلَحُوٓا۟﴾: معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ الثانية، تقديره: إن ربك لغفور رحيم لهم من بعدها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ الثانية مؤكدة لجملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام المزحلقة وخبران لـ﴿إن﴾. والله أعلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: أردت قراءته، كما تقول إذا أكلت فقل: باسم الله، وإذا سافرت فتأهب ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ أي: المرجوم المبعد من رحمة الله، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ مصدر بمعنى التسلط، وهو الاستيلاء والتمكن بالقهر اهـ. «شهاب» ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ والتولي الطاعة، يقال: توليته؛ أي: أطعته، وتوليت عنه؛ أي: أعرضت عنه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ التبديل رفع شيء ووضع غيره مكانه، وتبديل الآية نسخها بآية أخرى، ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ والقدس ـ بضم الدال وسكونها ـ الطهارة، والمراد به اسم المفعول، والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: الروح المقدس؛ أي: المطهر، وهو جبريل عليه السلام، سمي بذلك لأنه ينزل بالقدس؛ أي: بما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة المقتضية له، ﴿يُلْحِدُونَ﴾ والإلحاد الميل، يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد، ومنه سمي العادل عن الحق مُلْحِداً، ومنه لحد القبر، لأنه حفرةٌ مائلةٌ عن وسطه، ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ الأعجمي الذي لم يتكلم بالعربية، وقال الراغب: الأعجم من في لسانه عجمة، عربياً كان أو غير عربي، اعتباراً بقلة فهمه، والأعجمي منسوب إليه اهـ. «سمين»، ويقال: رجل أعجم، وامرأة عجماء، إذا كانا لا يفصحان عن مرادهما، ومن ذلك زياد الأعجم، كان عربياً في لسانه لكنةٌ، والحاصل أن الأعجمي هو الذي لا يفصح وإن كان عربياً، والعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً كما في «روح البيان».

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: تلفظ وتكلم بالكفر، أو فعل فعلاً مكفراً، سواء كان مختاراً في ذلك أو مكرهاً عليه، فالاستثناء متصل اهـ شيخنا، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾؛ أي: على التلفظ بكلمة الكفر، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ﴾ من الاطمئنان، وهو سكون النفس بعد انزعاجها، والمراد الثبات على ما كان عليه بعد ازعاج الإكراه، ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾؛ أي: فتحه به واعتقده، وطاب به نفساً، ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: آثروها وقدموها على الآخرة، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا

﴿فُتِنُوا۟﴾ أصل الفتن إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، ثم استعمل في المحنة والابتلاء يصيب الإنسان، ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾؛ أي: تدفع وتسعى في خلاصها، والنفس الأولى الجثة والبدن، النفس الثانية عينها وذاتها، وتوفى تعطى، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ والمثل عبارةٌ عن قول يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهةٌ، ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ من الغارات لا تهاج ولا تقلق؛ أي: ذات أمن، يأمن فيها أهلها أن يغار عليهم، ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾؛ أي: ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق.

﴿رَغَدًا﴾ يقال: رغد العيش رغادة اتسع ولان، فهو رغدٌ ورغيدٌ، ورغد رغداً من باب تعب لغةٌ، فهو راغدٌ، وهو في رغد من العيش؛ أي: رزق واسع، وأرغد القوم بالألف أخصبوا، والرغيدة الزبد اهـ «مصباح» ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤسٍ وأبؤس اهـ «بيضاوي»، والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر، ويحتمل أنه جمع نعماء بفتح النون والمد، وهي بمعنى النعمة، وهي «المصباح»: والنعماء وزان الحمراء مثل النعمة، وجمع النعمة نعمٌ، مثل سدرة وسدر، وأنعم أيضاً مثل أفلس، وجمع النعماء أنعم، مثل البأساء يجمع على أبؤس اهـ.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ يقولون: له وجه يصف الجمال، وعينٌ تصف السحر، يريدون أنه جميل، وأن عينه تفتن من رآها، لأنه لما كان وجهه منشأ الجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر.. كان كلٌّ منهما كأنه إنسانٌ عالمٌ بكنههما، محيطٌ بحقيقتهما، يصفهما للناس أجمل وصف، ويعرفهما أتم تعريف، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ إذ جعل الكذب كأنه حقيقةٌ مجهولةٌ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقته، ومنبعه الذي يعرف منه، ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ والجهالة هنا الطيش وعدم التدبر في العواقب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان

والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حيث عبر عن الإرادة بالقراءة على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب، إيذاناً بأنَّ المراد هي الإرادة المتصلة بالقراءة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أو بين قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فهذه الجملة اعتراضية بين الشرط وجوابه، لبيان الحكمة الإلهية في النسخ، وفيه أيضاً الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس.

ومنها: الطباق بين ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ و﴿عَرَبِىٌّ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ حيث استعار اللسان الذي هو حقيقةٌ في الجارحة للغة والكلام، كقول الشاعر:

لِسَانُ السُّوْءِ تَهْدِيْهَا إِلَيْنَا ... وَخُنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ لأنَّ فيه تعريضاً بحصول أضداد ذلك لغيرهم من الكفار كما في «البيضاوي».

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وهي اسمية الجملة، وضمير الفصل، وتعريف الطريقين، وفيه أيضاً التأكيد بالتكرار بين ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وبين الموصول وهو: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ واسم الإشارة وهو ﴿أولئك﴾ إذ ما صدقهما واحد كما في «الفتوحات»، وفيه أيضاً

الجناس الماثل بين ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

ومنها: تقديم الظرف في قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إفادةً للاختصاص، وللدلالة على أنهم أحقاء بغضب الله وعذابه العظيم لاختصاصهم بعظم الجرم، وهو الارتداد.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ حيث شبه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المر البشع، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيءِ من لوازمه وهو الإذاقة على طريقة الاستعارة المكنية.

ومنها: إضافة المشبه به إلى المشبه في قوله: ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ كالإضافة في لجين الماء.

ومنها: الطباق بين ﴿حَلَٰلٌ﴾ و﴿حَرَامٌ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا زيَّف[1] مذاهب المشركين في إثبات الشركاء والأنداد لله، وفي طعنهم نبوَّة الأنبياء والرسل، بنحو قولهم: لو أرسل الله رسلاً لأرسل ملائكة، وفي تحليلهم أشياء حرمها الله تعالى، وتحريم أشياء أحلها الله تعالى، وبالغ في رد هذه المعتقدات.. ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين، الذي كان المشركون يفتخرون به، ويقرون بوجوب الاقتداء به، ليصير ذكر طريقته حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك، ثم بأمر نبيه محمد ﷺ باتباعه، ثم بجعل الأسس التي يبني عليها دعوته هي الحكمة والموعظة الحسنة، والجدل بالحسنى، ثم بأمره باللين في العقاب إن أراده، أو بترك العقاب وهو أفضل للصابرين، ثم بأمره بجعل الصبر رائده في جميع أعماله، ونهيه من الحزن على كفر قومه، وأنهم لم يجيبوا دعوته، وأنهم يمكرون به، فالله ينصره عليهم، ويكفيه أذاهم، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين، والخذلان للعاصين الخائنين.

---

(١) المراغي.

وعبارة «أبي حيَّان» هنا: لمَّا أبطل[1] الله سبحانه وتعالى مذاهب المشركين في هذه السورة من إثبات الشركاء لله، والطعن في نبوة رسول الله ﷺ، وتحليل ما حرَّم، وتحريم ما أحل، وكانوا مفتخرين بجدهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مقرين بحسن طريقته، ووجوب الاقتداء به.. ذكره في آخر السورة، وأوضح منهاجه، وما كان عليه من توحيد الله تعالى ورفض الأصنام، ليكون ذلك حاملاً لهم على الاقتداء به، وأيضاً فقد أجرى ذكر اليهود بين طريقة إبراهيم ليظهر الفرق بين حاله وحالهم وحال قريش. انتهى.

أسباب النزول

قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] الحاكم والبيهقي ـ في «الدلائل» ـ والبزَّار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: «لأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل والنبيُّ ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ...﴾ إلى آخر السورة، فكفَّ رسول الله ﷺ، وأمسك عما أراد، وكفَّر عن يمينه، وأخرج الترمذي وحسّنه، والحاكم عن أبيٍّ بن كعب قال: لمَّا[3] كان يوم أحد أُصيب من الأنصار أربعةٌ وستون، ومن المهاجرين ستةٌ منهم حمزة فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر.. لنزيدن على عدتهم مرتين، فلما كان يوم فتح مكة.. أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...﴾ الآية، فقال رجلٌ: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «كُفُّوا عن القوم إلا أربعة» هذا حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب، وظاهر هذا تأخر نزولها إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة، ثم ثانياً بأحد، ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

(٣) زاد المسير ولباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام ﴿كَانَ﴾ على انفراده ﴿أُمَّةً﴾ لكماله في صفات الخير، وجمعه الفضائل، وهو رئيس أهل التوحيد، ولأنه كان مؤمناً وحده، والناس كلهم كانوا كفاراً، والأمة في الأصل الجماعة الكثيرة، وسمي إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات ما لو تفرق لكفى لأمةٍ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهارون الرشيد مادحاً:

وَلَيْسَ عَلَىٰ الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِيْ وَاحِدِ

فالله سبحانه وتعالى مدح عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء بجملةٍ من صفات الكمال:

١ ـ أنه وحده كان أمة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة، فهو رئيس الموحدين كسر الأصنام، وجادل الكفار، ونظر في النجوم، ودرس الطبيعة الكونية، ليطمئن قلبه بالإسلام.

٢ ـ أنه كان ﴿قَانِتًا﴾؛ أي مطيعاً ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى قائماً بأمره.

٣ ـ أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، متبعاً له لا يفارقه ولا يحيد عنه.

٤ ـ أنه عليه السلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور دينهم، بل كان من الموحدين في الصغر والكبر، فهو الذي قال للملك في عصره: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ وكسر الأصنام، حتى ألقوه لأجلها في النار فكانت عليه برداً وسلاماً.

وبالجملة: فقد كان غارقاً في بحار التوحيد، مستغرقاً في حب الإله المعبود، وفي ذلك رد على كفار قريش، إذ قالوا: نحن على ملة إبراهيم، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا: عزير ابن الله، مع زعمهم أنَّ إبراهيم كان على مثل ما هم عليه، ونحو الآية قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

٥ ـ أنه كان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: لأنعم الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به، وفي هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله، فأصابهم الجوع والخوف، كما تقدم ذكره في المثل السابق، روي أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان لا يتغذى إلا مع ضيفٍ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخَّر غذاءه، فإذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فأظهروا أنَّ بهم علَّة الجذام، فقال: الآن يجب عليَّ مؤاكلتكم، فلو لا عزَّتكم على الله تعالى.. لما ابتلاكم بهذا البلاء.

٦ ـ أنه تعالى ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ واصطفاه واختاره للنبوة والرسالة، كما قال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

٧ ـ ﴿و﴾ أنه تعالى ﴿هداه﴾ في الدعوة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى طريق موصل إلى الله تعالى، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه.

٨ ـ ﴿و﴾ نحن ﴿آتيناه﴾؛ أي: أعطيناه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: ولداً صالحاً، وسيرة حسنة عند كل أهل الأديان، فجميع أهل الملل يترضون عن إبراهيم، ولا يكفر به أحدٌ؛ أي: إنه سبحانه حببه إلى جميع الخلق، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به، وكفرة قريش لا فخر لهم إلاّ به، وقد أجاب الله دعاءه في قوله ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٩ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عليه السلام ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: لمن أصحاب الدرجات العالية في الجنة؛ أي: إنه في الآخرة في زمرة الصالحين، وهو معهم في الدرجات العلى من الجنة إجابةً لدعوته حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التي بلغت الغاية في علو المرتبة، أخبر أنه أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعه فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أيها

الرسول مع علو طبقتك، وسمو مرتبتك، وما في ﴿ثُمَّ﴾ من التراخي[1] في الرتبة للتنبيه على أنَّ أجلَّ ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول ملته؛ أي: أوحينا إليك يا محمد وقلنا لك: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل، فأنت متبع له، وسائرٌ على طريقته، وقومك ليسوا كذلك، لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم، وانتصاب[2] ﴿حَنِيفًا﴾ على الحال من إبراهيم، وجاز مجيءُ الحال منه لأنَّ الملة كالجزء منه، وقد تقرر في علم النحو أنَّ الحال من المضاف إليه جائزٌ إذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف إليه، أو كان جزءاً أو كالجزء.

أي: أوحينا إليك باتباع ملَّة إبراهيم[3] في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإتيان الدلائل مرةً بعد أخرى، بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً من الباطل إلى الحق ﴿و﴾ الحال أنه ﴿ما كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين، وهو تكريرٌ لما سبق لزيادة تأكيدٍ، وتقريرٌ لنزاهته ـ عليه السلام ـ عمَّا هم عليه من عقيدةٍ وعملٍ.

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه، وهو يوم السبت فقال: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾؛ أي[4]: إنما جعل وبال يوم السبت، وهو المسخ قردةً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِۚ﴾؛ أي: في السبت فأحلوا الصيد فيه تارةً، وحرَّموه أخرى، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمةٍ واحدةٍ، بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه، كما أنَّ وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقعٌ عليهم لا محالة، وقرأ الحسن وأبو حيوة: ﴿إنما جَعَلَ السبت﴾ بفتح الجيم والعين، و﴿ٱلسَّبْتُ﴾ بنصب التاء والفاعل ضمير الله، أو المعنى إنما جعل السبت؛ أي: إنما[5] فرض تعظيم يوم السبت والتخلِّي فيه للعبادة، وترك الصيد، فتعدية جعل

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.
(٥) روح البيان.

بعلى لتضمينه معنى فرض، والسبت يومٌ من أيام الأسبوع بمعنى القطع والراحة، فسمي به لانقطاع الأيام عنده، إذ هو آخر أيام الأسبوع، وفيه فرغ الله من خلق السموات والأرض، أو لأن اليهود يستريحون فيه من الأشغال الدنيوية، ويقال: أسبتت اليهود إذا عظمت سبتها، وكان اليهود يدعون أن السبت من شعائر إبراهيم، وشعائر ملته التي أمرت يا محمد باتباعها حتى يكون بينه ـ عليه السلام ـ وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة، وقد اختلف[1] العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعيَّنه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه، وقالوا: إنَّ السبت أفضل، فقال الله له: دَعْهم وما اختاروا لأنفسهم، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيِّهم، وقيل إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم من الأسبوع، فاختلف اجتهادهم فيه، فعينت اليهود السبت، لأنَّ الله سبحانه فرغ فيه من الخلق، وعينت النصارى يوم الأحد، لأنَّ الله بدأ فيه الخلق، فألزم الله كلاً منهم ما أدى إليه اجتهاده، وعين لهذه الأمة الجمعة، من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمةً.

وبعد ما اختارت اليهود يوم السبت ابتلاهم الله تعالى بتحريم الصيد فيه، فافترقوا فرقتين: فرقةٌ مطيعة لأمر الله فتركوا الصيد فيه فنجوا من المسخ، وفرقةٌ مخالفةٌ لأمر الله فاصطادوا فمسخهم قردةً. انتهى.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنَّ اليهود كانوا يزعمون أنَّ السبت من شرائع إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه، ولم يجعله على إبراهيم، ولا على غيره، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليفصل بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من شأن السبت وغيره؛ أي: يفصل ما بينهما من الاختلاف، فيجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب، فيجازي المطيع بالثواب،

---

(١) الشوكاني.

والمخالف بالعقاب، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما وقع في الدنيا من مسخ إحدى الفريقين، وإنجاء الأخرى بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يعتد به، وإيراد[1] هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه إنذارٌ للمشركين، وتهديدٌ لهم بما في مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال، كما ذكر مثل القرية فيما سلف، إلا أنَّ فيه حثًّا على إجابة الدعوة التي تضمنها سابق الكلام، وأمروا بها في لاحقه، ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال: ﴿ٱدۡعُ﴾ يا محمد الناس كافةً، حذف المفعول إيذاناً بالعموم من سبيل الشيطان ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ودينه، وهو الإسلام الموصل إلى الجنة والزلفى ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ أي: بالحجة[2] القطعية المفيدة للعقائد الحقة، المزيحة لشبهة من دعي إليها فهي لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ﴿و﴾ بـ ﴿الموعظة الحسنة﴾؛ أي: الدلائل الإقناعية، والحكايات النافعة فهي لدعوة عوامهم، يقال: وعظه يعظه عظة وموعظة إذا ذكره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب، فاتَّعظ كما في «القاموس»، ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾؛ أي: ناظر معانديهم وخاصمهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ أي: بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة والمجادلة، من الرفق اللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة، تسكيناً لشغبهم، وإطفاءً للهبهم، كما فعله الخليل ـ عليه السلام ـ والآية دليل على أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا قصد بها إظهار الحق، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً.

فالناس على ثلاثة أقسام[3]:

الأول: أصحاب العقول الصحيحة، الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها.

والثاني: أصحاب النظر السليم، الذين لم يبلغوا حدّ الكمال، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

والثالث: الذين تغلب على طباعهم المخاصمة، لا طلب العلوم اليقينية، فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ...﴾ إلخ، معناه ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالدلائل القطعية اليقينة، حتى يعلموا الأشياء بحقائقها، وهم خواص الصحابة وغيرهم، وادع عوام الخلق بالدلائل الإقناعية الظنية، وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة، وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل، وهي التي تفيد إفحامهم وإلزامهم، والجدل ليس من باب الدعوة، بل المقصود منه قطع الجدل عن باب الدعوة لأنها لا تحصل به.

أي: ولما أمر الله محمداً ﷺ باتباع إبراهيم.. بيَّن الشيء الذي أمره بمتابعته فيه، وهو أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة، وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن.

ومجمل المعنى[1]: أي ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التي شرعها لخلقه بوحي الله الذي يوحيه إليك، وبالعبر والمواعظ التي جعلها في كتابه حجةً عليهم، وذكرهم بها في تنزيله، كالذي عدده في هذه السورة، وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى، وترفق بهم بحسن الخطاب، كما قال في آية أخرى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ الآية، وقال آمراً موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، ثم توعد سبحانه ووعد فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ منك ومن المخلوقين، أو هو العالم لا غيره ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وأعرض ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ سبحانه التي أمرك بدعوة الخلق إليها وعن قبولها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إليها، والقابلين لها؛ أي[2]: إنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة، وحصول الهداية لا يتعلق بك، فإنه تعالى هو العالم بضلال النفوس المظلمة الكدرة، وباهتداء النفوس المشرقة الصافية، فيجازي كلاً منهم

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

بما يستحقه، فكأنه[1] قيل: إن ربك أعلم بهم، فمن كان فيه خيرٌ.. كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه.. عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد باردٍ.

أي: إنَّ ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره، وأعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل ومحجة الحق، وهو مجازيهم جميعاً حين وردوهم إليه بحسب ما يستحقون.

وخلاصة ذلك: اسلك في الدعوة والمناظرة الطريق المثلى، وهي الدعوة بالتي هي أحسن، وليس عليك غيرها، أمَّا الهداية والضلال والمجازاة عليها فإلى الله سبحانه لا إلى غيره، وإذ هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضلال لسوء اختياره، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء، لما ينطوي بين جنبيه من الخير فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة، وهو كافٍ في هداية المهتدين، وإزالة عذر الضالين.

ولما أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالدعوة، وبين طريقها، وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم، والحكم عليهم بالكفر والضلالة، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعي، إما بقتله، أو بضربه، أو بشتمه، كما أن الداعي يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارةً بالقتل، وأخرى بالضرب.. لا جرم أمر سبحانه المحقين برعاية العدل والإنصاف في العقاب، وترك الزيادة فيه فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾؛ أي: وإن أردتم أيها المؤمنون معاقبة من ظلمكم ﴿فَعَاقِبُوا﴾؛ أي: فجازوه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بمثل ما فعل بكم من القتل والضرب والشتم، ولا تزيدوا عليه، لأنَّ الزيادة ظلم، سمي الفعل الأول عقوبةً، والعقوبة هي الثانية لازدواج الكلام ومشاكلته، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فالثانية ليست بسيئة، والمعنى إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه.. فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿عاقبتم﴾ بالألف والتخفيف فيهما، وقرىء بالتشديد فيهما من غير ألف.

روي: أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبي ﷺ حمزة مبقور البطن، فقال: «أمَّا والذي أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك»، فنزلت، فكفر عن يمينه، وكف عما أراد، ولا خلاف في تحريم المثلة، لورود الأخبار بالنهي عنها، حتى بالكلب العقور.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ وعفوتم، وتركتم المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ﴾ بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان، والضمير يرجع إلى مصدر صبرتم، والمراد بالصابرين المخاطبون؛ أي: ولئن صبرتم لصبركم ﴿خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾؛ أي: خير لكم، فوضع[1] الصابرين موضع الضمير ثناءً من الله عليهم، لأنهم صابرون على الشدائد، يعني: ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم.. كان ذلك العفو والصبر خيراً من استيفاء القصاص، وفيه أجرٌ للصابرين العافين؛ أي: وإن[2] عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم.. فلكم في العقاب إحدى طريقين:

١ ـ أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة.

٢ ـ أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب، وتصفحوا عنه، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم، وتكلوا أمركم إليه، والله يتولى عقوبته، والصبر خير للصابرين من الانتقام، لأنَّ الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه.

والخلاصة: أنكم إن رغبتم في القصاص ـ فاقنعوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإنَّ الزيادة ظلمٌ، والظلم لا يحبه الله، ولا يرضىٰ به، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم.. ذلك خيرٌ وأبقى، والله هو الذي يتولىٰ عقاب الظالم، ويأخذ بثأر المظلوم.

ثم أمر رسوله بالصبر صراحةً بعد أن ندب إليه غيره تعريضاً، لأنه أولى

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

الناس بعزائم الأمور، لزيادة علمه بشؤونه تعالى فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على ما أصابك منهم من أذى في الله، ومن إعراض عن الدعوة ﴿وَمَا صَبۡرُكَ﴾ يا محمد إن صبرت ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إلا بمعونة الله تعالى، وحسن توفيقه، ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التي تنتهي إلى عواقب محمودةٍ، والاستثناء[1] مفرغ من أعم الأشياء؛ أي: وما صبرك حاصلاً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك، وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، وتهوين لمشاق الصبر عليه، وتشريفٌ له بما لا مزيد عليه، ثم نهاه عن الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ يا محمد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله؛ أي: ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به ﴿وَلَا تَكُ﴾ يا محمد ﴿فِي ضَيۡقٖ﴾ وهمٍّ وغمٍّ ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾؛ أي: من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان؛ أي: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر، احتيالاً وخديعةً لمن أراد الإيمان بك، وصدًّا عن سبيل الله، والمعنى: لا تهتم بمكرهم.

وقصارى ذلك: أنَّه[2] نهى نبيه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم وحي الله وتنزيله، كما قال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ...﴾ الآية.

فالله كافيك أذاهم، وناصرك عليهم، ومؤيدك ومظهرك عليهم، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك.. فإن الله مبعده عنك، ومحبط ما صنعوا، وهم لا يشعرون.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿ضَيۡقٖ﴾ بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير بكسرها، قال ابن السكيت: هما سواء، يعني المفتوح والمكسور، وقال الفراء: الضيق بالفتح: ما

---

(1) الشوكاني.
(2) المراغي.
(3) الشوكاني.

ضاق عنه صدرك، والضيق بالكسر: ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش، وهو من الكلام المقلوب، لأن الضيق وصف للإنسان يكون فيه، ولا يكون الإنسان فيه، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه.

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾؛ أي: اجتنبوا الكفر والمعاصي على اختلاف أنواعها؛ أي: معهم بالولاية والتوفيق والفضل والحفظ ﴿وَ﴾ مع ﴿الذين هم محسنون﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها، وقيل المعنى: إنَّ الله مع الذين اتقوا الزيادة في العقوبة، والذين هم محسنون في أصل الانتقام.

وفي الحديث: «إن للمحسن ثلاث علامات: يبادر في طاعة الله، ويجتنب محارم الله، ويحسن إلى من أساء إليه».

والمعنى: أي[1] إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفاً من عقابه، والذين يحسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به وفي ترك ما نهاهم عنه.

ونحو الآية قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقول النبي ﷺ للصّديق وهما في الغار فيما حكى الله عنه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

وقصارى ذلك: أنَّ الله تعالى ولي الذين تبتلوا إليه، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم، فلم يحزنوا لفوت مطلوب، ولم يفرحوا لنيل محبوب، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه، وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله، وقد فسر النبي ﷺ الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك».

والمعنى[2]: إن أردت أيها الإنسان أن أكون معك بالعون والفضل

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والرحمة.. فكن من المتقين المحسنين، وفي هذا إشارةٌ إلى التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، قال بعض العلماء: كمال الطريق صدقٌ مع الحق، وصلحٌ مع الخلق، وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل أن يعمل به، وقيل لهرم بن حيان عند الموت: أوص$ِ، فقال: إنما الوصية في المال ولا مال لي، ولكن أوصيك بخواتيم سورة النحل، والله أعلم اهـ «خازن».

والله سبحانه نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل، وأن يوفقنا للفقه في دينه، ويفتح لنا خزائن أسراره بحرمة كتابه وكنوز شريعته التي أنزلها على رسوله النبي الأمي، والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإعراب

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿أُمَّةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿قَانِتًا﴾: صفة أولى لـ﴿أُمَّةً﴾، ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿حَنِيفًا﴾: صفة ثانية لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَمْ يَكُ﴾: جازم وفعل ناقص مجزوم، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال مؤكدة من الضمير المستكن في ﴿حَنِيفًا﴾. ﴿شَاكِرًا﴾: صفة ثالثة لـ﴿أُمَّةً﴾، ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿شَاكِرًا﴾ ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿وَهَدَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: متعلق بـ ﴿هدى﴾ أو بـ ﴿اجتبى﴾ على سبيل التنازع، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متعلق به، ﴿حَسَنَةٗۖ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الخبر الآتي، ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إنَّ﴾ و﴿اللام﴾ حرف ابتداءٍ، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿آتيناه﴾.

﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيۡكَ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ ﴿أَنِ﴾ مصدرية أو مفسرة، ﴿ٱتَّبِعۡ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ ﴿أَنِ﴾ المصدرية، مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: مفعول به لـ ﴿ٱتَّبِعۡ﴾، ﴿حَنِيفٗا﴾: حال من ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وجملة ﴿ٱتَّبِعۡ﴾ مع ﴿أَنۡ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، والتقدير: ثم أوحينا إليك باتباع ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ جملة مستأنفة أو في محل النصب معطوفة على ﴿حَنِيفٗا﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾: فعل ونائب فاعل. وهو متعد إلى واحد، لأنه بمعنى فرض، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿جُعِلَ﴾، ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيَحۡكُمُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يحكم﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب سبحانه، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يحكم﴾، وكذا يتعلق به ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وجملة ﴿يحكم﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾، ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يحكم﴾، ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة

لها.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿ٱدْعُ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعوله محذوف، تقديره: ادع الناس، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱدْعُ﴾ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿ٱدْعُ﴾؛ أي: حالة كونك متلبساً بالحكمة، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾: معطوف على ﴿الحكمة﴾، ﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾: صفة لـ ﴿الموعظة﴾، ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱدْعُ﴾ ﴿بِٱلَّتِى﴾: متعلق بـ ﴿جادل﴾ ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِمَن﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿ضَلَّ﴾ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿عَاقَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿فَعَاقِبُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿عاقبوا﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، مبني على حذف النون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿بِمِثْلِ مَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿عاقبوا﴾، ﴿عُوقِبْتُم﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿صَبَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه

فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: فهو خير لكم، ﴿لَهُوَ﴾ ﴿اللام﴾: زائدة، زيدت لتأكيد لام القسم، ﴿هو خير﴾: مبتدأ وخبر، ﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾: متعلق بـ ﴿خَيۡرٞ﴾، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، أو معطوفة على جملة الشرط قبلها.

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿صَبۡرُكَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، خبر المبتدأ؛ أي: وما صبرك إلا حاصلٌ بمعونة الله وفضله، والجملة معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين، ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾: جازم ومجزوم، معطوف على ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿تَحۡزَنۡ﴾، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد، ﴿فِي ضَيۡقٖ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾، ﴿مِّمَّا﴾ ﴿من﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، وجملة ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ صلتها؛ أي: من مكرهم بك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ضَيۡقٖ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿ٱتَّقَواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَّٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، ﴿هُم مُّحۡسِنُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ حكى[1] ابن الجوزي عن ابن الأنباري أنه قال: إنَّ هذا مثل قول العرب فلانٌ رحمة، وفلان علامة ونسابة، يقصدون بهذا التأنيث

(١) الفتوحات.

التناهي في المعنى الذي يصفونه به، والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد، كقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وإنما ناداه جبريل وحده.

وإنما سمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمةً لأنه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة، ومنه قول الشاعر:

وَلَيْسَ عَلَىٰ اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِيْ وَاحِدِ

ثم للمفسرين في معنى هذه اللفظة أقوال[1]:

أحدها: قول ابن مسعود الأمة معلم الناس الخير، يعني أنه كان معلماً الخير، يأتم به أهل الدنيا.

الثاني: قال مجاهد: إنه كان مؤمناً وحده، والناس كلهم كفار، فلهذا المعنى كان أمةً وحده، ومنه قوله ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعثه الله أمة وحده»، وإنما قال فيه هذه المقالة لأنه كان فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الأصنام.

الثالث: قال قتادة: ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه ويرضونه، وقيل الأمة فعلة بمعنى مفعولة، وهو الذي يؤتم به، وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ إماماً يقتدى به، دليله قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقيل: إنه ـ عليه السلام ـ هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق، وهو من باب إطلاق المسبب على السبب، وقيل: إنما سمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمة لأنه قام مقام أمة في عبادة الله تعالى اهـ «خازن».

وحاصل ما ذكر له من الصفات تسعة بل عشرة، إذ قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ إلخ، يرجع لوصف إبراهيم وتعظيمه بأن محمداً ﷺ أمر باتباعه اهـ شيخنا.

---

(١) الفتوحات.

﴿قَانِتًا﴾ والقانت: المطيع لله القائم بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ اصطفاه واختاره للنبوة والخلة، ﴿حَسَنَةً﴾ والحسنة هي محبة أهل الأديان جميعاً له إجابة لدعوته لربه ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الملة[1] اسمٌ لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من أمللت الكتاب إذا أمليته، وهو الدين بعينه، لكن باعتبار الطاعة له.

وتحقيق ذلك: أن الوضع مهما نسب إلى من يؤديه عن الله تعالى.. يسمى ملة، ومهما نسب إلى من يقيمه ويعمل به.. يسمى ديناً، وقال الراغب: الفرق بينهما أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي ـ عليه السلام ـ ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله سبحانه وتعالى، ولا إلى آحاد الأمة، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، والمراد بملته عليه السلام الإسلام الذي عبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم اهـ «أبو السعود».

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾؛ أي: إنما فرض تعظيم السبت، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه على اليهود الذين اختلفوا فيه، والسبت في الأصل مصدر سبت يسبت ـ من باب ضرب ـ سبتاً، بمعنى قطع، ثم سمي به يومٌ من أيام الأسبوع لانقطاع الأيام عنده، إذ هو آخر أيام الأسبوع، يجمع على أسبت وسبوت، وقال الزمخشري: سبتت اليهود إذا عظمت سبتها.

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ والحكمة المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الدلائل الظنية المقنعة للعامة، والجدل: الحوار والمناظرة لإقناع المعاند، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ والعقاب في أصل اللغة: المجازاة على أذى سابق، ثم استعمل في مطلق العقاب.

---

(١) أبو السعود.

﴿وَلَا تَكُ﴾ أصله ولا تكن، حذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله، بخلاف لم يصن، ولم يخن ونحوهما، ومعنى كثرة الاستعمال أنهم يعبرون بكان ويكون عن كل الأفعال، فيقولون: كان زيدٌ يقول، وكان زيد يجلس، فإن وصلت بساكنٍ ردت النون وتحركت نحو: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ و﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ والضيق بفتح الضاد وكسرها: الغم وانقباض الصدر، وفي «المصباح»: ضاق الشيء ضيقاً، من باب سار، والاسم الضيق بالكسر، وهو خلاف اتسع، فهو ضيقٌ، وضاق صدره حرج، فهو ضيق أيضاً اهـ. أي: ولا تك في ضيق صدر من مكرهم، فهو من الكلام المقلوب الذي يسجع عليه عند أمن الالتباس، لأن الضيق وصف، فهو يكون في الإنسان، ولا يكون الإنسان فيه، وفيه لطيفةٌ أخرى وهو أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط به من جميع الجوانب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ إذ مقتضى السياق أن يقال: وآتاه؛ أي: الله المذكور في قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، ونكتة الالتفات زيادة الاعتناء بشأنه اهـ شيخنا.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عما هم عليه من عقد وعمل.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾.

ومنها: الطباق بين قوله ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وقوله: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: كان بنفسه كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق، كما في قول أبي نواس.

ومنها: المزاوجة والمشاكلة في قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ لأنه سمى الفعل المجازى عليه باسم الجزاء، على طريقة المشاكلة والمزاوجة، لأن تسمية الأذى الابتدائي معاقبةً من باب المشاكلة، لأنها في وضعها الأصلي تستدعي أن تكون عقيب فعل، نعم العرف جار على إطلاقها على ما يعذب به أحدٌ، وإن لم يك جزاء فعل.

ومنها: التصريح بالصبر في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ بعد التعريض له في قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ حثًّا عليه على الوجه الآكد.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿صَبَرْتُمْ﴾ و﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وبين ﴿ٱصْبِرْ﴾ ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾.

ومنها: الكلام المقلوب في قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ لأن الضيق وصف يكون في الإنسان، ولا يكون الإنسان فيه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة

ومجمل ما حوته هذه السورة الكريمة من الآداب والأحكام خمس وعشرون موضوعاً:

١ ـ استعجال المشركين للساعة.

٢ ـ ذكر الأدلة على أنه جل وعلا المتفرد بخلق العالم العُلوي والسفلي وخلق الإنسان.

٣ ـ الامتنان على عباده بخلق الأنعام، وما فيها من المنافع من أكلٍ وحمل أثقالٍ إلى البلاد البعيدة.

٤ ـ النعي على المشركين في عبادة الأصنام والأوثان.

٥ ـ إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات وبما أتاهم من العذاب من حيث لا يشعرون.

٦ ـ احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل، بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم، فلا فائدة في إرسالهم، وقد رد عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار، لا خلق الهداية والإيمان.

٧ ـ إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت، ومن الناس من استجاب لدعوتهم، ومنهم من حقت عليه الضلالة.

٨ ـ إنكار المشركين للبعث والنشور، وحلفهم على ذلك، وتكذيب الله تعالى لهم فيما يقولون.

٩ ـ إنكار بعث محمد ﷺ بأنه رجلٌ لا ملكٌ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعاً كانوا رجالاً لا ملائكة.

١٠ ـ إنذار المشركين بعذاب الخسف.

١١ ـ جعلهم الملائكة بنات الله مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى.

١٢ ـ رحمة الله بعباده، وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم، وأنه لو أخذهم ما ترك

على ظهر الأرض دابة.

١٣ ـ ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب، والعسل من النحل. وأيضاً تفاضل الناس في الأعمار والأرزاق. وأيضاً ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله.

١٤ ـ الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر، وتسخير الطير في جو السماء، وجعل البيوت سكناً، وجعله لنا سرابيل تقي الحر، وسرابيل تقي بأس العدو.

١٥ ـ جعل الأنبياء شهداء على أممهم، وعدم الإذن للكافرين في الكلام، وعدم قبول معذرتهم.

١٦ ـ الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، والأمر بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك.

١٧ ـ الأمر بالاستعاذة من الشيطان، وبيان أن سلطانه على المشركين.

١٨ ـ تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن في شريعة من قبله من الأنبياء، وادعائهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد رومي، وردَّ الله عليهم ذلك. وأنه لا ضير على من كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، دون من شرح بالكفر صدراً.

١٩ ـ دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة، وجزاء كل نفس بما عملت.

٢٠ ـ ذكر ما حرمه الله تعالى من المطاعم، والنهي عن تقولهم على الله بغير علم. وذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم.

٢١ ـ مدح إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووصفه بصفات لم يوصف بها نبيٌّ غيره، ثم أمر النبي ﷺ باتباعه، وسلوك طريقته في العقاب والصبر على الأذى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

ولقد أجاد من قال:

سبحانك لا علم لنا إلّا ما ألْهَمْتَ لَنَا
لَكَ الشُّكْرُ يَا مَوْلاَنَا عَلى مَا أَسْعَفْتَ لَنَا

شعر

يَا رَبِّ لا تُحْيِنِي إلى زَمَنٍ أكُونُ فيه كَلاً على أحَدِ
خُذْ بِيدي قَبلَ أنْ أقُولَ لِمَنْ ألْقَاهُ عِنْدَ القِيَامِ خُذْ بِيَدِي

(١) الحمد لله على إفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على محمد وآله، ما تطارد الجديدان، وتطاول المدى والزمان.
وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد بالمسفلة حارة الرشد من مكة المكرمة في شهر رمضان المبارك في اليوم الثامن والعشرين منه، يوم السبت وقت الشروق، منتصف الساعة الأولى منه، من شهور سنة إحدى عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، بتاريخ سنة ٢٨/٩/١٤١١ هـ
تم المجلد الخامس عشر من تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجلد السادس عشر، وأوله سورة الإسراء

الفهرس